

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دار الكتب

المنايع الحكماء من القرنين

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

(المتوفى ٥٦٧ هـ - ١٢٧٣ م)

الجزء السابع عشر



القاهرة

مطبعة دار الكتب

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دار الكتب

المراجع الأحكام والقوانين

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

(المتوفى ٥٦٧١ هـ - ١٢٧٣ م)

الجزء السابع عشر



القاهرة

مطبعة دار الكتب

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

بيان

ثم بعون الله تعالى تحقيق هذا الجزء (السابع عشر)
من تفسير القرطبي ، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة رقم ٩٥	تفسير، المرموز إليها بحرف ا
(٢)	» » ٢٦٨	» » » » ب
(٣)	» » ١	» » » » ح
(٤)	» » ٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية، المرموز إليها بحرف ز
(٥)	» » ١٣	تفسير، المرموز إليها بحرف س
(٦)	» » ٣١٨	» » » » ط
(٧)	» » ٦٤	» » » » ل
(٨)	» » ٩٧	» » » » ن
(٩)	» » ٢٨٤	» » » » هـ
(١٠)	» » ٣٠٧	» » » » ي

وقد وصفت هذه النسخ جميعها في مقدمة الجزء الثالث « الطبعة الثانية »

وبالله التوفيق ما

حققه

أحمد عبد العليم البردوني

فهرس الجزء السابع عشر

سورة « ق »

منحة

- ١ قراءته صلى الله عليه وسلم « ق » على المنبر يوم الجمعة ١
- تفسير قوله تعالى : « ق وَالْقُرْآنَ الْحَمِيدَ ... » الآيات . بيان القراءات في حرف « ق » وإعرابه ومعانيه والخلاف في ذلك . ما رواه وهب بن منبه عن جبل « ق » . الكلام على معنى قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » وأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء . معنى « مريح » في الآية . ١
- تفسير قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ... » الآيات . أقوال النحاة في إضافة « حب الحصيد » . معنى « باسقات » ٥
- تفسير قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات ٨
- تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ... » الآيات . الكلام على الملكين الموكلين بالإنسان . فاعيل وفعل مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع . الأحاديث الواردة في سكرة الموت ٨
- تفسير قوله تعالى : « وتفتح في الصور ... » الآيات . حديث جابر بن عبد الله في الملائكة الموكلين بالإنسان من وقت خلقه إلى وقت بعثه ١٣
- تفسير قوله تعالى : « وقال قرينه ... » الآيات . بيان المراد بالثنوية في قوله تعالى : « ألقيا في جهنم » ١٥
- تفسير قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت ... » الآيات . معنى الاستفهام في الآية . حديث أنس بن مالك في سؤال النار « هل من مزيد ... » بيان المراد بالزيادة من النعيم لأهل الجنة في قوله تعالى : « ولدينا مزيد » . الكلام على رؤية أهل الجنة لربهم يوم القيامة ١٨
- تفسير قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ... » الآيات ٢٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فأصبر على ما يقولون ... » الآيتين . فيه خمس مسائل :
 بيان أن الآية منسوخة بآية القتال ، أو ثابته للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته .
 الأقوال في تسبيح العبد بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل .
 الكلام على معنى « أدبار السجود » والقراءة فيها ... ٢٤
 تفسير قوله تعالى : « وأستمع يوم ينادى المنادى ... » الآيات . الكلام على
 نفخة البعث ومكان الحشر . الأقوال في معنى « جبار » ٢٦

سورة الذاريات

- تفسير قوله تعالى : « والذاريات ذروا ... » الآيات . خبر عمر بن الخطاب
 رضى الله تعالى عنه مع الرجل الذى كان يسأل عن مشكل القرآن تعنتا . الأقوال
 فى معنى « الذاريات » و « الحاملات وقرا » ... ٢٩
 تفسير قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك ... » الآيات . بيان معنى « الحبك »
 والقراءات فيها . الأقوال فى معنى « قتل الخراصون » . يدخل فى الخرص
 قول المنجمين ... ٣١
 تفسير قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ... » الآيات . وفيه خمس
 مسائل : معنى « يهجعون » . اختلافهم فى إعراب « ما » . سبب نزول الآية .
 ما روى عن رؤيا رجل من الأزد . الحق فى الآية هو الزكاة ... ٣٥
 تفسير قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ... » الآيات . ما يشاهده الناس
 من الآيات فى الأرض وفى أنفسهم . قصة الأعرابي الذى تلا عليه الأصمى
 سورة « الذاريات » . الأحاديث الواردة فى الرزق ... ٣٩
 تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ... » الآيات . معنى
 الاستفهام فى الآية . الكلام عن ضيف إبراهيم ... ٤٤
 تفسير قوله تعالى : « فأقبلت امرأته فى صرة ... » الآيات . معنى الصرة فى الآية
 وفى اللغة ... ٤٦

- تفسير قوله تعالى : « وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون ... » الآيات . « أو » بمعنى
 ٤٩ الواو في قوله تعالى : « وقال ساحراً أو مجنون » ...
 تفسير قوله تعالى : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ... » الآيتين . الحديث
 ٥٠ الوارد في ريح الصبا والذبور . معنى الرميم ...
 تفسير قوله تعالى : « وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ... » الآيات ...
 ٥١ تفسير قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد » الآيات . ربط هذه الآية بما قبلها
 ٥٢ تفسير قوله تعالى : « ففروا إلى الله ... » الآيات . معنى الفرار إلى الله .
 ٥٣ قوله تعالى : « فتول عنهم » نسخ بآية السيف ...
 تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ... » الآيات .
 ٥٥ الآية محمولة على المؤمنين . معنى الذنوب وأصله في اللغة ...

سورة الطور

- تفسير قوله تعالى : « والطور . وكتاب مسطور ... » الآيات . الكلام على الطور
 وإقسام الله تعالى به . أنهار الجنة وأجبالها وملاحمها . الأقوال في معنى
 « وكتاب مسطور » . الأخبار الواردة في البيت المعمور والبحر المسجور .
 ٥٨ بكاء بعض التابعين عند سماعهم قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع » ...
 تفسير قوله تعالى : « يوم تمور السماء مورا ... » الآيات . معنى المور في الآية
 ٦٢ وفي اللغة . القراءات في « يدعون » ومعناها ...
 تفسير قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونعيم ... » الآيات . معنى « فاكهين »
 ٦٤ وقراءتها بألف وبغير ألف ...
 تفسير قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ... » الآيات .
 اختلاف العلماء في معنى إلحاق ذرية المؤمنين بهم . الحديث الوارد في أولاد
 المؤمنين وأولاد المشركين . خدم أهل الجنة ...
 ٦٦ تفسير قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... » الآيات ...
 ٧٠

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن... » الآيات . « أم »
 في قوله تعالى : « أم يقولون شاعر » للتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث .
 معنى « ريب المنون » . حديث شريف في أن الكافر لا عقل له ٧١
 تفسير قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء .. » الآيات . السلم في قوله تعالى :
 « أم لهم سلم » واحد السلام . قوله تعالى : « فذرهم » منسوخ بآية السيف . ٧٤
 تفسير قوله تعالى : « وإن للذين ظلموا عذابا ... » الآيات . اختلافهم في قوله
 تعالى : « حين تقوم » . الأحاديث الواردة في الاستغفار حين القيام من المجلس
 والاستيقاظ من النوم . معنى « أدبار السجود » والقراءات فيها ٧٧

سورة النجم

- السورة مكية لحديث ابن مسعود . ما روى في سجود النبي صلى الله عليه وسلم بها ... ٨١
 تفسير قوله تعالى : « والنجم إذا هوى ... » الآيات . الأقوال في معنى « النجم »
 قصة عتبة بن أبي لهب ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليه . قوله تعالى :
 « وما ينطق عن الهوى » دليل لمن لا يجوز الاجتهاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
 الكلام على شدة جبريل عليه السلام . أقوال العلماء في معنى « ثم دنا فتدلى »
 و « قاب قوسين أو أدنى » ٨٢
 تفسير قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى ... » الآيات . الكلام على رؤية
 الباري جل وعلا . ما روى في « سدره المنتهى » من الأحاديث . جنة المأوى
 وموضعها . بيان ما يغشى السدرة . فضل السدرة على غيرها من الشجر . الأقوال
 فيما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من آيات ربه ليلة المعراج ٩٢
 تفسير قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ... » الآيات . بيان الأصنام التي
 كانت للعرب . ما روى عن قطع خالد بن الوليد للعزى . « الأخرى »
 نعمت للثانية وتوجيه ذلك . معنى « ضيزى » ووزانها ٩٩
 تفسير قوله تعالى : « إن هي إلا أسماء سميتموها ... » الآيات ١٠٣

- تفسير قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لیسمون الملائكة تسمية
الأنبياء ... » الآيات ... ١٠٤
- تفسير قوله تعالى : « لله ما في السموات وما في الأرض ... » الآيات .
في قوله تعالى : « الذين يحننون بكائر الإثم والفواحش إلا اللهم » ثلاث
مسائل : بكائر الإثم الشرك . الفواحش كل ذنب فيه الحد . اللهم صغائر
الذنوب . ما روى في سبب نزول الآية . الله واسع المغفرة لمن تاب من ذنبه ١٠٥
- تفسير قوله تعالى : « أفرأيت الذي تولى ... » الآيات . الأقوال في سبب نزول
الآية . معنى « أكدي » وأصلها ... ١١١
- تفسير قوله تعالى : « أم لم ينبا بما في صحف موسى ... » الآيات . معنى توفية
إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : « وإبراهيم الذي وفى » . اختلاف أهل
التأويل في قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » من حيث النسخ
والإحكام ، وهل ينفع أحدا عمل أحد أو لا ؟ ... ١١٢
- تفسير قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ... » الآيات ... ١١٦
- تفسير قوله تعالى : « وأن عليه النشأة الأخرى ... » الآيات . زعم العرب
في الشعري والاختلاف فيمن كان يعبد منهن ... ١١٨
- تفسير قوله تعالى : « هذا نذير من النذر الأولى ... » الآيات . بيان المراد بالنذير .
بكاء النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الصفة لما نزلت « أفمن هذا الحديث تعجبون » .
معنى السمود في قوله تعالى : « وأنتم سامدون » . بيان المراد بالسجود
في قوله تعالى : « فاسجدوا لله » ... ١٢١

سورة القمر

- تفسير قوله تعالى : « آفتربت الساعة وأنشأ القمر ... » الآيات . حديث النبي
صلى الله عليه وسلم في قرب الساعة . ما روى عن كعب ووهب في عمر الدنيا .
الروايات في أنشقاق القمر بمكة ... ١٢٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات . سبب نجات عوج بن
 عنق . الكلام على تفسير الله تعالى حفظ القرآن ١٣١
- تفسير قوله تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ... » الآيات . الكلام
 على حذف الياء من « نذر » والواو من « يدع » والياء من « الداع » وإثباتها .
 كان إهلاك عاد في يوم أربعاء . نفر الذين ذكر ابن إسحق أسماءهم من أشداء عاد . ١٣٤
- تفسير قوله تعالى : « كذبت ثمود بالنذر ... » الآيات . القراءات في قوله تعالى :
 « أبشرا » . العرب لا تكاد تتكلم بالأشرو والأخير إلا في ضرورة الشعر ... ١٣٧
- تفسير قوله تعالى : « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ... » الآيات . الكلام على وصف
 الناقة وكيفية عقرها وأسم عاقرها . العرب تسمى الجزار قدارا . بيان معنى
 « كهشيم المحتظر » ١٤٠
- تفسير قوله تعالى : « كذبت قوم لوط بالنذر ... » الآيات . أقوال النحويين
 في إعراب سحر ١٤٣
- تفسير قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم ... » الآيات . الخطاب للعرب .
 بيان معنى الاستفهام . الخلاف في أن قوله تعالى : « سيهزم الجمع » مكية
 أو مدنية . دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على كفار قريش يوم بدر ... ١٤٥
- تفسير قوله تعالى : « إن المجرمين في ضلال وسعر ... » الآيات . فيه أربع مسائل :
 حديث النبي صلى الله عليه وسلم في أن كل شيء بقدر . الله سبحانه قدر الأشياء
 قبل إيجادها . الأحاديث الواردة في تكفير أهل الإرجاء والقدر ... ١٤٧
- تفسير قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة ... » الآيات . الأخبار الواردة
 في المقعد الصدق لأهل الجنة ١٤٩

سورة الرحمن

- القول بأنها مكية والدليل على ذلك . خبر إسلام قيس بن عاصم المنقرى حين سماعه
 سورة « الرحمن » . حديث النبي صلى الله عليه وسلم في أن عمرو بن العاص قرأ سورة
 « الرحمن » ١٥١

- تفسير قوله تعالى : « الرحمن . علم القرآن ... » الآيات . الرحمن فاتحة ثلاث سور .
سورة « الرحمن » نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : يعلمه بشر . الفرق بين النجم
والشجر ، وأشتقاق لفظ النجم ، ومعنى سجودهما . بيان معنى الميزان . الكلام
على العصف والريحان . « فبأى آلاء ربكما تكذبان » خطاب للإنس
والجن ١٥٢
- تفسير قوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ... » الآيات . بيان
معنى الصلصال . الكلام على خلق الجن ١٦٠
- تفسير قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان ... » الآيات . الكلام على البحر
المالح والأنهار العذبة وما يخرج منهما ١٦١
- تفسير قوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ... » الآيات .
الضمير في « عليها » للأرض . الدعاء بـ « يا ذا الجلال والإكرام » مستحب ... ١٦٤
- تفسير قوله تعالى : « يسأله من في السموات والأرض ... » الآيتين . ما روى
من الأحاديث في تأويل قوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » . الكلام على
شأن الله في كل يوم ١٦٦
- تفسير قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان ... » الآيات . معنى الآية الوعيد
والتهديد . الكلام على شيطان العقبة لما بايع النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار .
القراءات في « سنفرغ لكم » . هذه السورة و « الأحقاف » و « قل أوحى »
دليل على أن الجن مكلفون . الكلام على نزول الملائكة يوم القيامة وإحاطتهم
على الخلائق ١٦٨
- تفسير قوله تعالى : « فإذا أنشقت السماء فكانت وردة كالدهان » . حديث
أبي هريرة في الختم على أفواه القوم يوم القيامة ونطق جوارحهم ١٧٣
- تفسير قوله تعالى : « يعرف المجرمون بسيماهم ... » الآيات . سيما المجرمين سواد
الوجه وزرقة العين . في قوله : « آن » ثلاثة أوجه . قصة الشاب الذي بكى
الملائكة لبكائه من هول القيامة ١٧٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ... » الآيات . قوله :
 « ولمن خاف مقام ربه جنتان » دليل على عدم حنث من حلف أنه من أهل
 الجنة إن كان هم بمعضية وتركها خوفاً من الله تعالى . وصف الجنة . ما قيل
 ١٧٦ فى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه
 تفسير قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف ... » الآيتين . بيان معنى الطمط .
 فى هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة ويكون لهم
 فيها جنات
 ١٨٠ تفسير قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان ... » الآيات . ما روى فى وصف
 نساء أهل الجنة . « هل » فى الكلام على أربعة أوجه ، معنى « هل جزاء الإحسان
 إلا الإحسان »
 ١٨٢ تفسير قوله تعالى : « ومن دونهما جنتان ... » الآيات . الأقوال فى المفاضلة
 بين الجنة الأولى وقوله : « ومن دونهما جنتان » . معنى الدهمة فى قوله :
 « مدهامتان » . العرب تقول لكل أخضر : أسود
 ١٨٣ تفسير قوله تعالى : « فيهما عينان نضاختان ... » الآيات . معنى النضخ .
 هل النخل والرمان من الفاكهة أو ليسا منها ؟ مذهب الحنفية فيمن حلف
 لا يأكل فاكهة وأكل رماناً أو رطباً . وصف رمان الجنة ونخلها
 ١٨٥ تفسير قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان ... » الآيتين . معنى « خيرات »
 والقراءات فيها . وصف هؤلاء الخيرات . الاختلاف فى أيهما أكثر حسناً
 الحور أو الآدميات
 ١٨٦ تفسير قوله تعالى : « حور مقصورات فى الخيام ... » الآيات . معنى الحوراء .
 ومعنى « مقصورات »
 ١٨٨ تفسير قوله تعالى : « متكئين على رفرف خضر ... » الآيات . الكلام على معنى
 الرفرف والعبرى
 ١٩٠

سورة الواقعة

صفحة

- ما روى فى فضل سورة الواقعة . عبد الله بن مسعود يأمر بناته بقراءة سورة الواقعة
كل ليلة خشية الفاقة عملاً بالحديث الشريف فى ذلك ... ١٩٤
- تفسير قوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة ... » الآيات . الواقعة القيامة والمراد
النفخة الأخيرة . « كاذبة » مصدر بمعنى الكذب أو صفة . نسبة الخفض والرفع
إلى القيامة مجاز . معنى « وبست الجبال بساً » والكلام على البس فى اللغة ... ١٩٤
- تفسير قوله تعالى : « وكتم أزواجاً ثلاثة ... » الآيات . الكلام على أصحاب
الميمنة وأصحاب المشامة والسابقين ... ١٩٨
- تفسير قوله تعالى : « ثلثة من الأولين ... » الآيات . بيان ما ورد من الأحاديث
والآثار فى أن الثلثين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . معنى « موضونة » فى الآية
وفى اللغة ... ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون ... » الآيات . الولدان هاهنا
ولدان المسلمين أو المشركين ... ٢٠٢
- تفسير قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ... » الآيات . الكلام
على سدر أهل الجنة . قراءة على رضى الله عنه « وطلع منضود » . العرب تسمى
المسرة فراشا ولباساً وإزاراً . نساء بنى آدم يخلقن خلقاً جديداً فى الإعادة .
الكلام على معنى « عرباً أتراباً » ... ٢٠٧
- تفسير قوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ... » الآيات ... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ... » الآيات ... ٢١٦
- تفسير قوله تعالى : « أفرايتم ما تحرثون ... » الآيات . المستحب لمن يلقى البذر
أن يقرأ « أفرايتم ما تحرثون » الآية . فى هذه الآية دليل لمن يدخل الزارع
فى أسماء الله تعالى ... ٢١٧
- تفسير قوله تعالى : « أفرايتم الماء الذى تشربون ... » الآيات . الأحاديث الواردة
فى شدة حر نار جهنم . بيان معنى المقوين فى قوله تعالى : « ومتاعاً للمقوين » ... ٢٢٠

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ... » الآيات . فيه سبع مسائل :
الكلام على معنى « لا » في الآية . بيان المراد من مواقع النجوم . التأويلات
في وصف القرآن بأنه كريم . الاختلاف في معنى « لا يمسّه » وكذلك
في « المطهرون » من هم ؟ . اختلاف العلماء في مس المصحف بغير وضوء ٢٢٣
تفسير قوله تعالى : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ... » الآيات . معنى المدهن .
الكلام على أن المطر سقيا الله عز وجل لا بالأنواء ٢٢٧
تفسير قوله تعالى : « فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان ... » الآيات .
الكلام على معنى الروح والريحان ٢٣٢

سورة الحديد

- تفسير قوله تعالى : « سبح لله ما في السموات والأرض ... » الآيات . بيان
معنى التسبيح والمراد به ٢٣٥
تفسير قوله تعالى : « هو الذي خلق السموات والأرض ... » الآيات ٢٣٦
تفسير قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ... » الآية ٢٣٨
تفسير قوله تعالى : « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ... » الآيات . فيه خمس
مسائل : معنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . المراد بالفتح هنا فتح مكة
أو فتح الحديدية . الكلام على فضل أبي بكر رضي الله عنه . إذا أجمع العلم
والسن في خيرين قدم العلم ٢٣٩
تفسير قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ... » الآيتين . ندب
الإنفاق في سبيل الله . الكلام على القرض الحسن . المؤمنون يؤتون نورهم يوم
القيامة على قدر أعمالهم ٢٤٢
تفسير قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس
من نوركم ... » الآيات . يترك الكافر والمنافق بلا نور يوم القيامة . الكلام
على السور في قوله تعالى : « فضررب بينهم بسور » . ما ورد في طول الأمل
ونسب بيان العمل ٢٤٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ... » الآيتين .
 سبب نزول الآية . الكلام على قسوة بنى إسرائيل وفسق أكثرهم . هذه الآية
 كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وأبن المبارك رحمهما الله تعالى ... ٢٤٨
 تفسير قوله تعالى : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ... »
 الآيتين . بيان المراد بالقرض الحسن في الآية . الكلام على الصديقين والشهداء ٢٥٢
 تفسير قوله تعالى : « أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ... » الآيات . تأويل
 عمر رضى الله عنه قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » ٢٥٤
 تفسير قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا
 في كتاب ... » الآيات . الكلام على أن كل شيء مكتوب مقدر لا مدفع له .
 معنى قوله تعالى : « الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل » ... ٢٥٧
 تفسير قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ... » الآيات . ما ورد في الأشياء
 التي نزلت مع آدم عليه السلام ... ٢٦٠
 تفسير قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا ... » الآية . فيه أربع مسائل :
 معنى الرهبانية ومن ابتدئها في قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها » . هذه الآية
 دليل على أن كل محدثة بدعة . وفيها أيضاً دليل على العزلة عن الناس عند فساد
 الزمان . نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التهرب ... ٢٦٢
 تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ... » الآيتين . معنى المكفّل
 في قوله تعالى : « يؤتكم كفاين من رحمته » ... ٢٦٦

سورة المجادلة

- تفسير قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ... » الآية . سبب
 نزولها . الروايات في أسم المجادلة وزوجها . بيان معنى السميع ... ٢٦٩
 تفسير قوله تعالى : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ... » الآية . فيه ثلاث
 وعشرون مسألة : القراءات في « يظاهرون » . حقيقة الظهار والموجب للحكم

صفحة

- منه . إجماع الفقهاء على أن تشبيه الزوجة بالأم ظهاراً ، وبغيرها من ذوات المحارم
فيه خلاف . الكفاية في الظاهر . الأصل في الظهار أن يكون بلفظ الظاهر .
خلاف العلماء إذا لم يذكر لفظ الظاهر . ألفاظ الظهار صريح وكفاية . وفي التشبيه
بعضو من أعضاء أمه خلاف . الخلاف في الظهار بالأجنبية . الظهار لازم
في كل زوجة مدخول بها وغير مدخول بها . الأقوال في الظهار من الأمة .
ما قيل في الظهار قبل النكاح . الذمي لا يلزم ظهاره . ليس على النساء تظاهر .
الغضب لا يسقط حكم الظهار . المظاهر لا يقرب المرأة حتى يكفر . إذا
ظاهر من نسائه الأربع بكلمة كان مظاهراً . حكم من ظاهر وطبق ... ٢٧٢
تفسير قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ... »
الآيتين . فيه اثنتا عشرة مسألة . الأقوال في معنى العود . عتق الرقبة يجب
أن تكون كاملة . بيان معنى المسيس في قوله تعالى : « من قبل أن يتامسا » .
الكفارة هنا مرتبة . الكلام على العتق والصيام والإطعام ... ٢٧٩
تفسير قوله تعالى : « إن الذين يحادّون الله ورسوله كتبوا ... » الآيتين . بيان
معنى المحادة ... ٢٨٨
تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ... »
الآية . بيان معنى السرار والنجوى . العدد غير مقصود في الآية . نزلت الآية
في قوم من المنافقين ... ٢٨٩
تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ... » الآية . ما قيل في سبب
نزول هذه الآية وأن المقصود بها اليهود . ما ورد في تحية اليهود للنبي صلى الله
عليه وسلم . اختلاف الفقهاء في رد السلام على أهل الذمة ... ٢٩٠
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم ... » الآيتين .
النهي عن تناجى آئنين أو أكثر دون واحد ... ٢٩٤
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ... »
الآية . فيه سبع مسائل : ما ورد في سبب نزول الآية . القراءات في قوله :

صفحة

« تفسحوا في المجالس » . الصحيح أن الآية عامة في كل مجلس . النهى عن أن يقيم الرجل أخاه ثم يجلس فيه . قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » دليل على أن الرفعة عند الله بالإيمان أولا وبالعلم ثانيا .

بيان فضل العلماء ٢٩٦

تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ... » الآيتين . سبب

الزول . حديث الترمذى في مقدار الصدقة . الروايات في نسخ هذا الحكم ... ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ... » الآيات .

بيان سبب الزول ٣٠٣

تفسير قوله تعالى : « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ... »

الآيات ٣٠٥

تفسير قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله

ورسوله ... » الآية . الروايات في سبب نزولها . استدلال مالك رحمه الله من هذه

الآية على معاداة القدرية . الكلام على حزب الله في قوله تعالى : « أولئك حزب الله

ألا أن حزب الله هم المفلحون » ٣٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية كلها ، وهي خمس وأربعون آية

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، وهي قوله تعالى : « وَاقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ لُغُوبٍ » . وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : لقد كان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين — أو سنة وبعض سنة — وما أخذت « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقرأها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحية والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآتَيْنَا الْقَمَرَ » . وعن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر بـ « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكانت صلاته بعد تخفيفا .

قوله تعالى : ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) قرأ العامة « قاف » بالجزم . وقرأ الحسن وابن أبي إسحق ونصر بن عاصم « قاف » بكسر الفاء ؛ لأن الكسر أخو الجزم ، فلمسا سكن

آخره حرّكه بحركة الحذف . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات . وقرأ هرون ومحمد بن السَّمِيع « قَاف » بالضم ؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقَطْ وقَبْلُ وبعْدُ . واختلف في معنى « قَ » ما هو ؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء أخضرت السماء منه ، وعليه طرفا السماء والسماء عليه مَقِيَّةٌ ، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس . قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في « قَ » ؛ لأنه اسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من أسماء كقول القائل :

* قَلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَاف *^(١)

أى أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدم أول « البقرة » . وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛ قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هى عروق وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروق ، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرنى فحركت عرق ذلك فترلزات تلك الأرض ؛ فقال له : يا قاف أخبرنى بشئ من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربنا لعظيم ، وإن ورائى أرضا مسيرة خمسمائة عام فى خمسمائة عام من جبال تلج يحطم بعضها بعضها ، لولا هى لاحتزقت من حر جهنم . [فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ؛ وأين هى من الأرض] . قال : زدنى ، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرَعِدُ فرائضه ، يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو رؤوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا »^(٢) . يعنى قول : لا إله إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قَ » أى قُضِيَ الأمر ، كما قيل فى « حم » أى حُمَّ الأمر . وقال ابن عباس : « قَ » اسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه اسم من أسماء

(٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي .

(١) راجع ج ١ ص ١٥٥

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٨٤

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القرطبي : آفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشَّعْبِيُّ : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الوراق : معناه قَف عند أمرنا ونهينا ولا تعدُّهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكي : هو قرب الله من عباده ، بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال ابن عطاء : أقسم الله بقوة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . (وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ) أى الرفيع القدر . وقيل : الكريم ، قاله الحسن . وقيل : الكثير ، مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان فى النفوس ؛ ومنه قول العرب فى المثل السائر : (فى كل شجر نَار ، وأسمجد المَرْخُ^(١) والعَفَّار) . أى استكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر ، قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام ؛ أى لقد علمنا . وقيل : هو « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى » وهو اختيار الترمذى . محمد بن على قال : « ق » قسم باسم هو أعظم الأسماء التى نرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد ، ثم اقتصر ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد ، وخلق الآدميين ، وصفة يوم القيامة والجنة والنار ، ثم قال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « ق » أى بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما آتتصصت فى هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كيسان : جوابه « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : « ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ » لتبعثن ؛ يدل عليه « أُنِذَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) « أَنْ » فى موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم ، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، والضمير للكفار . وقيل : للمؤمنين والكفار جميعا . ثم ميز بينهم بقوله تعالى : (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر ، كما تقول : جاءنى فلان فاسمعى المكروه ، وقال لى الفاسق

(١) المَرْخ والعَفَّار : شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر ، ويسرى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها .

أنت كذا وكذا . (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العجَاب بالضم ، والعجَاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : (إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) نبعث ؛ ففيه إضمار . (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) الرجوع الرد أى هو رد بعيد أى محال . يقال : رَجَعْتُهُ أَرْجَعُهُ رَجْعًا ، وَرَجَعَ هُوَ يَرْجِعُ رُجُوعًا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث وإن لم يحرها هنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ) أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى نتعذر علينا الإعادة . وفى التزويل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلِمْنَاهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » . وفى الصحيح : « كُلُّ آدَمَ يَأْكُلُ التُّرَابَ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ فِيهِ يُرَكَّبُ » . وقدم تقدم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرض أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِنَ فكأن الأرض تَنْقُصُ من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ) أى بعثتهم وأسمائهم فهو فاعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسهم عليها .

قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبي : بالحق القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

أى مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحّاك وابن زيد .
وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ،
ومنه مرّجت أمانات الناس أى فسدت ؛ ومرّج الدين والأمرُ اختلط ؛ قال أبو ذؤاد :
مَرَجَ الدِّينَ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدِ^(١)
وقال ابن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبي عطاء : « مريج » مختلط .
وأنشد^(٢) :

بِفَالَتٍ فَالْتَمَسْتُ بِهِ حَشَاهَا * نَفَرَ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيحُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفي : فى أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن .
وقيل : متغير . وأصل المَرَج الاضطراب والقلق ؛ يقال : مَرَجَ أمرُ الناس ومرّج أمرُ الدين
ومرج الخاتم فى إصبعى إذا قلق من الهزال . وفى الحديث : " كيف بك يا عبد الله إذا كنت
فى قوم قد مرّجت عهودهم وأماناتهم وأختلفوا فكانوا هكذا وهكذا " وشبك بين أصابعه .
أخرجه أبو داود وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا
وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ
مُنِيبٍ ۝ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ
وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ (١٠) رِزْقًا
لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝ (١١)

(١) الحارك الكاهل . والكند مجمع الكنفين من الإنسان والفرس .

(٢) البيت للداخل الهذلى ؛ ويروى فراغت بدل بغالت والضمير للبقرة . وبه أى بالسهم .

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما فى مسند أبى داود .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر اعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرغناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالانجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرٍ^(١) *

وقال الكسائي : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدم في « الرعد »^(٢) بيانه . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى من كل نوع من النبات ﴿ بَرِيحٍ ﴾ أى حسن يسر الناظرين ؛ وقد تقدم في « الحج » بيانه . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أى جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر ؛ يعنى جعلنا ذلك تبصيرا وتنبها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر في قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أى كثير البركة . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ التقدير : وحبّ النبات الحصيد وهو كل ما يحصد . هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كما يقال : مسجد الجامع وربيع الأول وحقّ اليقين وحبل الوريد ونحوها ؛ قاله الفراء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرّ والشعير . وقيل : كلّ حبّ يُحصَد ويُذَر ويُقْتَات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال رداً على قوله : « وَحَبّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال . والباسقات الطوال ؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال قتادة وعبد الله بن شداد : بُسُوْقُهَا استقامتها في الطول . وقال سعيد بن جبير :

(١) البيت في وصف فرسه ، ومصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٤ .

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٨٠ .

(٤) هكذا في الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : « والنخل » منصوب على المطف

أى رأيتنا النخل ، و « باسقات » حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء : مواخير حوامل ؛ يقال للشاة بسقت إذا ولدت ، قال الشاعر :

فَلَمَّا تَرَكْنَا الدَّارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً * بِقِرَانٍ فِيهِ الْبَاسِقَاتِ الْمَوَاقِرُ

والأول في اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] بسق النخل بسوقا إذا طال . قال :

لَنَا نَحْرٌ وَلَيْسَتْ نَحْرُكَرِيم * وَلَكِنْ مِنْ نِتَاجِ الْبَاسِقَاتِ

كَرَامٌ فِي السَّمَاءِ ذَهَبَنَ طَوَلًا * وَفَاتَ ثِمَارُهَا أَيْدِي الْجُنَّاتِ

ويقال : بسق فلان على أصحابه أى علاهم ، وأبسقت الناقة إذا وقع في ضرعها اللبن قبل التناج فهي مبسقة ونوق مباسيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « بِاصِقَاتٍ » بالصاد ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صليت وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قَ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بِاصِقَاتٍ » قال فجعلت أرددها ولا أدري ما قال ؛ إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . (لَهَا طَلْعُ نَضِيدٍ) الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل ؛ يقال : طلع الطلع طلوعا وأطلعت النخلة ، وطلعها كغفزاها قبل أن ينشق . « نَضِيدٌ » أى متراكب قد نضد بعضه على بعض . وفي البخاري « النَضِيدُ » الكفترى مادام في أكامه ومعناه منضود بعضه على بعض ؛ فإذا خرج من أكامه فليس بنضيد . (رِزْقًا لِلْعِبَادِ) أى رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات في معنى الرزق ، أو على أنه مفعول له أى أنبتناها لرزقهم ، والرزق ما كان مهيا للانتفاع به . وقد تقدم القول فيه . (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) أى من القبور أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . وقال « مَيِّتًا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لحاز

(١) في ح ، ز ، ي : اللب وهو وزان غيب ، أول اللبن عند الولادة .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧ و ص ٢١١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾
وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ
كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ
فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) أى كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك
فخل بهم العقاب ؛ ذكرهم نبا من كان قبلهم من المكذبين وخوفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا
قصصهم في غير موضع عند ذكرهم . (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ) من هذه الأمم المكذبة .
(فَحَقَّ وَعِيدِ) أى فحق عليهم وعيدى وعقابي .

قوله تعالى : (أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) أى أفعيينا به فتعيا بالبعث . وهذا توبيخ
لمنكرى البعث وجواب قولهم : « ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَيَّيت بالأمر إذا لم تعرف
وجهه . (بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) أى فى حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم
مكذب ؛ يقال : لَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ يَلْبَسُهُ لَبْسًا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ
الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) يعنى الناس ، وقيل آدم . (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِ نَفْسُهُ) أى ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها .
ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذى وسوس به نفسه هو الأكل من الشجرة ،
ثم هو عام لولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفى . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاسًا إِذَا أَنْصَرَفَتْ * كَمَا أَسْتَعَانَ بِرِيحٍ عَشْرِقٍ زَجَلٍ^(١)

وقد مضى في « الأعراف »^(٢) . (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عرق معلق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه ، وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ، لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب ، روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عرق يخالط القلب ، وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبماض الإنسان يحجب البعض البعض ولا يحجب علم الله شئ .

قوله تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ، أى نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر ، ولكنهما وكلّا به إلزاماً للحجة ، وتوكيداً للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقناة : « الْمُتَلَقِّيَانِ » ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا مات طُوِيَتْ صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »^(٣) عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . وقال مجاهد : وكل الله بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ، فذلك قوله تعالى : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

(١) عشريق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك ، وثمرته قشرة إذا هبت الريح فالتفت تلك القشرة فنخشخت فسمعت للوادي الذى تكون به زجلا ولجة تنزع الإبل .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣٠

(٣) راجع ج ٧ ص ١٧٧

لا تعجل لعله يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبي أمامة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " . وروى من حديث على رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن مقعد ملكيك على تئيتك لساك^(١) قلبهما وربك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعينك فلا تستجى من الله ولا منهما " . وقال الضحاك : مجلسهما تحت النغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنقه . وإنما قال : « قَعِيدٌ » ولم يقل قعيدان وهما آثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر^(٢) .

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا * عِنْدَكَ رَاضٍ وَالزُّمَى مُخْتَلِفٌ

وقال الفرزدق :

إِنِّي صَمِئْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى * وَأَبَى فِكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورٍ

ولم يقل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرد : أن الذي في التلاوة أول آخر آتساعا ، وحذف الثاني لدلالة الأول عليه . ومذهب الأخفش والفراء : أن الذي في التلاوة يؤدى عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام . و « قَعِيدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهري : فَعِيلٌ وفَعُولٌ مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ »^(٤) . وقال الشاعر في الجمع ، أنشده الثعلبي :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُو * لِأَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ^(٥)

(١) في رواية أخرى عن علي رضي الله عنه : « إن الملائكة قاعدان على تاجذي العبد ... الخ » .

(٢) هو قيس بن الخطيم . (٣) راجع ج ١٣ ص ٩٣ . (٤) راجع ج ١٨ ص ١٩١ .

(٥) ألكني إليها : أرسلني إليها ، والأصل في ألكني ألكني فحذفت الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقييد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) أى ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه ؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجهم من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمر . الثانى أنه الحافظ ، قاله السدى . الثالث أنه الشاهد ، قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثانى أنه الحافظ المُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة . قال الجوهري : العتيد الشيء الحاضر المهيأ ؛ وقد عَتَدَهُ تعتيذاً واعتَدَهُ اعتاداً أى أعدّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : « وَاعْتَدْتُ لَهَنَ مَتَكَاً »^(١) وفرس عتد وعَتِدَ بفتح التاء وكسرهما المعد للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ، ومنه قول الشاعر :

لئن كُنْتُ مِنِّي فِي الْعِيَانِ مُغَيِّبًا * فذكرك عندي في الفؤادِ عَتِيدٌ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه . وقال عكرمة : لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ، فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحاً ، نحو أنطريق أقعد كلُّ مما لا يتعلق به أجرولاً وزر ، والله أعلم . وروى عن أبي هريرة وأنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أول الصحيفة خيراً وفى آخرها خيراً إلا قال الله تعالى لملائكته أشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة " . وقال على رضى الله عنه : " إن لله ملائكة معهم صحف بيض فاملوا فى أولها وفى آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك " . وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدثنا جدى محمد بن إسحق قال حدثنا محمد بن موسى الحرشى قال حدثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبد أو الأمة فإذا أراد أن ينهض قال أحدهما للآخر فك الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» «غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل . وروى من حديث أنس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الله وكل بعبيده ملكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقسم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلق يسبحونني فيقولان يارب فإين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدى فكبرانى وهللانى وسبحانى وأكتبنا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة “ .^(١)

قوله تعالى : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) أى غمرته وشدته ؛ فالإنسان ما دام حياً تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعانية من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحق هو الموت سُمي حقاً إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذلك في قراءة أبى بكر وأبن مسعود رضى الله عنهما ؛ لأن السكرة هى الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أى جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوى . وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصديق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبى بكر روى عنه روايتان : إحداهما موافقة للمصحف فعلها العمل ، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نقل الحديث . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسماعيل بن إسحق القاضي حدثنا على بن عبد الله حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن مسروق قال : لما أحضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إِذَا حَشَرَ جَثَّ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(٢) *

(١) فى ١ ، ح ، ن ، هـ : « واذكرانى » .

(٢) صدر البيت : * لعمر لك ما يفنى الثراء ولا الفنى *

فقال أبو بكر : هَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ اللَّهُ : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . وَالسَّكْرَةُ وَاحِدَةُ السَّكَرَاتِ . وفي الصحيح عن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ رُكُوعٌ — أَوْ عُلبَةٌ — فِيهَا مَاءٌ بِفَعْلٍ يَدْخُلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنْ لَلَوْتُ سَكْرَاتٍ » ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ بِفَعْلٍ يَقُولُ : « فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » حَتَّى قَبِضَ وَمَالَتْ يَدَهُ . خَرَجَهُ الْبَخَارِيُّ . وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنْ الْعَبْدَ الصَّالِحَ لِيُعَالَجَ الْمَوْتُ وَسَكْرَاتُهُ وَإِنْ مَفَاصِلُهُ لَيْسَلِمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ السَّلَامُ عَلَيْكَ تَفَارِقْنِي وَأَفَارِقْكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ : « يَا مَعْشَرَ الْخَوَارِجِينَ أَدْعُوا اللَّهَ أَنْ يَهْوَنَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ السَّكْرَةُ » يَعْنِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ . وَرَوَى : « إِنْ الْمَوْتُ أَشَدَّ مِنْ ضَرْبٍ بِالسَّيُوفِ وَنَشِيرِ الْمَنَاشِيرِ وَقِرْصِ بِالْمَقَارِيطِ » . (ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) أَيْ يَقَالُ لِمَنْ جَاءَتْهُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَفْتَرُّ مِنْهُ وَتَمِيلُ عَنْهُ . يَقَالُ : حَادَ عَنْ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْودًا وَحَيْدَةً وَحَيْدُودَةً مَالٍ عَنْهُ وَعَدَلُ . وَأَصْلُهُ حَيْدُودَةٌ بِتَحْرِيكِ الْيَاءِ فَسَكَنْتُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فَعْلُولٌ غَيْرُ صَعْفُوقٍ . وَتَقُولُ فِي الْأَخْبَارِ عَنْ نَفْسِكَ : حَدَثُ عَنْ الشَّيْءِ أَحْيَدٌ حَيْدًا وَحَيْدًا إِذَا مَلَتْ عَنْهُ ؛ قَالَ طَرَفَةُ :
أَبَا مَنْذِرٍ رُمْتَ الْوَفَاءَ فَهَبْنَهُ * وَحَدَّثَ كَمَا حَادَ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّخِضِ

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) هِيَ النُّفْخَةُ الْآخِرَةُ لِلْبَعْثِ (ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)
الَّذِي وَعَدَهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ فِيهِ . وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي النُّفْخِ فِي الصُّورِ مُسْتَوْفٍ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ اختلف في السائق والشهيد ؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل ؛ رواه العوفي عن ابن عباس . وقال أبو هريرة : السائق الملك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحتمها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق : ملك يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد : يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : " إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك أكتب رزقه وأثره وأجله وأكتبه شقياً أو سعيداً ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاء الموت ^(١) ارتفع ذلك الملكان ثم جاء ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رد الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملك القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة ^(٢) أنخط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى : « لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " لَتَرَكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قَالَ : " حالا بعد حال " ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " إن قدامكم أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم " نرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن علي عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرد به عنه جابر الجعفي وعنه المفضل . ثم في الآية قولان : أحدهما أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور . الثاني أنها خاصة في الكافر ؛ قاله الضحاك .

(١) كذا في جميع الأصول والدر المنثور ، والظاهر أن يكون « ذاك » .

(٢) أنشط الكتاب : حل عقده .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ابن زيد : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة فى قريش فى جاهليتهم . وقال ابن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أى كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو اختيار الطبرى . وقيل : أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية . « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ » أى عماءك ؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذا كان فى بطن أمه فولد ؛ قاله السدى . الثانى إذا كان فى القبر فنشر . وهذا معنى قول ابن عباس . الثالث وقت العرض فى القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أى بصر عينك اليوم حديد ؛ أى قوى نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعنى نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : يعنى أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى . وقرئ « لَقَدْ كُنْتَ » « عَنْكَ » « فَبَصَّرُكَ » بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعنى الملك الموكل به فى قول الحسن وقتادة والضحاك .
 ﴿ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴾ أى هذا ما عندى من كتابة عمله مُعَدَّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول
 هذا الذى وكلتني به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هذا
 ما عندى من العذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينه الذى قيض له من الشياطين .
 وقال ابن زيد فى رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ، فيقول الله تعالى لقرينه :
 ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد
 بلفظ الاثنين فتقول : وبلك أرحلها وأزجرها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء :
 تقول للواحد قوما عنا ، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره
 اثنتان فحسبى كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر : خليلي ، ثم يقول :
 يا صاح . قال امرؤ القيس :

خَلِيلِي مُرَائِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبٍ * نُقِضَ لِبَنَاتِ الْفَوَادِ الْمُعْدَبِ

وقال أيضا :

قِفَا نَبِكْ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ * بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ الْخَوْمِلِ

وقال آخر :

فَإِنْ تَزْبُرَانِي يَا بَنَ عَقَانَ أَنْزِرْ * وَإِنْ [تَدْعَانِي] أَحْمِ عَرْضًا مُنْعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المازني : قوله « أَلْقِيَا » يدل
 على ألقى ألقى . وقال المبرد : هى تثنية على التوكيد ، المعنى ألقى ألقى فناب « أَلْقِيَا » مناب
 التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به
 الملكين . وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصل أَلْقَيْنِ بالنون الخفيفة
 تنقلب فى الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف . وقرأ الحسن « أَلْقَيْنِ » بالنون الخفيفة
 نحو قوله : « وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » وقوله : « لَنَسْفَعَا » ^(٢) . ﴿ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٌ ﴾ ^(٣)

(١) فى الأصول : « تدعوانى » وما أثبتناه هو ما عليه الرواية فى تفسير الطبرى والألوسى والقراء وغيرها .

يعمل ما فى الأصول رواية أخرى . (٢) راجع ج ٩ ص ١٨٤ (٣) راجع ج ٢٠ ص ١٢٥

أى معاند ؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق ؛ يقال عَنَدَ يَعْنِدُ بالكسر عُنُودًا أى خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العنيد عُنْد مثل رَغِيف ورَغُف . (مَنَاجِجُ الْخَيْرِ) يعنى الزكاة المفروضة وكل حق واجب . (مُعْتَدٍ) فى منطقته وسيرته وأمره ؛ ظالم . (مُرِيبٍ) شاكٌّ فى التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أَرَابَ الرَّجُلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريسة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَاجِجُ الْخَيْرِ» أنه كان يمنع بنى أخيه من الإسلام . (فَالْقِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) تأكيد للأمر الأول . (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) يعنى الشيطان الذى قبض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذبه . (وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) عن الحق وكان طاغيا بآخياره وإنما دعوته فاستجاب لى . وقريته هنا هو شيطانه بغير اختلاف . حكاه المهدوى . وحكى الثعلبى قال ابن عباس ومقاتل : قريته الملك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذى كان يكتب سيئاته : رَبِّ إِنَّهُ أَعْجَلَنِي ، فيقول الملك : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ أى ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر رَبِّ إِنَّهُ زَادَ عَلَىَّ فِي الْكَتَابَةِ ، فيقول الملك : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ أى ما زدت عليه فى الكتابة ؛ فحينئذ يقول الله تعالى : (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ) يعنى الكافرين وقرناءهم من الشياطين . قال القشيري : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) أى أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من آخضم . وقيل : هو للأثنين وجاء بلفظ الجمع . (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) قيل هو قوله : «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُحْزَى إِلَّا مِثْلُهَا»^(١) وقيل هو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْخَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢) . وقال الفراء : ما يكذب عندى أى ما يزداد فى القول ولا ينقص لعلمى بالغيب . (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(٣) أى ما أنا بمعذب من لم يُحرم ؛ قاله ابن عباس . وقد مضى القول فى معناه فى «الحج» وغيرها .

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٠ .

(٢) راجع ج ١٤ ص ٩٦ .

(٣) راجع ج ١٢ ص ١٦ ر ج ١٥ ص ٣٧٠ .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٤٠) وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٤١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٤٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٤٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٤٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٤٥)

قوله تعالى : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) قرأ نافع وأبو بكر « يَوْمَ يَقُولُ » بالياء اعتباراً بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ » . الباقر بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن ابن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وانتصب « يَوْمَ » على معنى ما يبدل القول لدى يوم . وقيل : بفعل مقدر معناه : وأنذرهم « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتفريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . « وَتَقُولُ » جهنم « هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » أى ما بقى فى موضع للزيادة ؛ كقوله عليه السلام : « هل ترك لنا عقيل من ربيع أو منزل » أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الحمد . ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد ؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الاستفهام ضرباً من الحمد . وقيل : ليس ثم قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

أَمْتَلَأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي * مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلَأَتْ بَطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فى من مسلك قد امتلأت . وقيل : يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان » . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

”لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قَطِ قَطِ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة“ لفظ مسلم . وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة : ”وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجلاه يقول لها قَطِ قَطِ فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً“ . قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القدم هنا فهم قوم يُقدمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرجل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رجلاً من الناس ورجلاً من جرّاد، قال الشاعر :

فمرّ بنا رجلٌ من الناس وانزوى * إليهم من الحىّ اليمانين أَرَجُلُ

قبائل من لحيمٍ وعُكْلٍ وخميرٍ * على أبتى نزارٍ بالعداوة أحقلُ

وبين هذا المعنى ما روى عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مقمّع ولا تابوت إلا وعليه أسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى [كل واحد منهم^(٢)] ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطِ قَطِ حسبنا حسبنا ! أى آكتفينا آكتفينا ، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : ”ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة“ وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله . وقال النضر بن شميل في معنى قوله عليه السلام : ”حتى يضع الجبار فيها قدمه“ أى من سبق في علمه أنه من أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفِ الْجَنَّةُ لِلتَّائِبِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى قربت منهم . وقيل : هذا قبل الدخول في الدنيا ؛ أى قربت من قلوبهم حين قيل لهم اجتنبوا المعاصي . وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوي بعضها إلى بعض : أى تقبض على من فيها ، وتشغل بمذابهم ، وتكف عن سؤال هل من مزيد .

(٢) الزيادة من ن .

(هامش مسلم) .

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى منهم وهذا تأكيد . (هَذَا مَا تُوعَدُونَ)
 أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على السنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ »
 بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر ؛ لأنه أنى بعد ذكر المتقين . (لِكُلِّ أَوَّابٍ
 حَفِيفٌ) أواب أى رَجَّاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله
 الضحاك وغيره . وقال ابن عباس وعطاء : الأواب المسبِّح من قوله : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ^(١) » .
 وقال الحكم بن عتيبة : هو الذى ذكر الله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبي ومجاهد : هو الذى يذكر
 ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول ابن مسعود . وقال عبيد بن عمير : هو الذى
 لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدث أن الأواب الحفيظ الذى
 إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده ، اللهم إني أستغفرك مما أصبت فى مجلسي هذا .
 وفى الحديث : ” من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك
 وأتوب إليك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس “ . وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم
 يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحب أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحب أن
 أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا استحسان واتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الوراق : هو المتوكل على
 الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . « حَفِيفٌ » قال
 ابن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لما أستودعه الله
 من حقه ونعمته وأتمنه عليه . وعن ابن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو
 الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى
 بالقبول . وروى مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من حافظ
 على أربع ركعات من أول النهار كان أوابا حفيظا “ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ) « مَنْ » فى محل خفض على البدل من قوله :
 « لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ » أو فى موضع الصفة لـ « أَوَّابٍ » . ويجوز الرفع على الاستئناف ، والخبر

« أَذْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم : « أَذْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسدي : يعني في الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب . (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) مقبل على الطاعة . وقيل : مخلص . وقال أبو بكر الوراق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمة ومواليه له ، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدم ؛ والله أعلم . « أَذْخُلُوهَا » أى يقال لأهل هذه الصفات : (أَذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النعم . وقال : « أَذْخُلُوهَا » وفي أول الكلام « مَنْ خَشِيَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : (لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا) يعني ما تشتهيهم أنفسهم وتلد أعينهم . (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (٢) قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا : أخبرنا المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كتيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب . قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا . وقال يحيى بن سلام : لمسارعهم إلى الجمع في الدنيا ، وزاد « فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك » . قال يحيى : وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

(١) راجع ج ١٣ ص ١١٤ .

(٢) راجع ج ٨ ص ٣٣٠ .

قلت : قوله " في كُتَيْب " يريد أهل الجنة ، أى وهم على كُتَيْب ؛ كما فى مرسل الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة ينظرون ربهى فى كل يوم جمعة على كُتَيْب من كافور " الحديث . وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » . وقيل : إن المزيء ما يزوجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) أى كم أهلكتنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشد منهم بطشا وقوة . (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ) أى ساروا فيها طلبا للمهرب . وقيل : أثروا فى البلاد ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دوروا . وقال قتادة : طوفوا . وقال المؤرج تباعدوا ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وقد نَقَّبْتُ فى الآفاق حَتَّى * رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ

ثم قيل : طافوا فى أقاصى البلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ . وقيل : طوفوا فى البلاد يلتمسون محيصا من الموت . قال الحرث بن حِزَّة :

نَقَّبُوا فى البلادِ مِنْ حَدَرِ الْمَوِ * تِ وَجَالُوا فى الأرضِ كُلِّ مَجَالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية « فَنَقَّبُوا » بفتح القاف وتخفيفها . والنقب هو الخرق والدخول فى الشيء . وقيل : النقب الطريق فى الجبل ، وكذلك المنقب والمنقب ؛ عن ابن السكيت . ونقب الحدار نقبا ، وأمم تلك النقبة نقب أيضا ، وجمع النقب النُقُوب ؛ أى خرقوا البلاد وساروا فى نقوبها . وقيل : أثروا فيها كآثر الحديد فيما ينقب . وقرأ السلمي ويحيى بن يَعْمَر « فَنَقَّبُوا » بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد ؛ أى طوفوا البلاد وسيروا

فيها فانظروا (هَلْ مِنْ) الموت (مَحِيص) ومهرب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشيري : « فَتَقَبُّوا » بكسر القاف مع التخفيف ؛ أى أكثروا السير فيها حتى نَقَبَتْ دوابهم . الجوهرى : وَنَقَبَ البعيرُ بالكسر إذا رَقَّتْ أخفافه ، وأَنْقَبَ الرجلُ إذا نَقَبَ بغيره ، وَنَقَبَ الخُفُّ الملبوس أى تَحَزَقَ . والمحِيصُ مصدر حاص عنه يَحِيصُ حَيْصًا وَحِيوصًا وَحِيصًا وَحِيصَانًا ؛ أى عَدَلَ وحادَ . يقال : ما عنه مَحِيصٌ أى مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ . والأنحياص مثله ؛ يقال للآولياء : حاصوا عن العدو وللأعداء أنهزموا .

قوله تعالى : (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ) أى فيما ذكرناه فى هذه السورة تذكرة وموعظة (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) أى عقل يتدبر به ؛ فكفى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة ؛ فعبّر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغْرَكَ مِنِّي أَنْفُ حُبِّكَ قَاتِلِي * وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِ الْقَلْبَ يَفْعَلُ

وفى التذييل : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتش بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة . (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ) أى أستمع القرآن . تقول العرب : ألق إلى سمعك أى أستمع . وقد مضى فى « طه » كيفية الاستماع وثمرته . (وَهُوَ شَهِيدٌ) أى شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أى قلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أى لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها فى اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد بن كعب وأبو صالح : إنها فى أهل القرآن خاصة .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) تقدم فى « الأعراف » وغيرها . واللغوب التعب والإعياء ، تقول منه : لَغِبَ

(٢) راجع ج ١١ ص ١٧٦

(١) راجع ج ١٥ ص ٥٥

(٣) راجع ج ٧ ص ٢١٨

يَلْتَغِبُ بِالْضَمِّ لُغُوبًا ، وَلِغَبَ بِالْكَسْرِ يَلْتَغِبُ لُغُوبًا لَغْةً ضَعِيفَةً فِيهِ . وَالْغَبَةُ أَنَا أَيْ أَنْصَبْتَهُ .
قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت في يهود المدينة ؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وأستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك .

قوله تعالى : فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٢٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الْشُّجُودِ ﴿٣٠﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون ؛ أَيْ هَوْنُ أَمْرِهِمْ عَلَيْكَ . ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة . وقيل : هو ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم وأمنته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم : إن الله أستراح يوم السبت .

الثانية — قوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) قيل : لانه أراد به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا ؛ قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : ” أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا — يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ — « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » (٢) “ متفق عليه واللفظ لمسلم . وقال ابن عباس : « قَبْلَ الْغُرُوبِ » الظهر والعصر . (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) يعنى صلاة العشاءين . وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ؛ قاله عطاء الخراساني وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء في قوله : « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » قال ركعتي الفجر « وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » الركعتين قبل المغرب ؛ وقال ثُمَامَةُ

أَبْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ : كَانَ ذُووُ الْأَلْبَابِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلُّونَ الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرَبِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كُنَّا بِالْمَدِينَةِ فَإِذَا أَذِنَ الْمُؤَذِّنُ لَصَلَاةِ الْمَغْرَبِ ابْتَدَرُوا السَّوَارِي فَرَكَعُوا رُكْعَتَيْنِ ، حَتَّى إِنْ رَجَلَ الْغَرِيبَ لِيَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَيَحْسِبُ أَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ صَلَّيْتَ مِنْ كَثَرَةِ مَنْ يَصَلِّيهِمَا . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَا أَدْرَكَتْ أَحَدًا يُصَلِّيُ الرُّكْعَتَيْنِ إِلَّا أَنَسًا وَأَبَا بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيَّ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى في الليل ، قاله أبو الأحوص . الثاني — أنها صلاة الليل كله ، قاله مجاهد . الثالث — أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس . الرابع — أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد . قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح في الليل فيعصده الصحيح ” مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سَبَّحَانَ اللَّهَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ “ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّهَا الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَسْمَى تَسْبِيحًا لِمَا فِيهَا مِنْ تَسْبِيحِ اللَّهِ ، وَمِنْهُ سُبُّحَةُ الضُّحَى . وَأَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّهَا صَلَاةُ الْفَجْرِ أَوِ الْعِشَاءِ فَلَا تُنْهَمَا مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ ، وَالْعِشَاءِ أَوْ ضُحَى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قال عمرو بن علي وأبو هريرة والحسن بن علي والحسن البصري والنخعي والشعبي والأوزاعي والزهرى : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، وقد رفعه ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ركعتان بعد المغرب أدبار السجود “ ذكره الثعلبي . ولفظ المأوردى : وروى عن ابن عباس قال : بث ليلة عند النبي صلى الله عليه وسلم فصلت ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : ” يا ابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود “ : وقال أنس : قال النبي صلى الله

(١) ابْتَدَرُوا السَّوَارِي : أَيْ سَارَعُوا إِلَيْهَا ، وَالسَّوَارِي جَمْعُ السَّارِيَةِ وَهِيَ الْعَمُودُ ؛ أَيْ يَقِفُ كُلُّ مَصَلٍّ خَلْفَ الْعَمُودِ لِئَلَّا يَقَعَ الْمُرُورُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي صَلَاتِهِ مُنْفَرِدًا . (٢) تَعَارَّ : اسْتَبَقَ .

عليه وسلم "من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلواته في عليين". قال أنس :
 فقرأ في الركعة الأولى « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال مقاتل :
 ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر . وعن ابن عباس أيضا : هو الوتر . قال ابن زيد : هو النوافل
 بعد الصلوات ، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة ، قال النحاس : والظاهر يدل على هذا إلا أن
 الأولى أتباع الأكثر وهو صحيح عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . وقال أبو الأحوص :
 هو التسبيح في أدبار السجود . قال ابن العربي وهو الأقوى في النظر . وفي صحيح الحديث :
 أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة " لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى
 لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد^(١) " وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد
 إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة .

الخامسة — قرأ نافع وابن كثير وحزمة « وَإِدْبَارَ السُّجُودِ » بكسر الهمزة على المصدر
 من أدبر الشيء إدباراً إذا ولى . الباقر بفتحها جمع دُبر . وهى قراءة على وابن عباس ، ومثالها
 طُنُبْ وأطناب ، أو دُبر كقفيل وأقفال . وقد استعملوه ظرفاً نحو جئتكَ في دبر الصلاة
 وفي أدبار الصلاة . ولا خلاف في آخر « وَالطُّورِ » . « وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » أنه بالكسر مصدر ،
 وهو ذهاب ضوءها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشق من سواد الليل .

قوله تعالى : وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾
 يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
 وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ
 حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ
 فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) "ولا ينفع ذا الجد منك الجد" أى لا ينفع ذا الغنى منك فناء وإنما ينفعه الإيمان والطاعة . (النهاية
 لابن الأثير) .

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أى أسمع النداء والصوت أو الصيحة وهى صيحة القيامة، وهى النفخة الثانية، والمنادى جبريل . وقيل : إسرافيل . الزمخشري : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، فينادى بالحشر ويقول : هلموا إلى الحساب فالنداء على هذا فى الحشر . وقيل : وأسمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب ، أى يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء . قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم . وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس . ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا ، ذكر الأول القشيري والزمخشري ، والثانى الماوردي . فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، ويا عظاما نخرة ، ويا أكفانا فانية ، ويا قلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة ، ويا عيونا سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصور . ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى صيحة البعث . ومعنى «الخروج» الاجتماع إلى الحساب . ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أى يوم الخروج من القبور . ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نमित الأحياء ونحيي الموتى ؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَّاعًا﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس . ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أى هين سهل . وقرأ الكوفيون «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى . الباقر بن إدغام التاء فى الشين . وأثبت ابن محيصر وابن كثير ويعقوب ياء «المنادى» فى الحالين على الأصل ، وأثبتها نافع وأبو عمرو فى الوصل لا غير ، وحذف الباقر بن الحالين .

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بيانا ، فروى الترمذى عن معاوية بن حيدة عن النبى - صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره ، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ربكنا ومشاة وتجرئون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدام تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم نخذه" فى رواية أخرى "نخذه وكفه" وخرج على بن معبد عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره :

ثم يقول — يعنى الله تعالى — لإسرافيل : ” أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى ليرجعن كلُّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ثم تدخل فى الخياشيم فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللدغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية “ وذكر الحديث ، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره فى « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى من تكذيبك وشتك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أى بمسلط تجبرهم على الإسلام ؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبار من الجبرية والتسلط إذ لا يقال جبار بمعنى مجبر ، كما لا يقال خراج بمعنى مُخرج ؛ حكاه القشيري . النحاس : وقيل معنى جبار لست تُجبرهم ، وهو خطأ لأنه لا يكون فعّال من أفعل . وحكى الثعلبي : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفعل وهى شاذة ، جبار بمعنى مجبر ، ودذاك بمعنى مُدرك ، وسّراع بمعنى مُسرّع ، وبكّاء بمعنى مُبكّك ، وعدّاء بمعنى مُعيد . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل : هو الله . وكذلك قرئ « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ »^(٢) يعنى ممسكين . وقال أبو حامد الخارزمي :^(٣) تقول العرب : سيف سقاط بمعنى مُسقط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما فى الغاشية « لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ » . وقال الفراء : سمعت من العرب من يقول جبره على الأمر أى قهره ، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبار من قولهم جبرته على الأمر أى أجبرته وهى لغة كناية وهما لغتان . الجوهرى : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه ، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر] كما تقول أكفرتة إذا نسبته إلى الكفر^(٥) . ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا يا رسول الله لو خوفنا فزلت : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ » أى ما أعددت له من العذاب ؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب ، قال الشاعر :

(١) راجع ج ١٥ ص ٣١٠ . (٢) راجع ج ١١ ص ٣٤ .

(٣) الخارزمي : نسبة إلى خارنوخ قرية بنواحى نيسابور . (٤) راجع ج ٢٠ ص ٣٧ .

(٥) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

وَأَنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ * لَمُخْلَفٍ إِعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي
وكان قتادة يقول : اللهم أجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وأثبت الياء
في « وَعِيدِي » يعقوب في الحالين ، وأثبتها ورش في الوصل دون الوقف ، وحذف الباقيون
في الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « ق » والحمد لله .

سورة والذاريات

مكية في قول الجميع ، وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذَرِيَّتِ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ
لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (وَالَّذَارِيَاتِ ذَرَوْا) قال أبو بكر الأنباري : حدثنا عبد الله بن ناجية ،
حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن ، عن يزيد
ابن خصيفة ، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضي الله عنه : إني مررت برجل يسأل
عن تفسير مشكل القرآن ، فقال عمر : اللهم أمكني منه ، فدخل الرجل على عمر يوما وهو لا لبس
ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن ، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذاريات
ذروا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يحلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه وأحملوه على قتب
وأبلغوا به حيه ، ثم ليقيم خطيبا فليقل : إن صبيغنا طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا في قومه
بعد أن كان سيذا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكواء سأل عليا رضي الله عنه ، فقال :
يا أمير المؤمنين ما « الذاريات ذروا » [قال] : ويلك سأل تفقها ولا تسأل تعثا
« وَالَّذَارِيَاتِ ذَرَوْا » الرياح « فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا » السحاب « فَالْجَارِيَّتِ يُسْرًا » السفن
« فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن علي رضي الله عنه « وَالَّذَارِيَاتِ ذَرَوْا »

(١) هو صبيغ — كامير — بن عمل — بكسر العين — كان يعنت الناس بالمقوامض والسؤالات من مثابه
القرآن فتفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه ، وكتب إلى وإليها الأيووبه ، ونهى عن مجالسته (التاج) .

قال : الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » قال : السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فَالْحَارِيَّاتِ يُسْرًا » قال : السفن موقرة « فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتي بأمر مختلف ؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتي بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتي بأمر مختلف من الحصب والجندب والمطر والموت والحوادث . ويقال : ذَرَبَ الرِّيحُ التُّرَابَ تَذْرُوهُ ذَرُورًا وَتَذَرِيَّةَ ذَرِيًّا . ثم قيل : « وَالذَّارِيَّاتِ » وما بعده أقسام ، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفا . وقيل : المعنى وربِّ الذاريات ، والجواب ((إِنَّمَا تُوعَدُونَ)) أى الذى توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ((لَصَادِقٌ)) لا كذب فيه ؛ ومعنى « لَصَادِقٌ » لصادق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . ((وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)) يعنى الجزء^(٢) نازل بكم . ثم ابتدأ قسما آخر فقال : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيل : إن الذاريات النساء الولادات لأن فى ذراتهن ذرو الخلق ؛ لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهن لما فى ترائبهن من خيرة عباده الصالحين . وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال ، فلا اجتماع الذروين فيهن خصصن بالذكر . الثانى — أن الذرو فيهن أطول زمانا ، وهن بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل . والوقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو فى بطن ، يقال : جاء يحمل وقره وقد أوفر بعيره . وأكثر ما يستعمل الوقر فى حمل البغل والجمار ، والوسق فى حمل البعير . وهذه امرأة موقرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حملها ؛ يقال : نخلة موقرة وموقر وموقرة ، وحكى موقر وهو على غير القياس ، لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : موقر بكسر القاف على [قياس] قولك امرأة حامل ، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما موقر بالفتح فشاذ ، وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوَارِعُ فِي خَلِيجٍ مُحَلِّمٍ * حَمَلَتْ فِيهَا مَوْقَرٌ مَكْمُومٌ

(١) فى ل، ن : « الخوارق » . (٢) فى ز، ل، ن : « النازل » . (٣) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع موافق . فأما الوقر بالفتح فهو ثقل الأذن ، وقد وقرت أذنه تَوَقَّرَ وقَرَأَ أى صَمَّتْ ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في « الأنعام »^(١) القول فيه . « فَأَلْجَأَ رِيَّاتٍ يُسْرًا » السفن تجرى بالرياح يسراً إلى حيث سيرت . وقيل : السحاب ؛ وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان : أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع . الثاني — هو سهولة تسييرها ؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتَهَا * مَشَى السَّحَابَةُ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لِنِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ) قيل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُبُ التى تظل الأرض . وقيل : السماء المرفوعة . ابن عمر : هى السماء السابعة ؛ ذكره المهدوى والنعلبي والمأوردى وغيرهم . وفي « الحُبُوبِ » أقوال سبعة : الأول — قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخلق الحسن المستوى . وقاله عكرمة ؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه ؛ يقال منه حَبَكَ الثوبَ يَحْبِكُهُ بالكسر حَبَكًا أى أجاد نسجه . قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكته وأحسنه غمله فقد أحببته . والثاني — ذات الزينة ؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير ، وعن الحسن أيضا : ذات النجوم وهو الثالث . الرابع — قال الضحاك : ذات الطرائق ؛ يقال لما تراه فى الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبَكَ . ونحوه قول الفراء ؛ قال : الحُبُوبُ تنكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة ، والماء القائم

إذا صرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبْك ، والشعرة الجعدة تكسرها حُبْك . وفي حديث الدجال : إن شعره حُبْك ، قال زهير :

مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ * رِيحٌ خَرِيقٌ إِضَاحِي مَائِهِ حُبْكُ^(١)

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس — ذات الشدة ، قاله ابن زيد ، وقرأ « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا »^(٢) . والمحجوك الشديد الخلق من الفرس وغيره ، قال أمرؤ القيس :

فَدَغْدَا يَنْجَلُنِي فِي أَنْفِهِ * لَا حِقُّ الْإِطْلِينَ مَحْبُوكٍ مُمَرَّ^(٣)

وقال آخر :

مَرَجَ الدِّينَ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكِ الْكَتَدِ^(٤)

وفي الحديث : أن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدرع في الصلاة ؛ أى تشد الإزار وتحمكه . السادس — ذات الصفاقة ؛ قاله خفيف ، ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بين الصفاقة . السابع — أن المراد بالطرق الحجرة التى فى السماء ؛ سميت بذلك لأنها كأثر الحجر . و « الحُبْك » جمع حباك ، قال الراجز :

كَأَنَّمَا جَلَّلَهَا الْحَوَاكُ * طَنْفَسَةٌ فِي وَثْيَا حِبَاكِ

والحباك والحبيكة الطريقة فى الزمل ونحوه . وجمع الحباك حُبْك وجمع الحبيكة حَبَائِك ، والحبيكة مثل العبيكة وهى الحبة من السويق ، عن الجوهري . وروى عن الحسن فى قوله : « ذَاتِ الْحُبْكِ » « الْحُبْكِ » و « الْحَبِكِ » والحبك والحبك [وقرأ أيضا « الْحُبْكُ »] كالجماعة . وروى عن عكرمة وأبى مجلز « الْحُبْكُ » . و « الْحُبْكُ » واحدها حبيكة ؛ « وَالْحُبْكُ » مخفف منه . و « الْحَبِكُ » واحدها حبيكة . ومن قرأ « الْحُبْكُ » فالواحدة حُبْكَة كبرقة وبرق أو حُبْكَة كظلمة وظلم . ومن قرأ « الْحَبِكِ » فهو كلابل وإطل^(٣) و « الْحَبِكِ » مخففة منه .

(١) النجم : كل شئ من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحي مائه : ماضيا للشمس من الماء أى يربز . والبيت فى وصف غدير .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٦٩

(٣) الإطل : الغاصرة كلها . وقيل : غير ذلك .

(٤) البيت لأنى دؤاد يصف فرسا . والكند — بفتح الناء وكسرها — : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس .

ومن قرأ « الحُبُّكَ » فهو شاذ إذا ليس في كلام العرب فِعْلٌ ، وهو محمول على تداخل اللغات ، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصور « الحُبُّكَ » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .
 قوله تعالى : ﴿ إِنكُم لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسماء » أى إنكم يا أهل مكة « في قولٍ مُّخْتَلِفٍ » في عهد والقرآن فمن مصدق ومكذب . وقيل : نزلت في المقتسمين . وقيل : أختلفهم قولهم ساحر بل شاعر بل آفته بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأولين . وقيل : أختلفهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقولون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يصرف عن الإيمان بحمد والقرآن من صُرِفَ ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : المعنى يُصَرَفُ عن الإيمان من أراد به بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأولين . وقيل : المعنى يُصَرَفُ عن ذلك الاختلاف من عصمه الله .
 أُنْفِكَ يَا فُكَّهُ أَفُكَّا أى قلبه وصرفه عن الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ ﴾^(١) . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤْفَنُ عنه من أفن ، والأفَنُ فساد العقل . الزمخشري : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم ؛ من أفن الضرع إذا أنهكه حلباً . وقال قُطْرُب : يُخَدَعُ عنه من خُدِعَ . وقال اليزيدى : يُدْفَعُ عنه من دُفِعَ . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ في التفسير : لُغِنَ الكذابون . وقال ابن عباس : أى قُتِلَ المرتابون ؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنابعث . ومعنى « قُتِلَ » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين . وقال الفراء : معنى « قُتِلَ » لُغِنَ ؛ قال : و « الْخَرَّاصُونَ » الكذابون الذين يتخرون بما لا يعلمون ؛ فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول المالك . قال ابن الأنباري : علمنا الدعاء عليهم ؛ أى قولوا : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ » وهو جمع خاوص والخرص الكذب والخراص الكذاب ، وقد خرص يخرص بالضم خرصا أى كذب ؛

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥

يقال : نَحْرَصُ وَأَخْرَصُ ، وَخَلَقَ وَأَخْلَقَ ، وَبَشَكَ وَأَبْتَشَكَ ، وَسَرَجَ وَأَسْتَرَجَ ، وَمَانَ ، بِمَعْنَى كَذَبَ ؛ حَكَاهُ النَّحَّاسُ . وَالنَّحْرَصُ أَيْضاً حَزْرٌ مَا عَلَى النَّخْلِ مِنَ الرُّطْبِ تَمَرًا . وَقَدْ نَحْرَصْتُ النَّخْلَ وَالْأَسْمَ الْخِرَصَ بِالْكَسْرِ ؛ يَقَالُ : كَمْ نَحْرَصُ نَخْلَكَ وَالْخِرَاصُ الَّذِي يَنْحَرِصُهَا فَهُوَ مُشْتَرِكٌ . وَأَصْلُ النُّحْرَصِ الْقَطْعُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي « الْأَنْعَامِ » ^(١) وَمِنْهُ النُّحْرِيصُ لِلخَلِيجِ ؛ لِأَنَّهُ يَنْقَطَعُ إِلَيْهِ الْمَاءُ ، وَالنُّحْرَصُ حَبَّةُ الْقُرْطِ إِذَا كَانَتْ مَنْفَرْدَةً ؛ لِأَنْقِطَاعِهَا عَنْ أَخَوَاتِهَا ، وَالنُّحْرَصُ الْعُودُ ؛ لِأَنْقِطَاعِهِ عَنْ نِظَائِرِهِ بِطَلِبِ رَائِحَتِهِ . وَالنُّحْرِصُ الَّذِي بِهِ جُوعٌ وَبَرْدٌ لِأَنَّهُ يَنْقَطَعُ بِهِ ، يَقَالُ : نَحْرَصُ الرَّجُلَ بِالْكَسْرِ فَهُوَ نَحْرِصٌ ، أَيْ جَائِعٌ مَقْرُورٌ ، وَلَا يَقَالُ لِلْجُوعِ بِلَا بَرْدٍ نَحْرَصٌ . وَيَقَالُ لِلْبَرْدِ بِلَا جُوعٍ نَحْرَصٌ . وَالنُّحْرَصُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ الْحَلْقَةُ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ وَالْجَمْعُ النُّحْرَصَانُ . وَيَدْخُلُ فِي النُّحْرَصِ قَوْلُ الْمُنْجِمِينَ وَكُلٌّ مِنْ يَدْعَى الْحَدْسَ وَالتَّخْمِينَ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمُ الْمُقْتَسِمُونَ الَّذِينَ آفَقَسَمُوا أَعْقَابَ مَكَّةَ ، وَآفَقَسَمُوا الْقَوْلَ فِي نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِيَصْرِفُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ .

قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) الغمرة ما ستر الشيء وغطاه . ومنه نهر غمَرُ أَيْ يَغْمُرُ مَنْ دَخَلَهُ ، وَمِنْهُ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ . « سَاهُونَ » أَيْ لَاهُونَ غَافِلُونَ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ . قوله تعالى : (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) أَيْ مَتَى يَوْمُ الْحِسَابِ ؛ يَقُولُونَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً وَشَكًّا فِي الْقِيَامَةِ . (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) نَصَبَ « يَوْمَ » عَلَى تَقْدِيرِ الْجَزَاءِ أَيْ هَذَا الْجَزَاءِ « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أَيْ يُحْرَقُونَ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَتَنَتِ الذَّهَبَ أَيْ أَحْرَقَتْهُ لِنَحْتَبَرِهِ ، وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ الْإِخْتِبَارُ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مَبْنَى عَلَى إِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مِمَّا مَكَانَ ، وَمَوْضِعُهُ نَصَبٌ عَلَى التَّقْدِيرِ الْمُتَقَدِّمِ ، أَوْ رَفْعٌ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ « يَوْمُ الدِّينِ » . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : يَقُولُ يَعْجِبُنِي يَوْمٌ أَنْتَ قَائِمٌ وَيَوْمٌ أَنْتَ تَقُومُ ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتَ وَهُوَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، فَلِأَنَّمَا أَنْتَ نَصَبٌ هَذَا وَهُوَ فِي الْمَعْنَى رَفْعٌ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « يُفْتَنُونَ » يُعَذَّبُونَ . وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :
كُلُّ أَمْرٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٌ * بِطِينِ مَكَّةَ مَقْهُورٌ وَمُفْتَنُونَ

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : حريقكم . ابن عباس : أى تكذيبكم يعنى جزاءكم . الفراء : أى عذابكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فى الدنيا . وقال : « هَذَا » ولم يقل هذه ؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أى هم فى بساطين فيها عيون جارية على نهاية ما ينتزه به . ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جببر : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أى عاملين بالفرائض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أى قبل دخولهم الجنة فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض . وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين فى أعمالهم .

قوله تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى « يَهْجَعُونَ » ينامون ؛ والهجوع النوم ليلا ، والتهجاع النومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأسلت :
قد حصت البيضة رأسى فـ * أطعمت نوماً غير تهجاع
وقال عمرو بن معدى كرب يتشوق أخته وكان أسرها الصمة أبو دريد بن الصمة :
أمن ريحانة الداعي السميع * يؤرقنى وأصحابى هجوع
يقال : هَجَعَ يَهْجَعُ هُجُوعًا ، وَهَبَعَ يَهْبَغُ هُبُوعًا بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهرى .
وآختلف فى « ما » فقيل : صلة زائدة - قاله إبراهيم النخعى - والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون؛ أى ينامون قليلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لما أمروا بقيام الليل . وكان أبو ذر ^(١) يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » ^(٢) الآية . وقيل : ليس « ما » صلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلًا » ثم يتبدئ « مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ما » للنفي وهو نفي النوم عنهم البتة . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نشطوا بفتحوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمي أنه قال : أختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلًا » معناه كان عددهم يسيرا ثم ابتدأ فقال : « مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون ؛ قال ابن الأنباري : وهذا فاسد ؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم ، وبعد فلو ابتدأنا « مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جمحداً .

قلت : وعلى ما تأوله بعض الناس — وهو قول الضحاك — من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا ، ثم استأنف فقال : « مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأول والثاني يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ » خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ » ، وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل ؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ما » يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا ، ويجوز أن تكون رفعا على البدل من أسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليلا من الليل ، وانتصاب قوله : « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ » على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوما قليلا يهجعون ، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : « قَلِيلًا » خبر كان ولم يحز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » ؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة في تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين : المغرب والعشاء . أبو العالية : كانوا لا ينامون بين العشاءين . وقاله ابن وهب . وقال مجاهد :

نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يمشون إلى قُبَاء . وقال محمد بن علي بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمَةَ . قال الحسن : كأنه عَدَّ هجوعهم قليلاً في جنب يقطتهم للصلاة . وقال ابن عباس ومُطَرِّف : قَلَّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون لله فيها إما من أولها وإما من وسطها .

الثانية — روى عن بعض المتجهدين أنه أتاه آتٍ في منامه فأنشده :

وكيف تنام الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تدِر في أيِّ المجالسِ تنزِلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليل فَنمت في آخر الليل ، فإذا أنا بشايبين أحسن ما رأيت ومعهما حُلٌّ ، فوقفا على كل مصلى وكسواه حلة ، ثم آتيا إلى النيام فلم يكسوهما ، فقلت لهما : آكسوانى من حُللكما هذا ؟ فقالا لى : إنها ليست حلة لباس إنما هى رضوان الله يحل على كل مصلى . ويروى عن أبي خَلاد أنه قال : حدثني صاحب لى قال : فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ مُثِلت لى القيامة ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهم ، وعليهم الحل من دون الخلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسبون والناس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة ! فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسبون فهم المصلون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد ، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة ؟ فقال لى : هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقربا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب ، قال : فصِحت فى منامى : واهّا للعابدين ، ما أشرف مقامهم ! ثم استيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَنْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أى يستغفرون من

ذنوبهم ، قاله الحسن . والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى « آل عمران » القول فيه . وقال ابن عمر ومجاهد : أى يصلون وقت السَّحَر فسموا الصلاة استغفاراً . وقال الحسن فى قوله تعالى : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » مدوا الصلاة من أول الليل

إلى السحرة ثم استغفروا في السحر . ابن وهب : هـى فى الأنصار ؛ يعنى أنهم كانوا يغدون من قُبَاء فيصلون فى مسجد النبىِّ صلى الله عليه وسلم . ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحُونَ لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يجمعون قليلا ، ثم يصلون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملى على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْنًا بعيدا لا نبلغ أعمالهم « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعرضت عملى على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم ، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت ، فوجدنا خيرا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ مدح ثالث . قال محمد بن سيرين وقناة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رَحِمًا ، أو يقرى به ضيفا ، أو يحمل به كَلًّا ، أو يغنى محروما . وقاله ابن عباس ؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ابن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة ؛ لقوله تعالى فى سورة « سأل سائل » : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ^(١) » والحق المعلوم هو الزكاة التى بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها ، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم ؛ لأنه غير مقدر ولا مجتس ولا موقت .

الخامسة — قوله تعالى : « لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » السائل الذى يسأل الناس لفاقته ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما . « وَالْمَحْرُومِ » الذى حُرِمَ المال . واختلف فى تعيينه ؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما : المحروم المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : المحروم المحارف الذى لا يتيسر له مكسبه ؛ يقال : رجل محارف بفتح الراء أى محدود محروم ، وهو خلاف قولك مبارك . وقد حورف كسبُ فلان إذا شدد عليه فى معاشه كأنه ميلَ برزقه عنه . وقال قتادة والزهرى : المحروم المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا ولا يُعْلِمُ بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذى يحىء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبىِّ صلى الله عليه وسلم بعث سريّة فأصابوا وغنموا بجاء قوم بعد ما فرغوا فترلت هذه الآية « وَفِي أَمْوَالِهِمْ » . وقال

عكرمة : المحروم الذي لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته . وقال القرظي : المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ « إِنَّا لَمُعْرُومُونَ . بَلْ نَحْنُ مُعْرُومُونَ » نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مُعْرُومُونَ » وقال أبو قلابة : كان رجل من أهل اليمامة له مال بخاء سيل فذهب بماله ، فقال رجل من أصحابه : هذا المحروم فأقسموا له . وقيل : إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبر عنه . وهو يروى عن ابن عباس أيضا . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل : إنه الكلب ؛ روى أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة ، بخاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوى الأنساب ؛ لأنه قد حُرِمَ كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره . وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذي يحرم الرزق ، وهذا قول حسن ؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبي : لى اليوم سبعون سنة منذ آحتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي . وأصله في اللغة المنوع ؛ من الحرمان وهو المنع . قال علقمة :

وَمَطْعُمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مَطْعَمُهُ • أَيْ تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ مُحْرَمٌ

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَيَلُّ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ رَبَّنَا ظَلَمْنَاهَا حَقُّوْنَا الَّتِي فَرَضْتَ لَنَا عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَزَّتْى وَجَلَالى لِأَقْرَبِنَكم وَلَا بَعْدَنَهم » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بين أن فى الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور ؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما ، ومنها أنه

قدر الأقوات فيها قواما للحيوانات ، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأثم المكذبة . والموقنون هم العارفون المحققون وحدانية ربهم ، وصدق نبوة نبيهم ؛ خصهم بالذكر لأنهم المستفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : **(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** قيل : التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للوقنين . وقال قتادة : المعنى من سار في الأرض رأى آيات وعبراً ، ومن تفكر في نفسه علم أنه خلق ليعبد الله . ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب ابن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط ؛ فتلك الآية في النفس . وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، **(ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)** . السدى : **(وَفِي أَنْفُسِكُمْ)** أى في حياتكم وموتكم ، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفي الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفي خلق أنفسكم من نقطة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفي اختلاف الأنسنة والألوان والصُّور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأنيها لما خلقت له ، وما سوى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني ، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز ، وإذا آسترخى أتاخ الذل **(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)** . **(أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** يعنى بصر القاب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه مُنْجَح العاجز ، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد في الاعتبار . وقد قدّمنا في آية التوحيد من سورة « البقرة » ^(٥) أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالم الصغير شيء إلا وله نظير في العالم الكبير ، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغنى لمن تدبر .

(١) راجع ج ١٤ ص ١٧ (٢) في الأصل المطبوع : « وما فيها من العقول » .
(٣) جست اليد تيبست عظامها وقيل لحمها . (٤) راجع ج ١٢ ص ١١٠ (٥) راجع ج ٢ ص ٢٠٢

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك :
الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وتلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير :
كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه :
فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم . وقال أهل المعاني : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ »
معناه وفي المطر رزقكم ؛ سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر ^(١) :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » ^(٢) . وقال سفيان الثوري : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أي عند الله في السماء
رزقكم . وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب . وعن
سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزق في السماء وأنا
أطلبه في الأرض ! فدخل تحربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو في الثالثة بدوخلة ^(٣)
رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دواخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى
فارق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » بالألف وكذلك
في آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني من خير وشر . وقال
غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة .
الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر
الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث
وما خلق في السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحق ثم أكد بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾
وخص النطق من بين سائر الحواس ؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه ، كالذي

(١) هو معقود الحكماء معارية بن مالك ؛ وسمى معقود الحكماء لقوله في هذه القصيدة :

أعود مثلها الحكماء بعدى * إذا ما الحق في الحدنان نابا

(٢) راجع ج ٩ ص ٦

(٣) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفينة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

يُرى في المرأة ، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدوى والطين في الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصدى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مشوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره .

وقال الحسن : بلغني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدقوه قال الله تعالى : « فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » " . وقال الأصمعي : أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلدا سيفه وبيده قوسه ، فدنا وسلم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أضمع ، قال : أنت الأصمعي ؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن ، قال : والرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ، قال : فأتل على منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعي حسبك !! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجملدها ، وقال : أعني على توزيعها ؛ فنزقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرها ووضعهما تحت الرجل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقت نفسي ولمتها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر ، فسلم على وأخذ بيدي وقال : آتل على كلام الرحمن ، وأجلسني من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حتى وصلت إلى قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقال الأعرابي : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ » قال فصاح الأعرابي وقال : ياسبحان الله ! من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى أبلثوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شيء فقال : اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به ؛ فشبع وروى من غير طعام ولا شراب . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أن أحدكم

فسر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسنده الثعلبي . وفي سنن أبن ماجه عن حبة وسواء
أبني خالد قالوا : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئاً فأعناه عليه ، فقال : " لا تياسا
من الرزق ما تهزرت رءوسكم فإن الإنسان تله أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله " . وروى
أن قوما من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية
فقالت : مالي أراكم قد نكستم رءوسكم ، وضاعت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، رزقنا
عليه يأتينا به حيث شاء ! ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرة في البحر راسية * صمًا مملِمةً ملَسًا نواحيها
رِزْقُ لِنَفْسٍ بَرَّاهَا اللهُ لَأَنْفَلَقْتُ * حتى تؤدي إليها كُلُّ ما فيها
أو كان بين طباق السبع مسلكتها * لَسَهَّلَ اللهُ في المرقى مرَاقِها
حتى تنال الذي في اللوح خُطَّ لها * إن لم تنله وإلا سوف يأتيناها

قلت : وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ،
فسمع قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فرجع ولم يكلم النبي صلى
الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب ؛ وقد ذكرناه في سورة
« هود » . وقال لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ »
الآية . وقد مضى في « لقمان » وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة)
والحمد لله . وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء ، وهو فراغ القلب مع الرب ؛ رزقنا
الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنه وكرمه .

قوله تعالى : (مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ) قراءة العامة « مِثْلَ » بالنصب أى كمثل
« مَا أَنْتُمْ » فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أى كمثل نطقكم و « ما » زائدة ؛ فإله
بعض الكوفيين . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ؛ أى لَحَقَّ حَقًّا مِثْلَ

(١) القشر هنا الثياب .

(٢) راجع ج ٩ ص ٦

(٣) راجع ج ١٤ ص ٦٦

نطقك ؛ فكانه نعت لمصدر محذوف . وقول سيديويه : إنه مبنى بُنى حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد . المازنى : « مِثْل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح لذلك . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ قال : ولأن من العرب من يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً ؛ فتقول : قال لى رجلٌ مثلك ، ومررت برجل مثلك بنصب [مثل على معنى كمثل] ^(١) . وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائى والأعمش « مِثْل » بالرفع على أنه صفة لحق ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة ، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التى يقع بعدها التماثل بين المتماثلين . و « مِثْل » مضاف إلى « أَنْكُمْ » و « ما » زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا . ويجوز أن تكون بدلا من « لحق » .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِجَآءٍ يَعْجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليعين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط . « هَلْ أَتَاكَ » أى ألم يأتك . وقيل : « هَلْ » بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ^(٢) . وقد مضى الكلام فى ضيف إبراهيم فى « هود » ^(٣) و « الحجر » ^(٤) . « الْمُكْرَمِينَ » أى عند الله ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ^(٥) قال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل — زاد عثمان بن حصين — ورفائيل عليهم الصلاة والسلام . وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة . وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع ج ١٩ ص ١١٦

(٣) راجع ج ٩ ص ٦٢ (٤) راجع ج ١٠ ص ٣٥ (٥) راجع ج ١١ ص ٢٨١

قال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم غير مذعورين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم وإياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لى على بن عياض : عندى هريسة مارأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيى فيها ؛ قال : أمض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب ، فما راغنى إلا به ومعه القمقممة والطست وعلى عاتقه المنديل ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوْنٌ عليك فإنك عندنا مكرم ، والمكرم إنما يُخدم بالنفس ؛ أنظر إلى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » . قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ تقدم فى « الحجر » . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمرى سلام أوردى لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سَلَمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى أتم قوم منكرون ؛ أى غرباء لانعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر ، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ، فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر :^(٢)

فَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانِ الَّذِي نَكَرْتُ * مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَامَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقد مضى فى « الصافات » . ويقال : أراغ وأراغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِغ أى تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أى مال إليه سرا وحاد ، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى . ﴿ بَجَاءٍ يَعْبِلُ سَمِينٍ ﴾^(٣) أى جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى « هود » : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَبْلٍ حَنِيذٍ » . ويقال : إن إبراهيم أنطلق إلى منزله كالمستخفى من ضيفه ، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٩٤

(٣) هو الأعشى .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٤

(٥) فى ن : « كالستحي » .

(٤) راجع ج ٩ ص ٦٣ و ٦٨

قوله تعالى : ﴿ قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وأختاره لهم سمينا زيادة في إكرامهم . وقيل : العجل في بعض اللغات الشاة . ذكره الفشيري . وفي الصحاح : العجل ولد البقرة والعجول مثله والجمع العجاجيل والأنتى عجلة ، عن أبي الجراح ، وبقرة معجل ذات عجل ، وعجل قبيلة من ربيعة . قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحس منهم في نفسه خوفا . وقيل : أضمج لما لم يتحرموا بطعامه . ومن أخلاق الناس : أن من تحرم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو ابن دينار : قالت الملائكة لانا كل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا اتخذك الله خليلا . وقد تقدم هذا في « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قربته إليهم . وروى عون بن أبي شتاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار . ومعنى « عليم » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسماعيل وليس بشئ فإن الله تعالى يقول : وَبَشَّرَاهُ بِإِسْحَاقَ ^(١) . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٤٠﴾ قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى في صيحة وضجة ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقاتدة : إنها الرنة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتنى أى أخذ في شتى . وقيل : أقبلت في صرة أى في جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة . قال

(١) راجع ج ١٥ ص ٩٩ (٢) في ن : « الناس » .

الجوهري : الصرة الضجة والصيحة ، والصرة الجماعة ، والصرة الشدة من كرب وغيره ، قال امرؤ القيس :

فَأَلْحَقَهُ بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ * جَوَاحِرُهَا فِي صَرَةٍ لَمْ تَزَلْ^(١)

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة ، وصرة القيط شدة حره ، فلما سمعت سارة البشارة صكت وجهها ؛ أى ضربت يدها على وجهها على عادة النسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، وقال ابن عباس : صكت وجهها لطمته . وأصل الصك الضرب ؛ صكه أى ضربه ؛ قال الراجز^(٢) :

* يَا كَرَوَانَا صُكَّ فَأَكْبَأْنَا *

قال الأُموي : كَبَنَ الظبي إذا لطأ بالأرض وَأَكْبَأَنَ أَنْقَبَضَ . (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) أى أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أى وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد ، كما قالت : « يَا وَيْلَتَا أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ »^(٣) . (قَالُوا كَذَلِكَ) أى كما قلنا لك وأخبرناك (قَالَ رَبِّكِ) فلا تشكى فيه ، وكان بين البشارة والولادة سنة ، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة وقد مضى هذا . (إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٤٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٤٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٧﴾

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقرا الوحش ، وجواهرها منقذاتها ، ولم تزل ، أى لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقرا الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن ، وتماه : * فشن بالسلاح فلما شنا *

(٣) راجع ج ٩ ص ٦٩

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى ما شأنكم وقصتكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) يريد قوم لوط . ﴿ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ طِينٍ ﴾ أى لنرجعهم بها . ﴿ مُّسَوِّمَةً ﴾ أى مُّعَلِّمَةً . قيل : كانت مخططة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحمرة . وقيل : « مُّسَوِّمَةً » أى معروفة بأنها حجارة العذاب . وقيل : على كل حجر اسم من يهلك به . وقيل : عليها أمثال الخواتيم . وقد مضى هذا كله فى « هود » . فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشذاذهم فلم يفلت منهم مخبر . ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه . ثم قيل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ، قاله ابن زيد ، وهو معنى قوله تعالى : « حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ » على ما تقدم بيانه فى « هود » . وقيل : هى الحجارة التى نراها وأصلها طين ، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور . وإنما قال : « مِّنْ طِينٍ » ليعلم أنها ليست حجارة الماء التى هى البرد . حكاه الفشيرى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ، وذلك قوله تعالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » . ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى لوطا وبنتيه وفيه إضمار ؛ أى فما وجدنا فيها غير أهل بيت . وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل . وقوله : « فِيهَا » كناية عن القرية ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم . وأيضا فقوله تعالى : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية . وقيل : الضمير فيها للجماعة . والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواء بفحس اللفظ لئلا يتكرر ، كما قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » . وقيل : الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن . فسماهم فى الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى فى « البقرة » وغيرها . وقوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ

أَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا» يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أى عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم ؛ نظيره : « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ^(١) . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الحربية . وقيل : الحجارة المنصودة التي رجموا بها هي الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون ^(٢) .

قوله تعالى : وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكْنِهِ وَقَالَ سَحِجٌّ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ أى وتركنا أيضا فى قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِي مُوسَى » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بحجة بيّنة وهى العصا . وقيل : أى بالمعجزات من العصا وغيرها . قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ رُكْنِهِ ﴾ أى فرعون أعرض عن الإيمان « رُكْنِهِ » أى بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوَّابِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » يعنى المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فَمَا أَوْهَىٰ مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِي * وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِن زَمَانِي ^(٤)

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : « أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » ^(٥) وقاله المؤرج . الجوهرى : ورُكْنُ الشئ جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد أى عزرة ومنعة . القشيري : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة فى الإعراض عن الشئ .

(٢) فى ح « المنتفعون » .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٤٣ .

(٤) فى رواية : « ولأوصلت إلّ بد الزمان » .

(٣) راجع ج ٩ ص ٧٨ .

(٥) راجع ج ١٠ ص ٣٢١ .

(وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ) « أو » بمعنى الواو ، لأنهم قالواهما جميعا . قاله المؤرج والفراء ، وأنشد بيت جرير :

أَعْلَبَةُ الْفَوَارِسِ أَوْ رِيَّاحًا * عَدَلَتْ بِهِمْ طُهْيَّةٌ وَالْخِشَابُ^(١)

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ، كقوله تعالى : « وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا »^(٢) والواو بمعنى أو ، كقوله تعالى : « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدم جميع هذا . (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ)^(٣) لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . (فَتَنَبَّأَهُمْ) أى طرحناهم (فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)^(٤) يعنى فرعون ، لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَفِي عَادٍ) أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . (إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) وهى التى لا تُلْقِح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة ؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد . ثم قيل : هى الجنوب . روى ابن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الرِّيحُ الْعَقِيمُ الْجَنُوبُ » وقال مقاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ » . وقال ابن عباس : هى النكباء . وقال عبيد بن عمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا ؛ فالتة أعلم .

قوله تعالى : (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ) أى كالشئء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يلس وتفتت : رميم وهشيم . قال ابن عباس : كالشئء الهالك البالى ؛ وقاله مجاهد .^(٤) ومنه قول الشاعر :

(١) طهية — كسبية — : حى من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب : بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٧

(٣) راجع ج ١٩ ص ١٤٧

(٤) هو جرير بن أبيه .

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي * وَإِذْ بَقِيْتُ كَعَظِيمِ الرَّمَّةِ الْبَاسِي

وقال قتادة : إنه الذي ديس من يابس النبات . وقال أبو العالمة والسدي : كالتراب المدقوق . قُطِرَب : الرِّيم الرَّماد . وقال يمان : مارمته الماشية من الكلال بمرمتها . ويقال للشفة المِرْمَة والمِقْمَة بالكسر ، والمِرْمَة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رَمَّ العظم إذا بلى ، تقول منه : رَمَّ العظم يَرِّم بالكسر رِمَّة فهو رميم ، قال [الشاعر]^(١) :

وَرَأَى عَوَاقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذْمَّة * تَبَقَّى عَلَيْهِ وَالْعِظَامُ رَمِيمٌ

والرِّمَة بالكسر العظام البالية والجمع رِمَم ورِمَام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم^(٢) .

قوله تعالى : وَفِي مُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَاخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَكَأَسْتَطْعُوهَا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : (وَفِي مُمُودَ) أى وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا تمتعين بالدنيا (حَتَّىٰ حِينٍ) أى إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما فى هود : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل : معنى « تَمَتَّعُوا » أى أساءوا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . (فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) أى خالفوا أمر الله فعمقوا الناقة (فَاخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ) أى الموت . وقيل : هى كل عذاب مهلك . قل الحسين بن واقد : كل صاعقة فى القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحيد وابن محيصن ومجاهد والكسائي « الصَّعِقَةُ » يقال صَعِقَ الرجل صَعِقَةً ونَصَمَاقاً أى نَشِي عليه . وصَعَقْتَهُم السماء أى ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى فى « البقرة » وغيرها . (وَهُمْ يَنْظُرُونَ) إليها نهارا . (فَكَأَسْتَطْعُوهَا مِنْ قِيَامٍ) قيل : معناه

(١) من ن . (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٠٦ . (٣) رابع ج ٩ ص ٦٠ .

(٤) فى ج ٤ ، ز ، ن : « إِذَا أَلْقَتْ » . (٥) راجع ج ١ ص ٢١٩ .

من نهوض . وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم ، تقول : لا أقوم لهذا الأمر أى لا أطيقه . وقال ابن عباس : أى ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب . (وَمَا كَانُوا مُتَضَرِّينَ) أى ممتنعين من العذاب حين أهلكوا ، أى ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾ قوله تعالى : (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ) قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو « وَقَوْمَ نُوحٍ » بالخفض ، أى وفي قوم نوح آية أيضا . الباقيون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح ، أو يكون معطوفا على الماء والميم في « أَخَذْتُهُمْ » أو الغاء في « أَخَذْنَاهُ » أى فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح ، أو « نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » ونبذنا قوم نوح ، أو يكون بمعنى اذكر .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَلَكُودُونَ ﴿٦٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) لما بين هذه الآيات قال : وفي السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أى بقوة وقدرة . عن ابن عباس وغيره ، (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) قال ابن عباس : لقادرون . وقيل : أى وإنا لذوسعة ، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده . وقيل : أى وإنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن ابن عباس أيضا . الحسن : وإنا لمطيقون . وعنه أيضا : وإنا لموسعون الرزق بالمطر . وقال الضحاك : أغنياناكم ، دليله : « عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرٌ » . وقال القتيبي : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة . الجوهرى : وأوسع الرجل أى صار ذا سعة وغنى ، ومنه قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا)

أى بسطناها كالفرش على وجه الماء ومددناها . (فَعِمْمَ الْمَاهِدُونَ) أى فنعم الماهدون نحن لهم . والمعنى فى الجمع التعظيم ، مهدت الفرش مهذا بسطته ووطّته ، وتهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

قوله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) أى صنفين ونوعين مختلفين . قال ابن زيد : أى ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعنى الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والحن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى ، وكالاشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأرايح والأصوات . أى جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إذ هو عز وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

قوله تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَحَّصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٌ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم ، لذلك قال الله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ، أى قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى فترؤوا من معاصيه إلى طاعته . وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ » أخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

آبَن الْفَضْل : أَحْتَرِزُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ دُونَ اللَّهِ فَمَنْ فَرَّ إِلَى غَيْرِهِ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْهُ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ : فِرُوا مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ . وَقَالَ الْحُسَيْنُ : الشَّيْطَانُ دَاخِعٌ إِلَى الْبَاطِلِ فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ يَمْنَعَكُمْ مِنْهُ . وَقَالَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ : فَفِرُوا مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ، وَمَنِ الْكُفْرِ إِلَى الشُّكْرِ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ : فِرُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ . وَقَالَ أَيْضًا : فِرُوا إِلَى مَا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى حَرَكَاتِكُمْ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : فِرُوا بِمَا سَوَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ . « إِنِّي لَأَكُنُّ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أَيْ أَنْذِرْكُمْ عِقَابَهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّي لَأَكُنُّ مِنْهُ ﴾ أَيْ مِنْ مَجْدٍ وَسَيُوفِهِ ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أَيْ أَنْذِرْكُمْ بِأَسْوَءِ سَيُوفِهِ إِنْ أَشْرَكْتُمْ بِي ؛ قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أَيْ كَمَا كَذَّبَكَ قَوْمُكَ وَقَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، كَذَّبَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ . وَالْكَافُ مِنْ « كَذَلِكَ » يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَصْبًا عَلَى تَقْدِيرِ أَنْذِرْكُمْ إِنْذَارًا كَمَا إِنْذَارُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الرِّسَالِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ ، أَوْ رَفَعًا عَلَى تَقْدِيرِ الْأَمْرِ كَذَلِكَ أَيْ كَالْأَوَّلِ . وَالْأَوَّلُ تَخْوِيفُ مَنْ عَصَاهُ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ ، وَالثَّانِي لِمَنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ . وَالتَّمَامُ عَلَى قَوْلِهِ : « كَذَلِكَ » عَنْ يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِ .

قوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أَيْ أَوْصَى أَوْلَهُمْ آخَرَهُمْ بِالْكَذِبِ . وَتَوَاطَّأُوا عَلَيْهِ ؛ وَالْأَلْفُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِبِ . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴾ أَيْ لَمْ يُوَصِّ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضِهَا بَلْ جَمَعَهُمُ الطَّغْيَانُ ، وَهُوَ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْكُفْرِ .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ عَنْهُمْ ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ ﴾ عِنْدَ اللَّهِ لِأَنَّكَ أَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، ثُمَّ نَسَخَ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقِيلَ : نَسَخَ بِآيَةِ السَّيْفِ . وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الضَّحَّاكِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِمُ بِالْمَوْعِظَةِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ » أَيْ لَيْسَ بِمَلُومٍ

ربك على تقصير كان منك « وَذَكَرَ » أى بالعِظَة فإن العِظَة « تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » . فتادة : « وَذَكَرَ »
بالقرآن « فَإِنَّ الذِّكْرَى » به « تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » . وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله . وخص
المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ
ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ
فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قيل : إن هذا خاص فيمن
سبق في علم الله أنه يعبد ، بخفاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . والمعنى : وما خلقت أهل
السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون . قال القشيري : والآية دخلها التخصيص على
القطع ؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة ، وقد قال الله
تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ »^(١) ومن خلق لهم لا يكون ممن خلق
للعباداة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ؛ وهو كقوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا »^(٢) وإنما
قال فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبى والفراء والفتي . وفي قراءة عبد الله : « وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » وقال على رضى الله عنه : أى وما خلقت الجن
والإنس إلا لأمرهم بالعبادة . وأعمد الزجاج على هذا القول ، ويدل عليه قوله تعالى :
« وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا »^(٣) . فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته
والتذلل لأمره ومشيتته ؟ قيل : قد تذللوا لقضائه عليهم ؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدر
على الامتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير
ممتنع منه . وقيل : « إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى إلا ليتقروا بالعبادة طوعا أو كرها ؛ رواه على
آبن أبى طاحه عن آبن عباس . فالكفر ما يرى فيهم من أثر الصنعة . مجاهد : إلا ليعرفوني .

(٣) راجع ج ٨ ص ١١٩

(٢) راجع ج ١٦ ص ٣٤٨

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٤

الشمس : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » وما أشبه هذا من الآيات . وعن مجاهد أيضا : إلا لآمرهم وأنهم . زيد بن أسلم : هو ما جُبلوا عليه من الشقوة والسعادة ؛ فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » الآية . وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فائيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لاستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبد بين العبودية والعبودية ، وأصل العبودية الخضوع والذل . والتعبد التذليل ؛ يقال : طريق معبد . قال :^(٣)

* وَظِيْفًا وَظِيْفًا فَسَوْقَ مَوْزٍ مُعَبَّدٍ *

والتعبد الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا . وكذلك الاعتبار . والعبادة : الطاعة ، والتعبد التمسك . فمعنى « لِيَعْبُدُونِ » لِيَذَلُّوا وَيَخْضَعُوا وَيَعْبُدُوا . « مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ » « مِنْ » صلة أى رزقا بل أنا الرزاق والمعطى . وقال ابن عباس وأبو الجوزاء : أى ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » وقرأ ابن محيصن وغيره « الرَّازِقُ » . « ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » أى الشديد القوى . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والنخعي « الْمَتِينِ » بالجر على النعت للقسوة . الباقون بالرفع على النعت لـ « الرَّزَّاقِ » ، أو « ذُو » من قوله : « ذُو الْقُوَّةِ » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إن على الموضع ، أو خبرا بعد خبر . قال الفراء : كان

(١) راجع ج ١٦ ص ١٢٣ و ص ٦٤ (٢) راجع ج ١٤ ص ٨٠

(٣) هو طرفه بن العبد ، والبيت من معلقته وصدره :

* تَبَارَى عَنَّا نَاجِيَاتِ وَأَتَبَعَتْ *

الوظيف عظم الساق . وقوله أتبع وظيفا وظيفا أى أتبع وظيف بدها وظيف بجلها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حقه المتبينة فذكره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم القتل ؛ يقال : حبل متين .
وأنشد الفراء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَيْسَتْ أَنْوَابًا * حَتَّى أَكْتَمَى الرَّأْسَ قِنَاعًا أَشْيَا
* مِنْ رِبْطَةٍ وَائْتِمَنَ الْمُعَصَّبَا *

فذكر المعصب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ^(١) » أى وعظ « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ^(٢) » أى الصياح والصوت .

قوله تعالى : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى كفروا من أهل مكة (ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ) أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ابن الأعرابي : يقال يوم ذُنُوبِ أى طويل الشر لا ينقضى . وأصل الذُنُوبِ فى اللغة الدَّاءُ العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيسسمون ذلك على الأنصباء فقبل للذُنُوبِ نصيب من هذا ؛ قال الراجز :

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ * فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَيَابُ

وقال علقمة :

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ * حَقُّ إِشَائِسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ

وقال آخر ^(٣) :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتُ * لِكُلِّ بَنِي أَبِي مِنْهَا ذُنُوبُ

الجوهرى : والذُنُوبُ الفرس الطويل الذنب ، والذُنُوبُ النصيب ، والذُنُوبُ لحم أسفل المتن ، والذُنُوبُ الدَّاءُ الملاى ماء . وقال ابن السكيت : فيها ماء قريب من المسلى يؤث ويذكر ، ولا يقال لها وهى فارغة ذُنُوبُ ، والجمع فى أدنى العدد أذنبه والكثير ذنائب ، مثل قُلُوصٍ وَقَلَانِصٍ . « فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا : يا محمد « فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٤) » فقل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجل بهم انتقامه ، ثم لهم فى الآخرة العذاب الدائم ، والحزى القائم ، الذى لا انقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

(١) راجع ج ٣ ص ٣٥٩

(٢) راجع ج ٩ ص ٦١

(٣) قاله أبو ذؤيب .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٢٧ وج ٩ ص ٢٧

سورة « والطور »

مكية كلها في قول الجميع ، وهي تسع وأربعون آية

روى الأئمة عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور في المغرب . متفق عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالطُّورِ ① وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ③
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧

قوله تعالى : (وَالطُّورِ) الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به
تشریفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسماعيل
ابن إسحق قال : حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف
عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أربعة أجبل من جبال الجنة
وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة “ قيل : فما الأجبل ؟ قال :
” جبل أحد يحبنا ونحبه والطور جبل من جبال الجنة ولبنان جبل من جبال الجنة [والجودي^(١)
جبل من جبال الجنة] “ وذكر الحديث ، وقد استوفينا في كتاب « التذكرة » . قال مجاهد : الطور
هو بالسريانية الجبل والمراد به طور سينا . وقاله السدي . وقال مقاتل بن حيان : هما طوران
يقال لأحدهما طور سينا والآخر طور زيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل
بمدين وأسمه زبير . قال الجوهري : والزبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام .

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر .

(٢) الزيادة من ن .

قلت : ومدين بالأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام . وقيل : إن الطور كل جبل أنبت ، ومالا ينبت فليس بطور ؛ قاله ابن عباس . وقد مضى في «البقرة»^(١) مستوفى . قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ أى مكتوب ؛ يعنى القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ » . وقيل : يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ، وكان كل كتاب فى رَق ينشره أهله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن أخذ كتابه بيمينه ، ومن أخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا »^(٢) وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ »^(٣) . وقيل : إنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى للملائكته فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيل : المراد ما كتب الله فى قلوب الأولياء من المؤمنين ؛ بيانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »^(٤) .

قلت : وفى هذا القول مجوز ؛ لأنه عبر بالقلوب عن الرق . قال المبرد : الرق ما رُقق من الجلد ليكتب فيه ، والمدشور المبسوط . وكذا قال الجوهري فى الصحاح ، قال : والرُق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعالى : « فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ » والرُق أيضا العظيم من السِّلَاحِف . قال أبو عبيدة : وجمعه رُقُوق . والمعنى المراد ما قاله الفراء ؛ والله أعلم . وكل صحيفة فهى رُق لرفعة حواشيا ؛ ومنه قول المتنمى :

فكأنما هى من تقادِمِ عَهْدِهَا * رَقٌّ أتيحَ كُتُبُهَا مَسْطُورٌ^(٥)

وأما الرُق بالكسر فهو الملك ؛ يقال : عبد مرقوق . وحكى الماوردى عن ابن عباس : أن الرُق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . قال

(١) راجع ج ١ ص ٤٣٦ . (٢) راجع ص ٢٢٤ و ص ٣٠٨ من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٩ . (٤) راجع ج ١٩ ص ٢٣٢ .

(٥) لم نعر على هذا البيت فى ديوان المتنمى .

على رضى الله عنه : هو بيت في السماء السادسة . وقيل : في السماء الرابعة ؛ روى أنس ابن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أوتى بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حيال الكعبة لو تخرَّجَ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه “ ذكره الماوردي . وحكى التشيرى عن ابن عباس أنه في السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنباري : سأل ابن الكواء علياً رضى الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح . وكذا في « الصحاح » : والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ابن عباس . وعُمرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدي عن حذاء العرش . والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء : ” ثم رُفِع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه ^(١) آخر ما عليهم “ وذكر الحديث . وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أُتيت بالبراق ^(٢) ، وفيه : ” ثم عرج بنا إلى السابعة ^(٢) فاستفتح جبريل عليه السلام فقبل من هذا قال جبريل قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ — صلى الله عليه وسلم — قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَبِدًا ظَهَرَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ “ . وعن ابن عباس أيضاً قال : لله في السموات والأرضين خمسة عشر بيتاً ، سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس ، يعمره الله كل سنة بستائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أول بيت وضعه الله للعبادة في الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

(١) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ، وانرفع أوجه .

(٢) في ج ، ز ، ل ، ن : « إلى السماء السابعة » .

(هامش مسلم) .

في الأرض موضع الكعبة في زمان آدم عليه السلام ، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجوا فأبوا عليه وعصوه ، فلما طغى الماء رفع بأمره بحدائنه في السماء الدنيا ، فيعمره كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ في الصور ، قال : فبأمر الله جل وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّاغِيَيْنِ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » . (١) والسقف المرفوع (٢) يعنى السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . (٣) وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . (٤) والبحر المسجور (٥) قال مجاهد : الموقد ؛ وقد جاء في الخبر : « إن البحر يسجر يوم القيامة فيكون نارا » . وقال قتادة : الملوء . وأنشد النجويون للنمير بن تواب :

إذا شاء طالع مسجورة * ترى حولها النبع والسائم (٦)

يريد وعلا يطالع عينا مسجورة مملوءة . فيجوز أن يكون الملوء نارا فيكون كالقول المتقدم . وكذا قال الضحاك وشمس بن عطية وشمس بن كعب والأخفش بأنه الموقد المحمى بمنزلة الثور المسجور . ومنه قيل : للسعر مسجور ؛ ودليل هذا التاويل قوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » (٧) أى أوقدت ؛ سجرت الثور أنسجه سجرا أى أحمته . وقال سعيد ابن المسيب : قال على رضى الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال ما أراك إلا صادقا ، وتلا : « والبحر المسجور » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » مخففة . وقال عبد الله ابن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . [وقال كعب : يسجر البحر غدا فيزداد في نار جهنم ؛ فهذا قول] وقال ابن عباس : المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العباس . وروى عطية وذو الرمة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقي فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ ، قال ابن أبي داود : ليس لدى الرمة حديث إلا هذا . وقيل : المسجور أى المفجور ؛ دليله : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » (٨) أى تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

(١) راجع ج ١ ص ٣٦ (٢) راجع ج ١١ ص ٢٨٥ (٣) السائم نير مهور ؛ شجر نخلة منه القسي والسائم ؛ والنبع مثله . (٤) راجع ج ١٩ ص ٢٢٨ و ص ٢٤٢ (٥) بين المرادين سابق من هـ .

وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعكرمة ، قال أبو مكيين : سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال : هو بحر دون العرش . وقال عليّ : تحت العرش فيه ماء غليظ ، ويقال له بحر الحيوان يطار العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى « جُفِّرَتْ » في أحد التأويلين ، أي جُفِّرَ عَذْبُهَا في مالِهَا : والله أعلم . وسياقي . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ، أي واقع بالمشركين . قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب « وَالطُّورِ » إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقال هشام بن حسان : أنطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ « وَالطُّورِ » حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » فبكى الحسن وبكى أصحابه ، فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه . ولما ولى بكّار القضاء جاء إليه رجالان يختصمان فتوجهتا على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطى خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأول « وَالطُّورِ » إلى أن قاله له قل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » ^(١) إن كنت كاذبا ، فقالها فخرج فكسر من حينه .

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١) في « إن عذاب الله بي لواقع الخ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ العامل في يوم قوله : « وَأَقْبَعُ » أى يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذى تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشيء يُمور مَوْرًا ، أى تحرك وجاء وذهب كما تَتَكَفَّفُ النخلة العبدانة ، أى الطويلة ، والتَّوْر مثله ، وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض . مجاهد : تدور دورا ، أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارِيهَا * مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

وقيل تجرى جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ اللَّحَى تَمُورُ دِمَاؤُهَا * بِدَجَلَةٍ حَتَّى مَاءُ دَجَلَةٍ أَشْكَلُ^(١)

وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم فى بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طرفة :

... فَوَقَّ مَوْرٍ مُعَبِّدٍ^(٢) *

والمَوْر الموج . وناقاة مَوَّارة اليد أى سريرة . والبعير يمور عضدها إذا ترددت فى عرض جنبه ، قال الشاعر :

* عَلَى ظَهْرِ مَوَارٍ الْمِسْلَاطِ حِصَانِ *

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدري أغار أم مَارَ ، أى أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا القللك وموره اضطراب نظمته واختلاف سيره ، قاله ابن بحر . ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم فى الدنيا ، بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »^(٣) . وقد مضى هذا المعنى فى « الكهف »^(٤) . ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ ﴾

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحرارة . (٢) البيت من معلقته وتماحه :

تبارى عتافا ناجيات وأتعت * وظلما وظلما فوق مور معبد

تبارى : تعارض . والعناق : النوق الكرام . والناجيات : المربعات . والوظيف : عظام الداق . والمعبد : المذلل .

(٤) راجع ج ١٠ ص ٤١٦

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢٤٢

« وَيَلَّ » كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى فى تردد فى الباطل ، وهو خوضهم فى أمر محمّد بالتكذيب . وقيل : فى خوض فى أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حساباً ولا جزاء . وقد مضى فى « براءة » . قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من يومئذ . و « يُدْعَوْنَ » معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف ، يقال : دَعَمْتُهُ أدعته دعماً أى دفعته ، ومنه قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » . وفى التفسير : إن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم فى النار دفعاً على وجوههم ، وزخاً فى أعناقهم حتى يردوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردي وابن السَّمِيقِ « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا . قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع ، أى يقال لهم : « أَفَسِحْرٌ هَذَا » الذى ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كنتم لا تبصرون فى الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ أَصْلَوْهَا ﴾ أى أقول لهم الخزنة ذوقوا حرها بالدخول فيها . ﴿ فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فيه . « سواء » خبره محذوف ، أى سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا » . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَلَكَihِينَ بِمَا عَمِلْتُمْ رَبُّهُمْ رَؤُوفٌ . وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِعِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٢١١

(١) راجع ج ٨ ص ٢٠١

(٣) راجع ج ٩ ص ٣٥٥

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين
أيضاً ﴿ فَأَكْبِهِينَ ﴾ أى ذوى فاكهة كثيرة ؛ يقال : رجل فاكه أى ذو فاكهة ، كما يقال :
لاين وتامر ؛ أى ذواين وتمر ؛ قال :^(١)

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنْ * لَكَ لَايْنٌ بِالصُّنَيْفِ تَامِرٌ

أى ذواين وتمر . وقرأ الحسن وغيره : « فَاكِهِينَ » بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين
فى قول ابن عباس وغيره ؛ يقال : فَاكِهَ الرجل بالكسر فهو فَاكِهٌ إذا كان طيب النفس
مزاحاً . والفكه أيضاً الأشر البطر . وقد مضى فى « الدخان » القول فى هذا . ﴿ يَمَّا آتَاهُمُ ﴾
أى أعطاهم ﴿ رِزْقَهُمْ وَوَقَّاهُمْ رِزْقَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم ذلك .
﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه
« هَنِيئًا » . وقيل : أى مُتَّعَم بنعيم الجنة إمتاعاً هَنِيئًا . وقيل : أى كلوا واشربوا هَنِيئًا « هَنِيئًا »
فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هَنِيئًا » أى حالاً . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة .
وقيل : « هَنِيئًا » أى لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أولاً يبقى الإنسان معه منقص غير هنىء .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّبِعِينَ عَلَى سُرُرٍ ﴾ سُرُر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين
على نمارق سرر . ﴿ مَصْفُوفَةً ﴾ قال ابن الأعرابى : أى موصولة بعضها إلى بعض حتى
تصير صفًا . وفى الأخبار أنها تصف فى السماء بطول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس
عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال ابن عباس : هى سرر من ذهب مكللة
بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير ما بين مكة وأيلة . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى قرناهم
بهن . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة ؛ وليس من كلام
العرب تزوجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل : « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرناهم
بهن ؛ من قول الله تعالى : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »^(٢) أى وقرناءهم . وقال
الفراء : تزوجت بامرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى القول فى معنى الحور العين .

(١) هو الخطبة .

(٢) راجع ج ١٦ ص ١٣٩

(٣) راجع ج ١٥ ص ١٥٢

(٤) راجع ج ١٦ ص ١٥٢

قوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٤١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ يَنْتَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) قرأ العامة « وَاتَّبَعَتْهُمْ » بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء . وقرأ أبو عمرو « وَاتَّبَعْنَاهُمْ » بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون ؛ اعتباراً بقوله : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ » ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : « ذُرِّيَّتُهُمْ » الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم . وقرأ الباقر « ذُرِّيَّتُهُمْ » على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقر « ذُرِّيَّتُهُمْ » على التوحيد وفتح التاء . واختلف في معناه ؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّبهم عينه ، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعاً عن النحاس في « النسخ والمنسوخ » له عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّبهم عينه » ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لإخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ابن عباس أيضا أنه قال : إن الله ليلحق بالمؤمن ذرية الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان ؛
 قاله المهدوي . والذرية تقع على الصغار والكبار ، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله
 تعالى : « بِإِيمَانٍ » في موضع الحال من المفعولين ، وكان التقدير « بِإِيمَانٍ » من الآباء .
 وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثالث عن
 ابن عباس : أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفي رواية عنه :
 إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء ، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله
 الآباء إلى الأبناء ؛ فالآباء داخلون في اسم الذرية ؛ كقوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ
 فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ » . وعن ابن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل
 أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبيه وعن زوجته وولده فيقال لهم منهم لم يدركوا
 ما أدركت فيقول يا رب إني عملت لي ولهم فيؤمر بلحاقهم به » . وقالت خديجة رضي
 الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي : « هما
 في النار » فلما رأى الكراهية في وجهي قال : « أو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت :
 يا رسول الله فولدى منك ؟ قال : « في الجنة » ثم قال : « إن المؤمنين وأولادهم في الجنة
 والمشركين وأولادهم في النار » ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية .
 ﴿ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم ،
 وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بل لحاق الذريات بهم . والهاء والميم راجعان إلى
 قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ابن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ »
 ألحقنا بالذرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل ؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرية .
 وقرأ ابن كثير « وَمَا أَلْتَنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقون . وعن أبي هريرة « أَلْتَنَاهُمْ »
 بالمد ؛ قال ابن الأعرابي : أَلْتَنَاهُ أَلْتَنَاهُ ، وَأَلْتَنَاهُ يُؤْتِنَاهُ ، وَأَلْتَنَاهُ ، وَلَاتَهُ يَلْتِنُهُ لَيْتَنَاهُ إِذَا نَقَصَهُ .

(١) هذا الحديث كان قبل قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدما

وفي الصحاح : وَلَا تَهْ عَنْ وَجْهِه يَلُوتُهُ وَيَلَيْتُهُ أَى حَبْسِهِ عَنْ وَجْهِه وَصَرْفِهِ ، وكذلك أَلَاتُهُ عَنْ وَجْهِه فَعَلْ وَأَفْعَلْ بِمَعْنَى ، وَيُقَالُ أَيْضًا : مَا أَلَاتُهُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْئًا أَى مَا نَقَصَهُ مِثْلُ أَلَّتْهُ وَقَدْ مَضَى بِهِ «الْمُحْجَرَاتُ» ^(١) . (كُلُّ أَمْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ) قِيلَ : يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرْتَهُنْ أَهْلُ جَهَنَّمَ بِأَعْمَالِهِمْ وَصَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى نَعِيمِهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ» . إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ ^(٢) . وَقِيلَ : هُوَ عَامٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُرْتَهِنٌ بِعَمَلِهِ فَلَا يَنْقُصُ أَحَدٌ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِ ، فَأَمَّا الزِّيَادَةُ عَلَى ثَوَابِ الْعَمَلِ فَهِيَ تَفْضُلٌ مِنَ اللَّهِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الدَّرَجَةِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَا يُلْحَقُونَ آبَاءَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ يَكُونُونَ مُرْتَهِنِينَ بِكُفْرِهِمْ .

قوله تعالى : (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) أَى أَكْثَرْنَا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ زِيَادَةً مِنَ اللَّهِ ، أَمَدَّهُمْ بِهَا غَيْرَ الَّذِي كَانَ لَهُمْ .

قوله تعالى : (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا) أَى يَتَنَازَلُهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ وَزَوْجَاتُهُ وَخُدَمُهُ فِي الْجَنَّةِ . وَالْكَأْسُ : إِنَاءُ الْخَمْرِ وَكُلُّ إِنَاءٍ مَمْلُوءٍ مِنْ شَرَابٍ وَغَيْرِهِ ؛ فَإِذَا فَرِغَ لَمْ يَسَمَّ كَأْسًا . وَشَاهِدُ التَّنَازُعِ وَالْكَأْسِ فِي اللُّغَةِ قَوْلُ الْأَخْطَلِ :

وَشَارِبٌ مُرْبِيعٌ بِالْكَأْسِ نَادِمَنِي * لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَوَارِ ^(٣)
نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُوبِ وَقَدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

قَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَاسْتَمَحَّتْ * هَضَرْتُ بَعْضِينَ ذِي شَمَارِيحٍ مَبَالٍ

وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي «وَالصَّافَاتِ» ^(٤) . (لَا تَقُوفِيهَا) أَى فِي الْكَأْسِ أَى لَا يَجُورِي بَيْنَهُمْ لَفْوٌ

(١) رَاجِعْ ج ١٦ ص ٣٤٨ (٢) رَاجِعْ ج ١٩ ص ٨٥

(٣) مَرْبِيعٌ : يَخْرُضُ لِنَيْفَانِهِ الرِّيحُ وَهِيَ الْفَصْلَانُ ؛ وَيُرْوَى : مَرْبِيعٌ وَهُوَ الَّذِي كَأَسَهُ مَلَأْنِي بِالْخَمْرِ فَيَسْكُرُ وَلَا يَنْتَبِرُ مِنْ أَخْلَاقِهِ الْحَبِيدَةِ . وَالْحَصُورُ الضُّبُقُ الْبَخِيلُ مِثْلُ الْحَصِيرِ . وَالسَّوَارِ هُوَ الْمَعْرَبُ مِنَ الْوَتَابِ ، وَيُرْوَى بِسَوَارٍ وَهُوَ الَّذِي إِذَا شَرِبَ تَرَكَ بَقِيَّةً فِي فَعْرِ الْإِنَاءِ . وَالِدَّجَاجُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ الدِّيَكَةُ يَرِيدُ وَقْتُ السَّجَرِ ، يُقَالُ هَذَا دَجَاجٌ فَيُرِيدُونَ الدِّيُوكَ . وَهَذِهِ دَجَاجٌ فَيُرِيدُونَ الْأُنْثَى . وَوَقْعَةُ السَّارِي — وَيُرْوَى وَقْفَةُ السَّارِي — مِنْ وَقْعَتِ الْإِبِلِ إِذَا بَرَكَتْ . وَالسَّارِي هُوَ السَّائِرُ بِاللَّيْلِ . وَفِي فَصْحِ الْأَصْلِ كُلِّهَا : فِي الْكَأْسِ نَازَعْنِي . وَالتَّصْحِيحُ كَمَا أَثْبَتْنَاهُ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ مِنْ دِيْوَانِ الْأَخْطَلِ طَبِيعَ الْيَسُوعِيِّينَ . (٤) رَاجِعْ ج ١٥ ص ٧٧ ... فَنَحْنُ الْكَلَامُ عَلَى الْكَأْسِ .

« وَلَا تَأْتِيهِمْ » ولا مافيه إثم . والتأنيب تفعيل من الإثم ؛ أى تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَعْنُ فِيهَا » أى فى الجنة . قال ابن عطاء : أى لغو يكون فى مجلس محله جنة عدن ، وسقاتهم الملائكة ، وشربهم على ذكر الله ، وريحانهم وتحيتهم من عند الله ، والقوم أضياف الله ! « وَلَا تَأْتِيهِمْ » أى ولا كذب ؛ قاله ابن عباس . الضحك : يعنى لا يكذب بعضهم بعضا . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو : « لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين . وقد مضى هذا فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ (١) أى بالفواكه والتحف والطعام والشراب ؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ » (٢) ، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » (٣) . ثم قيل : هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فافتر الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : لأنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا فى الجنة . قال الكلبي : لا يكبرون أبداً ﴿ كَانَهُمْ ﴾ فى الحسن والبياض ﴿ لَوْلَوْ مَكُونٌ ﴾ (٤) فى الصدف ، والمكون المصون . وقوله تعالى : « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » (٥) . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس فى الجنة نصيب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضى الله عنها : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلهم ليك ليك » . وعن عبد الله بن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه » . وعن الحسن أنهم قالوا : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدم ؟ فقال : « ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب » . قال الكسائي : كنت الشئ ، سترته وصنفته من الشمس ، وأكنثته فى نفسى أسرته . وقال أبو زيد : كنته وأكنثته بمعنى فى اليكن وفى النفس جميعاً ؛ تقول : كنت العلم وأكنثته فهو مكنون ومكن . وكنت الجارية وأكنثتها فهى مكنونة ومكنة .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦٧ (٢) راجع ج ١٦ ص ١١١ (٣) راجع ج ١٥ ص ٧٧

(٤) راجع ص ٢٠٢ من هذا الجزء . (٥) هذه الكلمة ساقطة من ل .

قوله تعالى : **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴿٢٥﴾ **قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴿٢٦﴾ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُومِ** ﴿٢٧﴾ **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ** ^{٢٨} **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)** قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضاً . وقيل : في الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أى يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزل الرفيعة ؟ **(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)** أى قال كل مسؤل منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أى في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . **(فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا)** بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . **(وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُومِ)** قال الحسن : « السَّمُوم » اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل : نار عذاب السَّمُوم . والسَّمُوم الريح الحارة تؤثب ؛ يقال منه : سُمَّ يَوْمُنَا فهو مسموم والجمع سَمَائِم قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم في لفح البرد ^(١) وهو في لفح الحر [والشمس أكثر ؛ قال الرازي :

اليوم يوم باردٌ سَمُومُهُ * مَنْ جَزِعَ الْيَوْمَ فَلَا الْيَوْمَ

قوله تعالى : **(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ)** أى في الدنيا بأن يمتن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : « نَدْعُوهُ » أى نعبد . **(إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)** وقرأ نافع والكسائي « أَنَّهُ » بفتح الهمزة ؛ أى لأنه . الباقيون بالكسر على الابتداء . و « الْبَرُّ » اللطيف ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : أنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

(١) الزيادة من ن . (٢) تفسير البر بالحسن أولى كما في روح المعاني وغيره من التفسير .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾
 أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ
 طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
 مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (فَذَكِّرْ) أى فذكر يا محمد قومك بالقرآن . (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) يعنى
 برسالة ربك (بِكَاهِنٍ) يتبدع القول وتخبر بما فى غد من غير وحى . (وَلَا مَجْنُونٍ) وهذا
 رد لقولهم فى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فعقبة بن أبى معيط قال : إنه مجنون ، وشيبة بن ربيعة
 قال : إنه ساحر ، وغيرهما قال : كاهن ؛ فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم . ثم قيل : إن معنى
 « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » القسم ؛ أى وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون . وقيل : ليس
 قسمًا ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل ؛ أى قد برك الله من ذلك .

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ) أى بل يقولون مجد شاعر . قال سيبويه : خوطب
 العباد بما جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبين
 ولا مشروح ؛ يريد سيبويه أن « أَمْ » فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث ؛ كما قال :
 * أَتَهْجُرَ قَانِيَةَ أَمْ تُلِمَ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شىء آخر فقال :

* أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمٌ *

فما جاء فى كتاب الله تعالى من هذا فعنائه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ،
 والنحويون يمثلونها ببلى . (نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) قال قتادة : قال قوم من الكفار ترَبَّصُوا

بمحمد الموت يكفيكوه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر ؛ أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قَبْلُ من الشعراء ، وأن أباه مات شاباً فربما يموت كما مات أبوه . وقال الأخفش : اتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر ، كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد . والمنون : الموت فى قول ابن عباس . قال أبو النّوّل الطّهيوى :

هُمْ مَنَعُوا حِمَى الْوَقْبِ بِضَرْبٍ * يُؤَلَّفُ بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمَنُونِ^(١)

أى المنايا ؛ يقول : إن الضرب يجمع بين قوم متفرق الأمكنة لو أنهم مناياهم فى أما كنهم لأنهم متفرقة ، فاجتمعوا فى موضع واحد فأتهم المنايا مجتمعة . وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس : «رَيْبَ الْمَنُونِ» فى القرآن شكٌ إلا مكاناً واحداً فى الطور «رَيْبَ الْمَنُونِ» يعنى حوادث الأمور ؛ وقال الشاعر :

تَرْبِصُ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا * تُطَلِّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا

وقال مجاهد : «رَيْبَ الْمَنُونِ» حوادث الدهر ، والمنون هو الدهر ؛ قال أبو ذؤيب :
أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ * وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ
وقال الأعشى .

أَأَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَغْشَى أَضْرَبِهِ * رَيْبَ الْمَنُونِ وَدَّهْرٍ مَثِيلِ خَيْلِ^(٢)

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار ؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال . وعنه : أنه قيل للدهر منون ، لأنه يذهب بمئة الحيوان أى قوته وكذلك المنيّة . أبو عبيدة : قيل للدهر منون ؛ لأنه مُضْعِفٌ ، من قولهم حَبْلٌ مَنِينٌ أى ضعيف ، والمنين الغبار الضعيف . قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحداً وجمعاً . الأصمعى : المنون واحد لا جماعة له .

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوثين . والوقبى يحكى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ابن عباس وليس بشئ . وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه .

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . مثيل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخيل ككتف ملنو على أهله لا يرون فيه مردا .

الأخفش : هو جماعة لا واحد له ، والمنون يذكر ويؤنث ؛ فمن ذكره جعله الذم أو الموت ، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبُّصُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد تریصوا أى أنتظروا . ﴿ فَإِنِّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴾ أى من المنتظرين بكم العذاب ؛ فعذبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ أى عقولهم ﴿ بِهَذَا ﴾ أى بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى أم طغوا بغير عقول . وقيل : « أم » بمعنى بل ؛ أى بل كفروا طغياناً وإن ظهر لهم الحق . وقيل لعمر بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ؛ أى لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أى أذهانهم ؛ لأن العقل لا يعطى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة . والذهن يقبل العلم جملةً ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما أعقل فلاناً النصرانى ! فقال : « مَهْ إِنَّ الْكَافِرَ لَا عَقْلَ لَهُ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » . وفى حديث ابن عمر : فزجره النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « مَهْ فَإِنَّ الْعَاقِلَ مِنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ » ذكره الترمذى الحكيم أبو عبد الله بإسناده . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى آفتهله وأفتراه ، يعنى القرآن . والتقول تكلف القول ، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر . ويقال قولتى ما لم أقول ! وأقولتى ما لم أقول ؛ أى أدعيته على . وتقول عليه أى كذب عليه . وأقتال عليه تحكّم قال :

وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ صَدِيقٍ وَغِبْطَةٍ * وَمَا أَقْتَالَ مِنْ حُكْمٍ عَلَى طَيْبٍ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أى ليس كما يقولون . ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بخدا وأستجاراً . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمداً أفتراه . وقرأ الجحدري « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء فى « مثله » للنبي صلى الله

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ** (٣٥)
أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ**
رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصَيِّطُونَ (٣٧) **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاثِ**
مُسْتَمِعُهُمْ بَسِطْنَا مَبِينٍ (٣٨) **أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ** (٣٩)
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) **أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ**
يَكْتُبُونَ (٤١) **أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ** (٤٢)
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

قوله تعالى : **(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ)** « أم » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء . قال ابن عباس : من غير رب خلقهم وقدرهم . وقيل : من غير أم ولا أب ؛ فهم كالجناد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة ؛ ليسوا كذلك ! أليس قد خلقوا من نطفة وعلقة ومضغة ؟ قاله ابن عطاء . وقال ابن كيسان : **أَمْ خُلِقُوا عِبثًا وَتُرِكُوا سُدىً « مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ »** أى لغير شيء . فـ « من » بمعنى اللام . **(أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)** أى يقولون إنهم خلقوا أنفسهم فهم لا يأترون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، وإذا أتوا أن ثم خالقاً غيرهم فما الذى يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام ، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث . **(أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)** أى ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئاً **(بَلْ لَا يُوقِنُونَ)** بالحق **(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ)** أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويعرضوا عن أمره . وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أى أنفأ أيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت

يها لجمع أنواع مختلفة من الذخائر ، ومقدورات الرب كالحزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها . (أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطُونَ) قال ابن عباس : المسلطون الجبارون . وعنه أيضا : المبطلون . وقاله الضحاك . وعن ابن عباس أيضا : أم هم المتولون . عطاء : أم هم أرباب قاهرون . قال عطاء : يقال تسيطر على أي آتخذني خولا لك . وقاله أبو عبيدة . وفي الصحاح : المسيطر والمسيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله ، وأصله من السطر ؛ لأن الكتاب يُسَطَّر والذي يفعله مُسَطِّرٌ ومُسيطر . يقال سيطرت علينا . ابن بحر : « أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطُونَ » أي هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه ؛ فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ . وفيه ثلاث لغات : الصاد وبها قرأت العامة ، والسين وهي قراءة ابن محيصن وحמיד ومجاهد وقنبل وهشام وأبي حيوة ، وبإشمام الصاد الزاى وهي قراءة حمزة كما تقدم في « الصراط » .^(١)

قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ) أي أيدعون أن لهم مُرْتَقًى إلى السماء ومصعدا وسبيبا (يَسْتَمِعُونَ فِيهِ) أي عليه الأخبار ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي . (فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَمِعُهُمْ إِسْطَاطَانٌ مُبِينٌ) أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حق . والسلم واحد السلام التي يرتقى عليها . وربما سمي الغرز بذلك ؛ قال أبو الرئيس الثعلبي يصف ناقته :

مَطَارَةٌ قَلْبٍ إِنْ ثَنَى الرَّجُلَ رِبْهَا * إِسْلِمٌ غَرَزٍ فِي مَنَاجٍ يُعَاجِلُهُ

وقال زهير :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ يَلْقَاهَا ^(٢) * وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ إِسْلِمٌ

وقال آخر :

تَجَنَّبْتُ لِي ذَنْبًا وَمَا إِنْ جَنَّبْتُهُ * لِتَخَذِي عُذْرًا إِلَى الْهَجْرِ سُلْمًا

(١) راجع ج ١ ص ١٤٧ (٢) ويروى :

* وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَابَا يَلْنَسُهُ *

وهي الرواية المشهورة .

وقال ابن مقبل في الجمع :

لَا تُخْرِزُ الْمَرْءَ أَهْجَاءُ الْبِلَادِ وَلَا * يُبْنَى لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَامُ
 الأهْجَاءُ النواحي مثل الأرجاء واحداها حَجًّا وَرَجًّا مقصور . ويروى : أعناء البلاد ، والأعناء
 أيضا الجوانب والنواحي واحداها عَنُو بالكسر . وقال ابن الأعرابي : واحداها عَنَّا مقصور .
 وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عَنُو بالكسر ، وهم قوم من قبائل شَتَّى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ »
 أى عليه ؛ كقوله تعالى : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »^(١) أى عليها ؛ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة :
 يستمعون به . وقال الزجاج : أى ألهم بكبريل الذى يأتى النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي .
 قوله تعالى : « أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ » سَفَّهُ أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعا .
 أى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار
 البعث . « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على تبليغ الرسالة . « فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » أى فهم من
 المغرم الذى تطلبهم به « مُثْقَلُونَ » مجهدون لما كلفتهم به . « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ »
 أى يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أى أم عندهم علم ما غاب عن الناس
 حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل . وقال قتادة :
 لما قالوا تعربص به ريب المنون قال الله تعالى : « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ » حتى علموا متى يموت
 محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره . وقال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون
 ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتيبي : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله
 تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »^(٢) أى حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « والذي
 نفسى بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله » أى بحكم الله .

قوله تعالى : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى مكرًا بك فى دار الندوة . « فَالَّذِينَ كَفَرُوا
 هُمُ الْمَكِيدُونَ » أى المكور بهم « وَلَا يَخْبِقُ الْمُسْكِرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »^(٣) وذلك أنهم قتلوا بيدر .
 « أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » يخلق ويرزق ويمنع . « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » نزه نفسه أن يكون
 له شريك . قال الخليل : كل ما فى سورة « والطور » من ذكر « أَمْ » فكلمة أستفهام وليس بعطف .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٢٤ (٢) راجع ج ٦ ص ٤٣٥ (٣) راجع ج ١٤ ص ٣٥٨

قوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٥﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جواباً لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » ، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا » فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء ، وهذا فعل المعاند أو فعل من استولى عليه التقليد ، وكان في المشركين القسمان . والكِسْف جمع كِسْفَة وهى القطعة من الشيء ، يقال : أعطنى كِسْفَة من ثوبك ، ويقال فى جمعها أيضاً : كِسْف . ويقال : الكِسْف والكِسْفَة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحداً ، ومن قرأ « كِسْفًا » جعله جمعا . وقد تقدم القول فى هذا فى « سبحان » وغيرها والحمد لله . قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة ، وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان صَعِقَ وَصُعِقَ مثل سَعِدَ وَسُعِدَ . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة بأنهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : « يُصْعَقُونَ » بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى ما كادوا به النبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ من الله . و « يَوْمَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » .

قوله تعالى : وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(١) راجع ج ١٣ ص ١٣٦ (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٣ (٣) فى ن : « وقال غيره عند النفخة الأولى » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . ابن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . ابن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البراء بن عازب وعلى رضى الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذاباً أخف من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) [أن العذاب نازل بهم] وقيل : « وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — « وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته . وقيل : لبلائه فيما ابتلاك به من قومك ؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانية — قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أى برأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى بحفظى وحراستى وقد تقدم ^(٢) . قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » آخلف فى تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه ؛ فيقول : سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ؛ فإن كان المجلس خيراً أزددت شأناً حسناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ؛ ودليل هذا التأويل ما أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » قال : حديث

(١) الزيادة من ز ، ل ، ن ، هـ .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٩٦ .

حسن صحيح غريب . وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : ” رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور “ قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً . قال السكا الطبري : وهذا فيه بُعد ؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدلّ على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحاً لعمله بذكر الله . وقال الكلبي : وأذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر . وفي هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عُبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من تعارّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ ووصلّى قبلت صلاته “ خرّجه البخاري . تعارّ الرجل من الليل : إذا هبّ من نومه مع صوت ؛ ومنه عارّ الظلّيم يعارّ عرّاراً وهو صوته ؛ وبعضهم يقول : عرّ الظلّيم يعرّ عرّاراً ، كما قالوا زمر النّعام يزمر زماراً . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : ” اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قبوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ وعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبیون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك “ متفق عليه . وعن ابن عباس أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران » .

(١) من قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ... » آية ١٩٠ .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال ابن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها . الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربى العظيم فى الركوع وسبحان ربى الأعلى فى السجود . الثانى أنه التوجه فى الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار فى ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : **« وَجَّهَتْ وَجْهَى »** الحديث . وقد ذكرناه وغيره فى آخر سورة « الأنعام » . وفى البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى ؛ فقال : **« قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظمناً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »** .

الثانية — قوله تعالى : **« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »** تقدم فى « ق » مستوفى عند قوله تعالى : **« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »** . وأما « **إِدْبَارَ النُّجُومِ** » فقال على وابن عباس وجابر وأنس : يعنى ركعتى الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على النسب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وابن زيد : أن قوله : **« وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »** يريد به صلاة الصبح وهو اختيار الطبرى . وعن ابن عباس : أنه التسبيح فى آخر الصلوات . وبكسر الهمزة فى « **إِدْبَارَ النُّجُومِ** » قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه فى « ق » . وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السميع « **وَأَدْبَارَ** » بالفتح ، ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب ؛ وهو جمع دُبُرٍ ودُبُرٍ . ودُبُرُ الأمر ودُبُرُهُ آخره . وروى الترمذى من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِينَ بن كريب عن أبيه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : **« إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب »**

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن
 رشدين بن كريب . وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد بن فضيل ورشدين بن كريب أيهما
 أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندي أرجح . قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن
 عن هذا فقال : ما أقربهما ، ورشدين بن كريب أرجحهما عندي . قال الترمذي : والقول
 ما قال أبو محمد ورشدين بن كريب عندي أرجح من محمد وأقدم ، وقد أدرك رشدين ابن عباس
 ورآه . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم
 على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح . وعنهما عن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » . تم تفسير سورة « والطور »
 والحمد لله .

سورة « والنَّجْم »

مَكِّيَّة ، وهي إحدى وستون آية

مَكِّيَّة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها
 وهي قوله تعالى : « الَّذِينَ يَخْتَدُونَ بَكَاً زَلَالًا وَالْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : اثنتان وستون
 آية . وقيل : إن السورة كلها مدنية . والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال :
 هي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفي « البخاري » عن ابن عباس :
 أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنَّجْم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .
 وعن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد لها ، فلما بقى أحد من القوم
 إلا سجد ، فأخذ رجل من القوم كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال : يكفيني
 هذا . قال عبد الله : فلقد رأيت بعد قتل كافر^(١) ، متفق عليه . الرجل يقال له أمية بن خلف .
 وفي الصحيحين عن زيد بن ثابت [رضي الله عنه]^(٢) أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم
 سورة « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلم يسجد . وقد مضى في آخر « الأعراف » القول في هذا
 والحمد لله .

(١) في ن : « أشد معاهدة منه على ركعتي الفجر قبل الصبح » .

(٢) في ل : « هو » .

(٣) الزيادة : من ز ، ل .

(٤) راجع ج ٧ ص ٣٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠)

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : معنى « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » والثريا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمى الثريا نجما وإن كانت في العدد نجومًا ؛ يقال : إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفي يمتحن الناس به أبصارهم . وفي « الشفا » للقاضي عياض : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى في الثريا أحد عشر نجما . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآن إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجومًا . وقاله الفراء . وعنه أيضا : يعني نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع ؛ كقول الراعي :

فَبَاتَتْ تَعْدُ النُّجُومَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ * سَرِيعَ يَأْيَدِي الْآكِلِينَ جُمُودُهَا

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أَحْسَنُ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا * وَالثُّرَيَّا فِي الْأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ

وقال الحسن أيضا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدي : إن النجم ههنا الزهرة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا أكثر أنقضا الكواكب قبل مولده ، فدُعي أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : أنظروا البروج الاثني عشر فإن آنقض

منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ؛ فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه ، فأنزل الله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » أى ذلك النجم الذى هوى هو لهذه النبوة التى حدثت . وقيل : النجم هنا هو النبت الذى ليس له ساق ، وهوى أى سقط على الأرض . وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضى الله عنهم : « وَالنَّجْمِ » يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم « إِذَا هَوَى » إذا نزل من السماء ليلة المعراج . وعن عروة بن الزبير رضى الله عنهما أن عتبة ابن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمداً فلا وذيته ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذى دنا فتدلى . ثم تفل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه أبنته وطأها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ سَاطِطٌ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كَلَابِكَ » وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أمي عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة . فقال أبو لهب لأصحابه : أغثونا يا معشر قريش هذه الليلة ! فإني أخاف على آبي من دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمّ وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله . وقال حسان :

مَنْ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ * فَمَا أَكْبَلُ السَّيْفُ بِالرَّاجِعِ^(١)

وأصل النجم الطلوع ؛ يقال : نجم السن ونجم فلان ببلاد كذا أى خرج على السلاطان . والهوى - النزول والسقوط ؛ يقال : هوى يهوى هويًا مثل مضى يمضى مضياً ؛ قال زهير :

فَشَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزُ وَهِيَ تَهْوَى * هُوَى الدَّائِرِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ^(٢)

(١) فى : أ « من يرجع الآن » .

(٢) شج : علا . والبيت فى وصف غير وائنه ؛ أى لما وجد العير أن صنيعات قد انقطع ماؤها انتقل عنها إلى غيرها فجعل يعلو بالأتن الأماعز وهى حزون الأرض الكثيرة الحمى .

وقال آخر^(١) :

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْبَلَاكِثِ فَالْقَا * عِيسَى سِرَاعًا وَالْعَيْسُ تَهْوِي هَوِيًّا
خَطَرْتُ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِ * رَاكَ وَهَنَا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيًّا

الأصمعي : هَوَى بِالْفَتْحِ يَهْوِي هَوِيًّا أَيْ سَقَطَ إِلَى أَسْفَل . قَالَ : وَكَذَلِكَ أَنَهَوَى فِي السَّيْرِ إِذَا مَضَى فِيهِ ، وَهَوَى وَأَنَهَوَى فِيهِ لَفْتَانِ بِمَعْنَى ، وَقَدْ جَمَعَهُمَا الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ :
وَكَمْ تَنْزِيلٍ لَوْلَا يَطِخَتْ كَمَا هَوَى * بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النَّبْقِ مِنْهَوَى^(٢)
وَيُقَالُ فِي الْحُبِّ : دَوَى بِالْكَسْرِ يَهْوِي هَوَى ، أَيْ أَحَبَّ .

قوله تعالى : (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) هذا جواب القسم ؛ أَيْ مَا ضَلَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْحَقِّ وَمَا حَادَّ عَنْهُ . (وَمَا غَوَى) الْغَى ضِدُّ الرُّشْدِ أَيْ مَا صَارَ غَاوِيًّا . وَقِيلَ : أَيْ مَا تَكَلَّمَ بِالْبَاطِلِ . وَقِيلَ : أَيْ مَا خَابَ مِمَّا طَلَبَ وَالْغَى الْخَبِيَّةُ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ^(٣) :
فَنَ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ * وَمَنْ يَغْوَا لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَائِمًا
أَيْ مَنْ خَابَ فِي طَلَبِهِ لَامَهُ النَّاسُ . ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِخْبَارًا عَمَّا بَعْدَ الْوَحْيِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا عَنْ أَحْوَالِهِ عَلَى التَّعْمِيمِ ؛ أَيْ كَانَ أَبَدًا مُوَحَّدًا لِلَّهِ . وَهُوَ الصَّحِيحُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي « الشُّوْرَى » عِنْدَ قَوْلِهِ : « مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .
قوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قَالَ قَتَادَةُ : وَمَا يَنْطِقُ بِالْقُرْآنِ عَنْ هَوَاهُ « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » إِلَيْهِ . وَقِيلَ : « عَنِ الْهَوَى » أَيْ بِالْهَوَى ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

(١) قائله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزوم كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكت — بالثلثة — تذكر زوجته وكان شغوفًا بها ففكر راجعًا فقال الأبيات ؛ وبعد البيتين :

قلت لبيك إذ دعاني لك الشو * ق ولخسادي من حسا المطايا

(٢) قائله يزيد بن الحكم الثقفي . وقلة كل شيء . أعلاه . والنبق — بكسر النون — : أرفع ، وضع في الجبل .
وقيل : الطوبى له منه . (٣) قائله المرقش . (٤) راجع ج ١٦ ص ٥٥

كقوله تعالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا »^(١) أى فأسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى ، وتكون « عن » على بابها ، أى ما يخرج نطقه عن رايه ، إنما هو بوحى من الله عز وجل ؛ لأن بعده : « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى » .

الثانية — قد يحتاج بهذه الآية من لا يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضًا دلالة على أن السنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدم فى مقدمة الكتاب حديث المقدام بن معدي كرب^(٢) فى ذلك والحمد لله . قال السجستاني : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى » من « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنباري : وهذا غلط ؛ لأن « إِنْ » الخفيفة لا تكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ماقت إن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾^(٣) يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين ؛ سوى الحسن فإنه قال : هو الله عز وجل ، ويكون قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾^(٤) على قول الحسن تمام الكلام ، ومعناه ذو قوة والقوة من صفات الله تعالى ؛ وأصله من شدة قتل الحبل ، كأنه استمر به القتل حتى باغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾^(٥) يعنى الله عز وجل ؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفراء : ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾^(٦) أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهذا على العطف على المضمع المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه ؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقبلما يقولون استوى وفلان ؛ وأنشد الفراء :

لَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُسُودُهُ * وَلَا يَسْتَوِي وَالْخُرُوعُ الْمُنْقَصَفُ^(٧)

أى لا يستوى هو والخروج ؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا » والمعنى أننا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية : استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

(١) راجع ج ١ ص ٦٣ و ٢٢٨ (٢) راجع ج ١ ص ٣٧

(٣) النبع : شجرة فى الجبال تؤخذ منه القسي . والخروج معروف . والمنقصف : المنكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر . وقيل : المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى ، وهو أجود . وإذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذو مِرَّة» في وصفه ذو منطق حسن ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن . وقيل : معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغنى ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ " . وقال امرؤ القيس :

كُنْتُ فِيهِمْ أَبَدًا ذَا حِيلَةٍ * مُحْكَمَ الْمِرَّةِ مَأْمُونِ الْعُقَدِ

وقد قيل : «ذو مِرَّة» ذو قوة . قال الكلبي : وكان من شدة جبريل عليه السلام : أنه أفتاح مدائن قوم لوط من الأرض السفلى ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكهم ثم قلبها . وكان من شدته أيضًا : أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند . وكان من شدته : صيحته يتمود في عددهم وكثرتهم ، فأصبحوا جائعين خاملين . وكان من شدته : هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف . وقال فطرُب : تقول العرب لكل جَزَلٍ الرأي حصيف العقل : ذُو مِرَّةٍ . قال الشاعر :

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ إِفْقَاكُمُ ذَا مِرَّةٍ * عِنْدِي لِكُلِّ مُحَاجِمٍ مِيزَانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله : أن الله آتته على وحيه إلى جميع رسله . قال الجوهري : والمِرَّةُ إحدى الطبائع الأربع ، والمِرَّةُ القوة وشدة العقل أيضًا . ورجل مَرِيرٌ أى قوى ذو مِرَّةٍ . قال :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ * وَحَشَّوْا نِيَابَهُ أَسَدَ مَرِيرٍ ^(٣)

وقال أقيط :

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرِّ مَرِيرَتِهِ * مُرَّ الْعَزِيمَةِ لَا رَتًّا وَلَا ضَرَعًا ^(٤)

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) في ج ، س : « من الماء الأسود » .

(٣) قاله العباس بن مرداس . وفي الناج : وفي أنوابه رجل مزير . بالزاي . ويروى : أسد مزير . والمزير كأمير

الشديد . لقاب القوي النافذ في الأمور . (٤) كذا في الأصول «لارتا» والزنة ردة قبيحة في اللسان من العيب .

والذي في ديوان لقيط بأخر كتاب منتهى الطالب : «لأخفا» . والقهم : الشيخ الهرم يعز به خرق وخوف . والضرع : الماين الدليل .

وقال مجاهد وقتادة : « دُومِرَّة » ذوقوة ، ومنه قول خُفَّاف بن نَدْبَة :

إِنِّي أَمْرُؤُ دُومِرَّةٍ فَاسْتَبْقِنِي * فَيَا يَنْوُبُ مِنَ الْخُطُوبِ صَدِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل ، ومن صفة المخلوق . « فاستوى » يعنى جبريل على ما بينا ؛ أى ارتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد ابن المسيب وابن جبير . وقيل : « فاستوى » أى قام في صورته التى خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الأدميين كما كان يأتى إلى الأنبياء ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التى جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين : مرة في الأرض ومرة في السماء ؛ فأما في الأرض ففى الأفق الأعلى ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، فنزل إليه في صورة الأدميين وضمه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ؛ فلما أفاق النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحداً على مثل هذه الصورة “ . فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح سعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : ” إن هذا لعظيم “ فقال : وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً ، ولقد خلق الله لإسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي ، وإنه لينضاء أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوضع . يعنى العصفور الصغير ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْغَمِيمِ^(١) » وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمداً صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فاستوى » أى استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه . الثاني في صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى « فاستوى » فاعتدل يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فاعتدل في قوته . الثاني في رسالته . ذكرهما الماوردي .

قلت : وعلى الأول يكون تمام الكلام « دُومِرَّة » ، وعلى الثاني « شَدِيدُ الْقُوَى » .

وقول خامس أن معناه فارفع . وفيه على هذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السلام

أرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثاني أنه النبي صلى الله عليه وسلم أرتفع بالمعراج .
وقول سادس « فَاسْتَوَى » يعنى الله عز وجل ، أى استوى على العرش على قول الحسن .
وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »^(١) .

قوله تعالى : (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) جملة فى موضع الحال ، والمعنى فاستوى عالياً ،
أى استوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى
سأله إياها على ما ذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذى
تأتى منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس . ونحوه عن
بجاهد . ويقال : أفق وأفق مثل عُسْر وعُسْر . وقد مضى فى « حم السجدة »^(٢) . وفسر أفق
بالضم أى رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر :

أَرْجَلُ لَيْتِي وَأَجْرُ ذَيْبِي * وَتَحْلُ شِكَّتِي أَفُقُ كَمَيْتِ^(٣)

وقيل : « وَهُوَ » أى النبي صلى الله عليه وسلم « بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى » يعنى ليلة الإسراء وهذا
ضعيف ؛ لأنه يقال : استوى هو وفلان ، ولا يقال استوى وفلان إلا فى ضرورة الشعر .
والصحيح استوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه
كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحى فى صورة رجل ، فأحب النبي صلى الله
وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فاستوى فى أفق المشرق فلا الأفق .

قوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض
« فَتَدَلَّى » فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى . المعنى أنه لما رأى النبي صلى الله عليه
وسلم من عظمت ما رأى ، وهاله ذلك رده الله إلى صورة آدمى حين قرب من النبي صلى الله
عليه وسلم بالوحى ، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » يعنى أوحى الله إلى جبريل وكان
جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم . وعن

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٤

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ و ج ١ ص ٢٥٤

(٣) فاته عمرو بن قنساس المرادى . والشكة السلاج . وفى اللسان : وتحمل بزق . والكيت من الخليل ما خاط

حرته سواد غير خالص .

أبن عباس أيضا في قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دَنَا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب ؛ قال ليبيد^(١) :

فَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ قَافِلًا * وعلى الأرض غِيَابَاتِ الطُّفَلِ

وذهب الفراء إلى أن الفاء في « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالأول قد مدت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتني فأساء وأساء فشتمني ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآتَشَّتِ الْقُمْرُ^(٢) » المعنى والله أعلم : آتشت القمر وأقتربت الساعة . وقال الجرجاني : في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا ؛ لأن التدلى سبب الدنو . وقال ابن الأنباري : ثم تدلى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بفأس عليه ثم رفع فدنا من ربه . وسيأتي . ومن قال : المعنى فاستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول : ثم دنا محمد من ربه دنوا كرامة فتدلى أي هوى للسجود . وهذا قول الضحاك . قال القشيري : وقيل على هذا تدلى أي تدال ؛ كقولك تَطَلَّى بمعنى تَطَنَّ ، وهذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضى في صفة العبودية .

قوله تعالى : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أي « كان » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أي قدر قوسين عربيتين . قاله ابن عباس وعطاء والفراء . الزمخشري : فإن قلت كيف تقدير قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قرينه مثل قاب قوسين ، لحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله^(٣) :

* وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ حَرِيمَةٍ إَصْبَعًا *

(١) البيت في وصف فرس . أراد أنه نزل من مربانه وهو على فرسه راكب .

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء (٣) اختلف في القائل مصدر البيت : * فأدرك بإبقاء العرادة ظلمها * وفي ز : « خزيمة » بالخاء المعجمة ، وهو تحريف . وخزيمة (بالمهله) : اسم فارس من فرسان العرب . والعرادة : اسم فرس من خيل العرب في الجاهلية .

أى ذا مقدار مسافة إصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم ؛ كقوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ ^(١) » .
 وفى الصحاح : وتقول بينهما قَابُ قَوْسٍ ، وَقَيْبُ قَوْسٍ وَقَادَ قَوْسٍ ، وَقَيْدُ قَوْسٍ ؛ أى قَدَرُ
 قَوْسٍ . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قَيْدَ » و « قَدَرَ » . ذكره الزمخشري . والقَابُ
 ما بين المَقْبِضِ والسَّيَةِ . ولكل قوس قابان . وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ »
 أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : « وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَوْضِعُ قَيْدِهِ خَيْرٌ
 مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وَالْقَيْدُ السُّوْطُ . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله
 عليه وسلم : « وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . وإنما ضرب المثل
 بالقوس ، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عياض : أعلم أن ما وقع من
 إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدى ، وإنما دنو النبى
 صلى الله عليه وسلم من ربه وقربه منه : إبانة عظيم منزلته ، وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار
 معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته . ومن الله تعالى له : مبرة وتأنيس وبسط وإكرام .
 ويتأول فى قوله عليه السلام : « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » على أحد الوجوه : نزول إجمال
 وقبول وإحسان . قال القاضى : وقوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فن جعل الضمير
 عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحلل ، وإيضاح
 المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء
 المطالب ، وإظهار التحفنى ، وإانافة المنزلة والقرب من الله ؛ ويتأول فيه ما يتأول فى قوله
 عليه السلام : « مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » « قَرُبُ
 بِالْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ ، وَإِتْيَانُ بِالْإِحْسَانِ وَتَعْجِيلُ الْمَأْمُولِ . وقد قيل : « ثُمَّ دَنَا » جبريل من
 ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدل عليه ما روى فى الحديث : « إِنْ
 أَقْرَبَ الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللَّهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ » . وقيل : « أَوْ » بمعنى الواو أى قاب قوسين
 وأدنى . وقيل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيب : القاب صدر القوس
 العربية حيث يشد عليه السير الذى يتنكبته صاحبه ، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن
 جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبير وعطاء

وأبو إسحق الحمداني وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر ذراعين ، والقوس الذراع يقاس بها كل شئ ، وهى لغة بعض الحجازيين . وقيل : هى لغة أزد شنوءة أيضا . وقال الكسائى : قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوساً واحداً ، كقول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَدْ قَيْنِ مَرَّتَيْنِ * قَطَعَتْهُ بِالسَّهْمِ لَا بِالسَّحْنَيْنِ^(١)

أراد مهمهاً واحداً . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنت قال فى تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس ، وفى المثل هو من خير قويس سهماً . والجمع قيسى وقيسى وأقواس وقياس ؛ وأنشد أبو عبيدة :

* وَوَتَرَ الْأَسَاوِرُ الْقِيَاسَ^(٢) *

والقوس أيضاً بقية التمر فى الحُلَّة أى الوعاء ، والقوس برج فى السماء . فأما القوس بالضم فصومعة الراهب ؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لَا سَتَفْتَنَنِي وَذَا الْمُسْحَيْنِ فِي الْقُوسِ^(٣) *

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليه . وتقدم معنى الوحى وهو إلقاء الشئ بسرعة ومنه الوحاء الوحاء . والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى [« فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَىٰ »]^(٤) . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحى هل هو مبهم ؟ لَا نَطْلِعُ عَلَيْهِ نَحْنُ وَتُعْبَدُنَا بِالْإِيمَانِ بِهِ

(١) السميت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(٢) قائله القلاخ بن حزن . وتماه : * صغدية تتزع الأنفاصا *

(٣) قائله جبرير . وصدره : * لا واصل إذ صرفت هند وأوقفت *

(٤) يمدد ويقصر فالمقصود الوحى كالوغي ومعناه البدار البدار . راجع ج ٤ ص ٨٥ وج ١٠ ص ١٣٣ فى معنى الوحى والقول فيه . (٥) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، ل ، هـ .

على الجملة ، أو هو معلوم مفسر ؟ قولان . والثاني قال سعيد بن جبيرة ، قال : أوحى الله إلى محمد : ألم أجذك يتيمًا فأوتيتك ! ألم أجذك ضالًّا فهديتك ! ألم أجذك عائلًا فأغنيتك ! « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك » . وقبل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَسْكُونَ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)

قوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأقول مروى عن ابن عباس . وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة . والثاني قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الحلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بنى هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول في هذا في « الأنعام » عند قوله : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ربك ؟ قال : « رأيتُه بفؤادى مرتين » ثم قرأ : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » . وقول : ثالث أنه رأى جلاله وعظمته ؛ قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيت نهرًا ورأيت وراء النهر حجابًا ورأيت

وراء الحجاب نوراً لم أر غير ذلك». وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : «نوراً أنى أراه» المعنى غلبنى من النور وبهرنى منه ما معنى من رؤيته . ودل على هذا الرواية الأخرى «رأيت نوراً» . وقال ابن مسعود : رأى جبريل على صورته مرتين . وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام «مَا كَذَبَ» بالتشديد أى ما كَذَبَ قلبُ مجد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدقه . فد «ما» مفعوله بغير حرف مقدر ؛ لأنه يمتدئ مشدداً بغير حرف . ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذى والعائد محذوف ، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً . الباقيون مخففاً ؛ أى ما كذب فؤاد مجد فيما رأى ؛ فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضى الله عنه :

لو كنت صادقاً الذى حدثتني * لنجوت منبج الحارث بن هشام

أى فى الذى حدثتني . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً . ويجوز أن يكون بمعنى الذى ؛ أى ما كذب فؤاد مجد صلى الله عليه وسلم الذى رأى .

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَأْتَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ قرأ حمزة والكسائي « أَفْتَمَرُونَهُ » بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . واختاره أبو عبيد ؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه . يقال : مرأه حقه أى جحدوه ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

أئن هجرت أخا صديق ومكرمة^(١) * لقد مررت أخاً ما كان يمر بك

أى جحدته . وقال المبرد : يقال مرأه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه . قال : ومثل على بمعنى عن قول بنى كعب بن ربيعة : رضى الله عليك ؛ أى رضى عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفْتَمَرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمرت ؛ أى تريبونه وتشككونه . الباقيون « أَفْتَأْتَارُونَهُ » بألف ، أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحد . وقيل : إن الجحد كان دائماً منهم وهذا جدال جديد ؛ قالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن غيرنا التى فى طريق الشام . على ما تقدم^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ « نَزْلَةً » مصدر في موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلاً نَزْلَةً أُخْرَى . قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبي العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين ؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرَجَة نَزْلَةٌ . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أى ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وفى بعض تلك النزلات . وقال ابن مسعود وأبو هريرة فى تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » أنه جبريل . ثبت هذا أيضاً فى صحيح مسلم . وقال ابن مسعود : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت » ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ « عِنْدَ » من صلة « رَآهُ » على ما بينا . والسَّدْرُ شَجَرُ النَّبْقِ وهى فى السماء السادسة ، وجاء فى السماء السابعة . والحديث بهذا فى صحيح مسلم ؛ الأول ما رواه مرة عن عبد الله قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وهى فى السماء السادسة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغُفِرَ لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً الْمُفْجِحَمَاتُ . الحديث الثانى رواه قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَمَّا رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فى السماء السابعة نَبَقَها مثل قِلَالِ هَجَرٍ وورقها مثل آذان الفيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان فهى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » لفظ الدَّارُ قُطْنَى . والنَّبَقُ بكسر الباء : ثمر السَّدْرِ الواحد نَبَقَةٌ . ويقال : نَبَقَ النون وسكون الدار قُطْنَى .

(١) وروى : « جراد من ذهب » . ونقراش : دورية ذات جناحين تنبقت فى ضوء المراج واحدها فراشة .

(٢) الْمُفْجِحَمَاتُ : الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار ؛ أى تلقى بهم فيها .

الباء ؛ ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين ، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذكر له سِدْرَةُ المنتهى — قال : ” يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيى — فيها قرأshi الذهب كأن ثمرها القلال “ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس ” ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها “ . واختلف لم تُسميت سِدْرَةُ المنتهى على أقوال تسعة : الأول — ما تقدم عن ابن مسعود أنه ينتهى إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها . الثاني — أنه ينتهى علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها ؛ قاله ابن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهى إليها وتقبض منها ؛ قاله الضحاك . الرابع — لانتها الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها ؛ قاله كعب . الخامس — سميت سِدْرَةُ المنتهى لأنها ينتهى إليها أرواح الشهداء ؛ قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهى إليها أرواح المؤمنين ؛ قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهى إليها كل من كان على سنة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه ؛ قاله علي رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هي شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق ؛ قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن ارتفاعها وأعلى أغصانها قد جاوزت رءوس حملة العرش ؛ ودليله ما تقدم من أن أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سميت بذلك لأن من رفع إليها فقد انتهى في الكرامة . وعن أبي هريرة لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سِدْرَةِ المنتهى فقليل له هذه سِدْرَةُ المنتهى ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ؛ فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،

(١) في ب ، ح ، ز ، س ، هـ : « لأنه نأى إليها » .

وأَنهار من نحر لذة للشاربين ، وأنهار من غسل مُصَفَّى ، وإذا هي شجرة يسير الراكب الممرع في ظلها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمة كلها ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سِدرة المنتهى . وقرا على وأبو هريرة وأنس وأبو سبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد «عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» بمعنى جنة المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبي صلى الله عليه وسلم . وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أى ستره وأدركه . وقراءة العامة «جَنَّةُ الْمَأْوَى» قال الحسن : هى التى يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التى يصير إليها أرواح الشهداء ؛ قاله ابن عباس ، وهى عن يمين العرش . وقيل : هى الجنة التى آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهى فى السماء السابعة^(١) . وقيل : إن أزواج المؤمنين كلهم فى جنة المأوى . وإنما قيل لها : جنة المأوى لأنها آوى إليها أرواح المؤمنين وهى تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فراش من ذهب . ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيتها نور رب العالمين فاستنارت . قال القرطبي : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيتها؟ قال : «فراش من ذهب» . وفى خبر آخر «غشيتها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها» . وقال الربيع بن أنس : غشيتها نور الرب والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح^(٢) [الله تعالى]» وذلك قوله : «إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى» ذكره

(١) فى ب ، ح ، ز ، ل : «الرابعة» وكذا هو فى حاشية الجلى عن القرطبي .

(٢) ساقطة من ز ، ل ، ه ، هـ .

(١) والمهدوى والثعلبي . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى » قال جرّاد من ذهب وقد رواه مرفوعاً . وقال مجاهد : إنه رَقَرَفَ أخضر . وعنه عليه السلام : « يغشاها رَقَرَفٌ من طير خضر » . وعن ابن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أى أمره كما فى صحيح مسلم مرفوعاً : « فلما غشها من أمر الله ما غشى » . وقيل : هو تعظيم الأمر ؛ كأنه قال : إذ يغشى السَّدْرَةَ ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ومثله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » . وقال الماوردى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم أختيرت السَّدْرَةُ لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السَّدْرَةَ تختص بثلاثة أوصاف : ظلٌ مديد ، وطعمٌ لذيذ ، ورائحةٌ ذكية ؛ فشابهت الإيمان الذى يجمع قولاً وعملاً ونيةً ؛ فظُلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزها ، وطعمها بمنزلة النية لكونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود فى سننه قال : حدثنا نصر ابن على قال حدثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن جهمد عن ابن جبير بن مطعم عن عبد الله بن حبشى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قطع سِدْرَةَ صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فى النار » وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرَةَ فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فى النار .

قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) قال ابن عباس : أى ما عدل يميناً ولا شمالاً ، ولا تجاوز الحد الذى رأى . وقيل : ما جاوز ما أمر به . وقيل : لم يمد بصره إلى غير ما رأى

(١) بعد هذا نقل الجبل عن القرطبي فى تفسيره ما يأتى : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها منشوقين منبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذهب بن جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كأذان القبلة وإذا ثمرها كقلال هجر » قال : « فلما غشها من أمر الله ماغشها تغيرت فإحد من خلق الله تعالى قدر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة » . وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تعجل ربه لها كما تعجل للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت لمغسل دكا ولم تتحرك الشجرة ، ونحو موسى صمعا ولم يتزلزل مجد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أهمه تعظيماً له . والغشيان يكون بمعنى التغطية . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٥٦

من الآيات . وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام ؛ إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قال ابن عباس : رأى رُفْرَفًا سَدَّ الأفق . وذكر البيهقي عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال ابن عباس : رأى رُفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أَفْقَ السَّمَاءِ . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في حُلَّةٍ رُفْرَفٍ أَخْضَرٍ ، قد ملا ما بين السماء والأرض . قال البيهقي : قوله في الحديث ”رَأَى رُفْرَفًا“ يريد جبريل عليه السلام في صورته في رُفْرَفٍ ، والرُفْرَفُ البساط . ويقال : فِرَاش . ويقال : بل هو ثوب كان لباساً له ؛ فقد روى أنه رآه في حُلَّةٍ رُفْرَفٍ . قلت : أخرجه الترمذي عن عبد الله قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في حُلَّةٍ من رُفْرَفٍ قد ملا ما بين السماء والأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير ؛ أى تدلى الرُفْرَفُ لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بفخاس عليه ثم رُفِعَ فدنا من ربه . قال : ”فَارَقَنِي جَبْرِيلُ وَأَنْقَطَعَتْ عَنِّي الْأَصْوَاتُ وَسَمِعْتُ كَلَامَ رَبِّي“ فعلى هذا الرُفْرَفُ مَا يُقْعَدُ وَيُجْلَسُ عَلَيْهِ كَالْبَسَاطِ وَغَيْرِهِ . وهو بالمعنى الأول جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريل عليه السلام في صورته التى يكون فيها في السموات ؛ وكذا في صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل في صورته له سَمَائَةٌ جَنَاحٍ . ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلَّةٍ رُفْرَفٍ وعلى رُفْرَفٍ . والله أعلم . وقال الضحاك : رأى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى . وعن ابن مسعود : رأى ما غشى السِّدْرَةَ من فِرَاشٍ الذَّهَبِ ؛ حَكَاهُ الْمَسْأُورِدِيُّ . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدنه ؛ وهو أحسن ؛ دليله : « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » و « مِنْ » يجوز أن تكون للتبعيض ، وتكون « الْكُبْرَى » مفعولة لـ « رَأَى » وهى في الأصل صفة الآيات ووحدت لرؤوس

(١) في ب، ز، ح، س، ل، هـ : « أدب النبي » . (٢) في ب، ح، س : « ارتفعت » .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٠٤

الآيات . وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى ؛ كقوله تعالى : « وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى » .
وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف ؛ أى رأى من آيات ربه الكبرى . ويجوز أن تكون
« مِنْ » زائدة ؛ أى رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى رأى الكبرى
من آيات ربه .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ، وذكر من آثار قدرته ما ذكره ، حاجُّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل وقال :
أفرايم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحِينَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا كَمَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ عِدٍّ . وكانت اللَّاتُ لثَقِيفَ ،
وَالْعُزَّىٰ لقريش وبنى كنانة ، وَمَنَاةُ لبنى هلال . وقال هشام : فكانت مناة لِهذيل وَخُرَاعَةَ ؛
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه فهدهما عام الفتح . ثم آتخذوا اللات
بالباطن ، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مُرَبَّعَةً ، وكان سدتها من ثَقِيفَ ، وكانوا
قد بنوا عليها بناءً ، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمى زيد
اللَّات وتيم اللَّات . وكانت فى موضع [منارة] مسجد الطائف اليسرى ، فلم تزل كذلك إلى أن
أسلمت ثَقِيفُ ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبه فهدهما وحرقها بالنار .
ثم آتخذوا الْعُزَّىٰ وهى أحدث من اللَّات ، آتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بوادى نخلة الشامية
فوق ذات عِرْقَ ، فبنوا عليها بيتاً وكانوا يسمعون منها الصوت . قال ابن هشام : وحديثى
أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كانت الْعُزَّىٰ شيطانة تأتى ثلاث سُمُرَاتٍ ببطن نخلة ،
فلما آتت رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه فقتل :

(١) راجع ج ١١ ص ١٨٧ (٢) فى ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « وقيل » . (٣) أنفقت

نسخ الأصل على القول بأن مناة لبنى هلال ولم نره لغير المؤلف . (٤) الزيادة من تحاب الأصنام لابن الكلبي .

(٥) فى تحاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

”آيَتِ بَطْنِ نَخْلَةٍ فَإِنَّكَ تَجِدُ ثَلَاثَ سَمُرَاتٍ فَأَعِضِدِ الْأُولَى“ فَأَتَاهَا فَعَصَّدَهَا فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ قَالَ :
 ”هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا“ قَالَ : لَا . قَالَ : ”فَأَعِضِدِ الثَّانِيَةَ“ فَأَتَاهَا فَعَصَّدَهَا ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ”هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا“ قَالَ : لَا . قَالَ : ”فَأَعِضِدِ الثَّالِثَةَ“ فَأَتَاهَا فَإِذَا
 هُوَ بِجَبَشِيَّةٍ نَافِثَةٍ شَعْرَهَا ، وَاضِعَةً يَدَيْهَا عَلَى عَاتِقِهَا تُصَرِّفُ بِأَنْيَابِهَا ، وَخَلْفَهَا دُبْيَةٌ السَّلَمِيِّ
 وَكَانَ سَادَتُهَا فَقَالَ :

يَا عَزَّ كُفِّرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ * إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

ثُمَّ ضَرَبَهَا ففَلَقَ رَأْسَهَا فَإِذَا هِيَ حُمَمَةٌ ، ثُمَّ عَصَّدَ الشَّجَرَةَ وَقَتَلَ دُبْيَةَ السَّادِنِ ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : ”تِلْكَ الْعُزَّى [وَأَنْ تُعْبَدَ أَبَدًا]“ وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ : الْعُزَّى
 حَجَرٌ أَبْيَضٌ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ . قَتَادَةُ : نَبْتٌ كَانَ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ . وَمَنَاةٌ : صِنْمٌ لِحَزَاعَةٍ . وَقِيلَ :
 إِنْ اللَّاتُ فِيمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ لَفْظِ اللَّهِ ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَمَنَاةٌ
 مِنْ مَنَى اللَّهِ الشَّيْءَ إِذَا قَدَّرَهُ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٌ وَحُمَيْدٌ وَأَبُو صَالِحٍ «اللَّاتُ»
 بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَقَالُوا : كَانَ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ — ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ — فَلَمَّا
 مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ . ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ يَبِيعُ السَّوِيقَ وَالسَّمْنَ عِنْدَ صَخْرَةٍ وَيَصْبِيهِ
 عَلَيْهَا ، فَلَمَّا مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَبَدَتْ ثَقِيفٌ تِلْكَ الصَّخْرَةَ إِعْظَامًا لِصَاحِبِ السَّوِيقِ . أَبُو صَالِحٍ :
 إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا بِالطَّائِفِ فَكَانَ يَقُومُ عَلَى آلِهَتِهِمْ وَيَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَلَمَّا مَاتَ عَبَدُوهُ . مُجَاهِدٌ :
 كَانَ رَجُلٌ فِي رَأْسِ جَبَلٍ لَهُ غَنِيمَةٌ يَسْلِي مِنْهَا السَّمْنَ وَيَأْخُذُ مِنْهَا الْأَقِطَ وَيَجْمَعُ رِسْلَهَا ، ثُمَّ يَتَّخِذُ
 مِنْهَا حَبِيسًا فَيَطْعَمُ الْحَاجَّ ، وَكَانَ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ فَلَمَّا مَاتَ عَبَدُوهُ وَهُوَ اللَّاتُ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ كَانَ رَجُلًا
 مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةٌ بَنَ غَنَمٍ . وَقِيلَ : إِنَّهُ عَامِرُ بْنُ ظَرِيبٍ الْعَدَوَانِيُّ . قَالَ الشَّاعِرُ :
 لَا تَنْصُرُوا اللَّاتَ إِنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهَا * وَكَيْفَ يَنْصُرُكُمْ مَنْ لَيْسَ يَنْتَصِرُ

(١) دُبْيَةٌ بِالْهَمْزِ الْمُهْمَلَةِ بَنُ حَرَمٍ وَبِرْدَى ابْنِ حَرَمٍ ثُمَّ السَّلَمِيُّ . (٢) فِي ب ، ز ، هـ ، و : «بَيْت» .

(٣) فِي ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : «اسْمُ اللَّهِ» . (٤) يَسْلِي : يَجْمَعُ . الْأَقِطُ لَبَنٌ مَجْجَفٌ بِابٍ

مُسْتَعْجِرٍ يَطْبَخُ بِهِ . وَالرِّسْلُ اللَّبَنُ . (٥) الْحَبِيسُ : الطَّعَامُ الْمَتَّخَذُ مِنَ التَّمْرِ وَالْأَقِطِ وَالسَّمَنِ .

(٦) هُوَ شَدَّادُ بْنُ عَارِضٍ الْجَشْمِيُّ قَالَهُ فِي آيَاتٍ حِينَ هَدَمَتْ اللَّاتُ وَحَرَقَتْ ، يَنْهَى ثَقِيفًا عَنِ الْعُودِ إِلَيْهَا ، وَالغَضَبُ لَهَا .

والقراءة الصحيحة « اللآت » بالتخفيف أسم صنم والوقوف عليها بالناء وهو اختبار الفراء .
قال الفراء : وقد رأيت الكسائي سأل أبا فقعس الأسدي^(١) فقال ذاه لذات [ولاء للآت]
وقرأ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاهَ » . وكذا قرأ الدؤري عن الكسائي والبرزى عن ابن كثير « اللاه »
بالهاء في الوقف ، ومن قال : إن « اللآت » من الله وقف بالهاء أيضا . وقيل : أصلها لاهة
مثل شاة [أصلها شاهة] وهي من لآهت أي آخفت ؛ قال الشاعر :

لَآهَتْ فَمَا عُرِفَتْ يَوْمًا بِخَارِجَةٍ * بِأَلَيْتِهَا نَخَرَجَتْ حَتَّى رَأَيْنَاهَا

وفي الصحاح : اللات أسم صنم كان لتقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف
عليها بالناء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللآت والعزى ،
ويقول هي اللآت فيجعلها تاء في السكوت وهي اللآت فأعلم أنه جر في موضع الرفع ؛ فهذا
مثل أميس مكسور على كل حال وهو أجود منه ؛ لأن الألف واللام اللتان في اللآت
لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللآت والعزى في السكوت عليها
فالألة لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كبت وكبت ،
وكذلك هيات في لغة من كسرهما ؛ إلا أنه يجوز في هيات أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك
في اللآت ؛ لأن التاء لا تزداد في الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين
بقي الأسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّائِيَةِ الْأُخْرَى ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد ومجاهد
والسلمي والأعشى عن أبي بكر « وَمِنَاءَ » بالمد والهمز . والباقون بترك الهمز لغتان . وقيل :
سمى بذلك ؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت متى لكثرة
ما يراق فيها من الدماء . وكان الكسائي وابن كثير وابن محيصن يقفون بالهاء على الأصل .

(١) الذي ذكره الدحاس في إعراب قوله تعالى : « ولات حين مناص » أن الفراء قال عن الكسائي : أحسبه أنه
سأل أبا الهيثم كيف يقرأ فيقف على « ولات » فوقف عليها بالهاء . وعبارة الفراء في هذه السورة من تفسيره : وكان
الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء . هـ . ولم يذكر أبا فقعس .

الباقون بالتاء آتباعاً لخط المصحف . وفي الصحاح : ومناة اسم صنم كان [لهذيل وخزاعة]^(١)
 بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة ، والنسبة إليها منوى .
 وعبدُ مناة ابنُ أد بن طابخة ، وزيدُ مناة ابنُ تميم بن مرٍّ يمد ويقصر ؛ قال هو بر الحارثي :
 ألا هل أتى التميم بن عبد مناة * على الشنء فيما بيننا ابنُ تميم

قوله تعالى : (الأخرى) العرب [لا] تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية ،
 واختلفوا في وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوافق رؤوس الآي ؛ كقوله : « مَارِبُ
 أُخْرَى » ولم يقل أخر . وقال الحسين بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيت
 اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة . وقيل : إنما قال « ومناة الثالثة الأخرى » لأنها
 كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللات والعزى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا
 عن [ابن] هشام : أن مناة كانت أولاً في التقديم ، فلذلك كانت مقدمة عندهم في التعظيم ؛ والله
 أعلم . وفي الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أى أفرأيت هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى
 تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقرير والتوبيخ : (أَلَمْ يَذْكُرُوا لَهُ الْآلِهَةَ) ردّاً عليهم
 قولهم : الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : (تِلْكَ إِذًا) يعنى هذه القسمة (قِسْمَةٌ ضِيزَى) أى جائرة عن العدل ،
 خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق . يقال : ضَارَ في الحكم أى جار ، وضَارَ حقه يَضِيرُه
 ضَيْرًا — عن الأخفش — أى نقصه وبخسه . قال : وقد يهمز فيقال ضَارَه يَضَارُه ضَارًا
 وأنشد :

فَإِنْ تَنَاءَ عَنَّا نَنْتَقِصْكَ وَإِنْ تَقِمَّ^(٢) * فَيَقْسُمَكَ مَضُوزٌ وَأُنْفَكَ رَاغِمٌ
 وقال الكسائي : يقال ضَارَ يَضِيرُ ضَيْرًا ، وضَارَ يَضُوزُ ضَوْزًا ، وضَارَ يَضَارُ ضَارًا إذا ظلم
 وتعدى وبخس وانتقص ؛ قال الشاعر^(٣) :

ضَارَتْ بَنُو أُمَيْدٍ مُحْكِمِهِمْ * إِذْ يَجْعَلُونَ الرَّأْسَ كَالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح واللسان . (٢) زيادة يقتضها السياق . (٣) من ب ، ح ، ز ، س ، ل هـ .

(٤) في الأصل « وإن تغب » والتصويب عن اللسان . وروى الخطك بدل فقسك . (٥) قاله امرؤ القيس .

قوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائزة ، وهى فُعْلَى مِثْل طُوبَى وَحُبْلَى ، وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء ، لأنه ليس فى الكلام فِعْلَى صفة ، وإنما هو من بناء الأسماء كالشُعْرَى والدُّقْلَى . قال الفراء : وبعض العرب تقول ضُوزَى وضِزَى بالهمز . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد : أنه سمع العرب تهمز « ضِيزَى » . قال غيره : وبها قرأ ابن كثير ، جعله مصدرا مثل ذِكرى وإِس بصفة ، إذ ليس فى الصفات فِعْلَى ولا يكون أصلها فُعْلَى ، إذ ليس فيها ما يوجب القلب ، وهى من قولهم ضازته أى ظلمته . فالمعنى قسمة ذات ظلم . وقد قيل هما لغتان بمعنى . وحكى فيها أيضا سواهما ضِيزَى وضَازَى وضُوزَى وضُوزَى . وقال المؤرج : كرهوا ضم الضاد فى ضِيزَى ، وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ ، مثل خُمِرٍ وَصُفَرٍ وَخُضَرٍ . فأما من قال : ضاز يَضُوز فالآسم منه ضُوزَى مثل سُوزَى .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْعًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا) أى ما هى هذه الأوتان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا » يعنى نَحْمُوها وسَمِيَّتُوهَا آلهة . (أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ) أى قلدهم وهى فى ذلك . (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أى ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان . (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هؤلاء إلى الظن . (وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) أى تميل إليه . وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمِيقِ

« تَتَّبِعُونَ » بالناء على الخطاب . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ﴿ وَأَقَدَ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بألهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى أشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين ؛ أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ! ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوة أن تكون فيه دون غيره . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام ؛ نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل : فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد . قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : الملك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ »^(١) . وقيل : إنما ذكر ملكاً واحداً ، لأنكم تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ أَلْمَلِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيَسْمَعُونَ الْمَلَكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ أى كنسمة الأنثى ، أى

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه فى كتاب . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿ وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليد . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم . قال الفراء : صغرهم وأزدرى بهم ؛ أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى حاد عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴾ فيجازى كلاً بأعمالهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْفِمْ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذى دل عليه « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء ويضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقيل : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » معترض فى الكلام ؛ والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبة ، أى والله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أى وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن ؛ فللمسئ سوءى وهى جهنم ، وللمحسن الحسنى وهى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَخْتَنُونَ كِبَاءَ الْإِيمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « الَّذِينَ يَخْتَنُونَ كِبَاءَ الْإِيمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للمحسنين ؛ أى هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « كبير » على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » الزنى : وقال مقاتل : « كِبَاءُ الْإِيمِ » كل ذنب ختم بالنار . « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيه الخد . وقد مضى فى « النساء » القول فى هذا . ثم استثنى استثناءً منقطعاً وهى :

المسألة الثانية — فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهى الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه . وقد اختلف فى معناها ؛ فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي : « اللَّمَمُ » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نهبان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيه تمرًا ، بخاءته امرأة تشتري منه تمرًا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبى وأنصرفت فندم نهبان ؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : « لعل زوجها غار »^(٢) فنزلت هذه الآية ، وقد مضى فى آخر « هود »^(٣) وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشى ، وإنما يصدق ذلك أو يكذبه الفرج ؛ فإن تقدم كان زنى وإن تأخر كان لممًا . وفى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللم مما قال أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب

(١) راجع ج ٥ ص ١٥٨ (٢) فى ب : « سله الله » .

(٣) راجع ج ٩ ص ١١١ ، ففيه بيان الإجمال فى هذا الحديث برواية أخرى .

على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه^(١)، والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرغ وغيره له حظ من الإثم . والله أعلم . وفي رواية أبي صالح [عن أبي هريرة] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرغ ويكذبه^(٢)» . نخرجه مسلم . وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ابن عباس فذكر فيه الأذن واليد والرجل ، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القبله»^(٣)، فهذا قول . وقال ابن عباس أيضًا: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب . قال: ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:

إِنْ يَغْفِرَ اللَّهُ يَغْفِرَ جَمًّا * وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس^(٤) . قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادًا، وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله عز وجل «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يلتم العبد بالذنب ثم لا يعاوده ، قال الشاعر^(٥):

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا * وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده ، ونحوه عن الزهري ، قال: ألم أن يزني ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» الآية . ثم قال: «أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم»^(٦) ، فضمن لهم المغفرة ، كما قال عقيب اللهم:

(١) من ب، ع . (٢) روى هذا الحديث الترمذي بهذا الإسناد وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) هو أمة بن الصلت قاله عند احتضاره . (٤) راجع ج: ص ٢٠٩ و ص ٢١٥ .

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) فعلى هذا التأويل يكون «إِلَّا اللَّعْمَ» استثناء متصل . قال عبد الله ابن عمرو بن العاص : اللعْم مادون الشرك . وقيل : اللعْم الذنب بين الحدين وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا ، ولا تُوعَد عليه بعذاب في الآخرة تكفره الصلوات الخمس . قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة . ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن ابن عباس . وقال الكلبي : اللعْم على وجهين : كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة ؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش . والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلزم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه . وعن ابن عباس أيضا وأبي هريرة وزيد بن ثابت : هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وآبنه ^(١) وهو كقوله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» ^(٢) . وقيل : اللعْم هو أن يأتي بذنب لم يكن له عادة ؛ قاله تقيويه . قال : والعرب تقول ما يأتينا إلا لمسأما ؛ أى في الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلزم ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألم بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا هم ولم يفعله . وفي الصحاح : وألم الرجل من اللعْم وهو صغائر الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواجهة . وأنشد غير الجوهري :

يَزِينُ اللَّعْمَ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ * وَقُلْ إِنَّ تَعْلِينَ مَا مَلَكَ الْقَلْبُ

أى أقرب . وقال عطاء بن أبي رباح : اللعْم عادة النفس الحين بعد الحين . وقال سعيد ابن المسيب : هو ما ألم على القلب ؛ أى خطر . وقال محمد بن الحنفية : كل ما هممت به من خير أو شر فهو لعْم . ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام : «إن للشيطان لمة وللملك لمة» الحديث . وقد مضى في «البقرة» عند قوله تعالى : «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» ^(٣) . وقال أبو إسحق الزجاج : أصل اللعْم والإلصام ما يعمل الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

(١) في أ : « رأبوه » وما أثبتناه يوافق ما في تفسير أبي حبان والطبري .

(٢) راجع ج ٥ ص ٣٢٩

(٣) راجع ج ٥ ص ١١٦

ولا يقيم عليه ؛ يقال : ألمت به إذا زرتَه وأنصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته إلا لمماً والمماً ؛ أى الحين بعد الحين . وإنما زيارتك الممام ، ومنه الممام الخيال ؛ قال الأعشى :
 أَلَمْ خَيَالٌ مِنْ قُبَيْلَةٍ بَعْدَ مَا * وَهَى حَبْلُهَا مِنْ حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا
 وقيل : إلا بمعنى الواو . وأنكر هذا الفراء وقال : المعنى إلا المتقارب من صفار الذنوب ،
 وقيل : اللهم النظرة التي تكون بغاة .

قلت : هذا فيه بعدٌ إذ هو معفو عنه أبدياً غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار ، وقد مضى في «النور» بيانه . واللهم أيضاً طرف من الجنون ، ورجل مدموم أى به لَمَمٌ . ويقال أيضاً : أصابت فلاناً لمةً من الحق وهى المس والشىء القليل ؛ قال الشاعر :
 فإذا وذلك يا كُبَيْشَةَ لَمْ يَكُنْ * إِلَّا كَلِمَةً حَالِسٍ بِخَيَالِ

الثالثة - قوله تعالى : «إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ» لمن تاب من ذنبه واستغفر ؛
 قاله ابن عباس . وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل وكان من أفاضل أصحاب ابن مسعود :
 رأيت في المنام كأنى دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذي
 الكَلَّاعِ وَحَوْشَبَ ، وكانا ممن قتل بعضهم بعضاً ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيَا
 الله فوجدها واسع المغفرة . فقال أبو خالد : بلغنى أن ذا الكَلَّاعِ أعتق آخى عشر ألف بنت .
 قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ ؛ يعنى أباكم آدم
 من الطين وخرج اللفظ على الجمع . قال الترمذى أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا ، بل وقع
 الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض ، وكذا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة ، ثم خرجت
 من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذرِّ والنفوس على اختلاف هيئتها ، ثم استخرجها من
 صُلْبِهَا على اختلاف الهيئات ؛ منهم كالدريتلاً ، وبعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أسود
 كالحممة ، وبعضهم أشد سواداً من بعض ؛ فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه . حدثنا عيسى

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(٢) هو أين مقبل . والوارى « وذلك » زائدة كقول أبي كبير الهذلي :

فإذا وذلك ليس إلا حينه * وإذا مضى شيء كان لم يفعل

أبن حماد العسقلاني قال : حدثنا بشر بن بكر ، قال : حدثنا الأوزاعي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرِضَ عَلَى الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بَيْنَ يَدَيِ حَجْرَتِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ " فقال قائل : يا رسول الله ! وَمَنْ مَضَى مِنَ الْخَلْقِ ؟ قال : " نَعَمْ عُرِضَ عَلَى آدَمَ فَمِنْ دُونِهِ فَهَلْ كَانَ خُلُقٌ أَحَدٌ " قالوا : وَمَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَبَطُونِ الْأُمَهَاتِ ؟ قال : " نَعَمْ مَثَلُوا فِي الطَّيْنِ فَعَرَفْتَهُمْ كَمَا عَلِمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا " .

قلت : وقد تقدّم في أوّل « الأنعام »^(٢) أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها . ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَسٌ ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام في البطن ، سمى جنينا لأجتنانه وأستناره . قال عمرو بن كلثوم :

* هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا ^(٣) *

وقال مكحول : كنا أجنسة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا رُضْعًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يَفْعَةً فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شبابًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شيوخًا — لا أبالك ! — فما بعد هذا ننظر ؟ ! . وروى ابن لميعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير : هو صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " كَذَبَتْ يَهُودُ مَا مِنْ نَسَمَةٍ يَخْلُقُهَا اللَّهُ فِي بَطْنِ أُمَةٍ إِلَّا أَنَّهُ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ " فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » إلى آخرها . ونحوه عن عائشة : " كَانَ الْيَهُودُ " . بمثله . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أى أخلص العمل وآتقى عقوبة الله ، عن الحسن وغيره . قال الحسن : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة . وقد مضى في « النساء » الكلام في معنى هذه الآية عند قولنا

(١) كذا في ١ ، ز . وفي ح ، ه ، س « فهل كان أحد » . وفي ب : « فهل كان قبله أحد » .

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٨٨ . (٣) وصدرة : * ذراعى حرة أدماء بكر * وهى رواية أبي عبيدة .

أى لم تضم في رحمها ولدا قط .

تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ^(١) » فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزرّكه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ^(٢) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ^(٣) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ^(٤)

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ [الآيات ^(٢)] لما بين جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد أتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فغيره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تَرَكْتَ دِينَ الْأَشْيَاحِ وَضَلَلْتَهُمْ وَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ ؟ ! قال : إني خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن ^(٤) [له] ثم بخل ومنعه فانزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : كالوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل : « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أي من الخير بإسانه « وَأَكْدَى » أي قطع ذلك وأمسك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسدي والكوفي والمسيب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاة عبد الله بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ألا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لي ذنوبًا وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلتها وأنا أقبل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة ^(٤)] فانزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدى والثعلبي . وقال السدي أيضا : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وذلك أنه

(١) راجع ج ٥ ص ٢٤٦ . (٢) من بول . (٣) في بوس وه : « ملهم » .

(٤) الزيادة من أسباب النزول للواحدى .

كان ربما يوافق النبي صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل
 ابن هشام ، قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَعْطَى
 قَلِيلًا وَأَكْدَى » . وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقيه من
 المهاجرين حين آرتد عن دينه ، وضمن له أن يتحمل عنه ما ثم رجوعه . وأصل « أَكْدَى »
 من الكُدْيَةِ يقال لمن حَفَرَ بئرًا ثم بلغ إلى حجر لا يتبها له فيه حَفَر : قد أَكْدَى ، ثم آسنه عملته
 العرب لمن أعطى ولم يُتَمِّمْ ، ولمن طلب شيئًا ولم يبلغ آخره . وقال الخطيب :
 فاعطى قليلًا ثم أَكْدَى عطاءه * ومن يَبْدُل المعروف في الناس يُجَدِّد

قال الكسائي وغيره : أَكْدَى الحافر وأَجْبَل إذا بلغ في حَفَره كُدْيَةً أو جبلاً فلا يمكنه
 أن يحفر . وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلب . ويقال : كدّيت أصابعه إذا كَلَّتْ من الحفر .
 وكَدَّيت يده إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئًا . وَأَكْدَى النَّبْتُ إذا قَلَّ رِيعُهُ ، وكَدَّتِ الأرض تَكْدُو
 كَدْوًا [وَكْدُوا] فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها ، عن أبي زيد . وَأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته
 عنه . وَأَكْدَى الرجل إذا قَلَّ خيره . وقوله : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع القليل .
 قوله تعالى : (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى) أى أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من
 أمر العذاب ؟ . « فَهُوَ يَرَى » أى يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة ، وما يكون من أمره حتى
 يضمن حمل العذاب عن غيره ، وكفى بهذا جهلاً وحمقاً . وهذه الرؤية هي المتعدية إلى
 مفعولين والمفعولان محذوفان ؛ كأنه قال : فهو يرى الغيب مثل الشهادة .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
 وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْتَ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
 إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ
 الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾

(١) في ب ، ح ، ز ، م ، ه : « إذا محلت » .

(٢) في النسخ السابقة : « وكدت يده » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف (إبراهيم الذي وفى) كما فى سورة « الأعلى » « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى ؛ كما قال : ﴿ أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخص صحف إبراهيم وموسى بالذكر ؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بحريرة أخيه وأبنه وأبيه ؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . « وأن » هذه المخففة من الثقلة وموضعها جر بدلاً من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتادة « وفى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله ، وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة « وفى » بالتشديد أى قام بجميع ما فرض عليه فلم يخرم منه شيئاً . وقد مضى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » والتوفية الإتمام . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما ادعى ؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده واثباً بذلك ؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » أى ادعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار ؛ رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه « أَلَا أَخْبَرَكُمْ لَمْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ » الذى وفى ؛ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وفى » أى وفى ما أرسل به ، وهو قوله : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، يأخذون الولي بالولي فى القتل والجراحة ؛ فيقتل الرجل بأبيه وأبنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فى قوله تعالى « وفى » : عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه . وهذا أحسن ؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وفى » بما فرض عليه . وقال أبو مالك

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٣ . (٢) فى ل : « بحريمة » . (٣) راجع ج ٢ ص ٩٨ وص ١٣٤

(٤) فى ز ، ل : « فوجد رافياً » . (٥) راجع ج ١٤ ص ١٤ .

الغفارى قوله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى »
في مصحف إبراهيم ، وموسى ، وقد مضى في آخر « الأنعام »^(١) القول في « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعالى : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » روى عن ابن عباس أنها منسوخة
بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »^(٢) فيحصل الولد
الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ، ويشفع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء ؛ يدل
على ذلك قوله تعالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا »^(٣) . وقال أكثر
أهل التأويل : هي محكمة ولا ينفع أحدا عمل أحد ، وأجمعوا أنه لا يصلى أحد عن أحد .
ولم يُجز مالك الصيام والحب والصدقة عن الميت ، إلا أنه قال : إن أوصى بالحب ومات جاز أن
يحب عنه . وأجاز الشافعى وغيره الحب التطوع عن الميت . وروى عن عائشة رضى الله عنها
أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن واعتقت عنه . وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي
صلى الله عليه وسلم : إن أمى توفيت أفأصدق عنها ؟ قال : « نعم »^(٤) قال : فأى الصدقة
أفضل ؟ قال : « سقى المساء » . وقد مضى جميع هذا مستوفى في « البقرة » و « آل عمران »^(٥)
« والأعراف » . وقد قيل : إن الله عز وجل إنما قال : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »^(٦)
ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدق
عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على
الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل . وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل
الصالح من غيره ، وقد تقدم كثير منها لمن تأملها ، وليس في الصدقة اختلاف ، كما في صدر

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٧ ر ص ٢١٥ . (٢) راجع ص ٦٦ من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ٥ ص ٧٤ . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٨٨ .

(٥) راجع ج ٤ ص ١٥١ . (٦) هكذا في الأصول ولم نعرعل هذا المعنى في السورة المذكورة .

(٧) في ب ، ج ، ز ، س ، ل وه : « فليس يجب » .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفي الصحيح : ” إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث “ وفيه ” أو ولد صالح يدعو له “ وهذا كله تفضل من الله عز وجل ، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة ؛ كما قيل لأبي هريرة : أستمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة “ فقال سمعته يقول : ” إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة “ فهذا تفضل . وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » خاص في السيئة ؛ بدليل ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” قال الله عز وجل إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة فإن عملها كتبها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبها سيئة واحدة “ . وقال أبو بكر الوراق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى ؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : ” يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم “ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ﴾ أى يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أى يجزى به ﴿ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء ، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ؛ قال الشاعر :

إِنْ أَجَرَ عَاقِمَهُ بَنَ سَعِيدٍ سَعْيِهِ * لَمْ أَجْزِهِ بِبِلَاءٍ يَوْمَ وَاحِدٍ

بجمع بين اللغتين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أى المرجع والمآب والمصير فيعاقب وينيب . وقيل : منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الأمان . وعن أبي بن كعب قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : ” لا فكرة في الرب “ . وعن أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذ ذكر الله تعالى فأنته “ .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : ” يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعِذ بالله وليتته “ وقد تقدم في آخر « الأعراف » . ولقد أحسن من قال :

ولا تُفَكِّرَنَّ في ذِي الْعُلَا عَزَّ وَجْهُ * فَإِنَّكَ تُرَدَى إِنْ فَعَلْتَ وَتُخْذَلُ
ودودك مصنوعاتِه فاعتبر بها * وقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ الْخَلِيلُ الْمُبَجَّلُ

قوله تعالى : **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** ﴿٤٣﴾ **وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ **مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى** ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** ﴾ ذهب الوسائط و بقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو ؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا والله ، ما قال رسول الله قط إن الميِّت يعذب ببكاء أحد ، ولكنه قال : ” إن الكافر يزيدُه الله ببكاء أهله عذاباً وإن الله لهو أضحك وأبكى وما ترزُرَ وأزرةٌ وزرُ أخرى “ . وعنها قالت : مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون ، فقال : ” لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً “ فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : « **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** » . فرجع إليهم فقال : ” ما خطوت أربعين خطوة حتى أنا في جبريل فقال آيت هؤلاء ، فقل لهم إن الله تعالى يقول : « **هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** » أى قضى أسباب الضحك والبكاء . وقال عطاء ابن أبي مسلم : يعنى أفرح وأحزن ؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء . وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الروامى . وقد تقدم هذا المعنى في « النمل » ^(٢) و « براءة » ^(٣) . قال الحسن :

(٢) من أفكر لفة في فكر بالتضعيف .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٤٨ .

(٤) راجع ج ٨ ص ٢١٧ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ١٧٥ .

أضحك الله أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار . وقيل : أضحك من شاء في الدنيا بأن سره وأبكى من شاء بأن غمه . الضحك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيل : أضحك الأشجار بالنور ، وأبكى السحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بسمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد بن علي الترمذي : أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا . وقال بسام بن عبد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضَحَّكَ وَالْأَحْشَاءُ تَحْتَرِقُ • وَإِنَّمَا ضَحِكُهَا زُورٌ وَمُخْتَلِقُ
يَارُبَّ بَاكِ بَعَيْنٍ لَادَمَوْعَ لَهَا • وَرُبَّ ضَاحِكٍ سَنِّ مَائِهِ رَمَقُ

وقيل : إن الله تعالى خص الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، وإيس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكي ، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة ؟ فقال : ما ضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أي قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » قاله ابن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان ؛ قال الله تعالى : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » الآية . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْعَوَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » على ما تقدم ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضلله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجوود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيا النسمة . وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء . وقيل : يريد بالحياة الحصب والموت الجذب . وقيل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات في الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ أي من أولاد آدم ولم يرد آدم وحواء بأنهما خلقا من نطفة .

والنطفة الماء القليل، مشتق من نطف الماء إذا قَطَرَ. (ثُمَّنَى) تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ وَتَرَأَى؛ قَالَ
الْبُكْبُجِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَعِطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَّاحٍ. يُقَالُ: مَنَى الرَّجُلُ وَأَمْنَى مِنَ الْمَنَى، وَسَمِيتُ مَنَى بِهَذَا
الْأَسْمِ لِمَا يُثْمَنَى فِيهَا مِنَ الدَّمَاءِ أَيْ يُرَأَى. وَقِيلَ: «ثُمَّنَى» تُقَدَّرُ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ. يُقَالُ:
مَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا قَدَّرْتَهُ، وَثُمْنِي لَهُ أَيْ قُدِّرَ لَهُ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

* حَتَّى تُلَاقِيَ مَا يَمْنِي لَكَ الْمَنَانِي *

أى ما يقدر لك القادر.

قوله تعالى: (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى) (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودًا فَآبَا
أَبْنَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢)
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ
تَتَمَارَى (٥٥)

قوله تعالى: (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى) أى إعادة الأرواح فى الأشباح للبعث .
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « النَّشْأَةَ » بفتح الشين والمسد ؛ أى وعد ذلك ووعدده صدق .
(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى) قال ابن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ؛ ثم قرأ « يَدْسُطُ الرِّزْقُ
لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » (١) وقرأ « يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » واختاره الطبري . وعن ابن زيد
أيضا ومجاهد وقتادة والحسن : « أَغْنَى » مَوْلَ « وَأَقْنَى » أَخْدَمَ . وقيل : « أَقْنَى » جعل

(١) قاله أبو قلابة الهذلى . وصدده : * ولا تقولون لشيء سوف أفعله * وقيل هو الوليد بن عامر المصطلق .
وقوله :

لأنام الموت فى حل وفى حرم * إن المنايا توافى كل إنسان
وأسلك طريقك فيها غير محتشم * حتى الخ

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٣٧

(٢) راجع ج ١٤ ص ٣٠٧

لكم قنية تفتنونها ، وهو معنى أخدم أيضا . وقيل : معناه أَرْضَى بما أعطى أى أغناه
ثم رَضَاهُ بما أعطاه ؛ قاله ابن عباس . وقال الجوهري : قَنِيَ الرجل يَقْنِي قَنًى ؛ مثل غَنَى بِغَنًى
غَنًى ، وأقناه الله أى أعطاه الله ما يُقْنِي من القنية والنَّشَب . وأقناه [الله] أيضا أى رَضَاهُ .
والقِنَى الرضا ، عن أبي زيد ؛ قال وتقول العرب : من أُعْطِيَ مائة من المعز فقد أُعْطِيَ القِنَى ،
ومن أُعْطِيَ مائة من الضأن فقد أُعْطِيَ الغنى ، ومن أُعْطِيَ مائة من الإبل فقد أُعْطِيَ المُنَى .
ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه ما يسكن إليه . وقيل : « أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أَغْنَى نفسه
وأفقر خالفه إليه ؛ قاله سليمان التيمي . وقال سفيان : أَغْنَى بالقناعة وأَقْنَى بالرضا . وقال
الأخفش : أَقْنَى أفقر . قال ابن كيسان : أولد . وهذا راجع لما تقدم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَى ﴾ « الشَّعْرَى » الكوكب المضيء الذى يطاع بعد الجوزاء ، وطلوعه فى شدة الحر ،
وهما الشَّعْرِيَّانِ العُجُورُ التى فى الجوزاء والشَّعْرَى الغَمِيضَاءُ التى فى الذراع ؛ وتزعم العرب أنهما
أختا سُهيل . وإنما ذكر أنه رَبُّ الشَّعْرَى وإن كان رباً لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبد به ،
فأعلمهم الله جل وعز أن الشَّعْرَى مربوب وليس برب . وأختلف فيمن كان يعبد به ؛ فقال
السدى : كانت تعبد به حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد
النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي صلى الله
عليه وسلم ابن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ؛ وقالوا : ما لقينا من ابن
أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف فى بعض المضايق وعساكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم تمر عليه : لقد أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أبى كبشة . وقد كان من لا يعبد الشَّعْرَى
من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مَضَى أَيْلُولٌ وَارْتَفَعَ الْحَرُّورُ * وَأُخْبِتَ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقيل : إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهيلاً والشَّعْرَى كانا زوجين ، فأنحدر سُهيل فصار
يمانياً ، فاتبعته الشَّعْرَى العُجُورُ فعبرت المجرة فسميت العُجُور ، وأقامت الغَمِيضَاءُ فبكت

لفقد سهيل حتى غمضت عيناه؛ فسميت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل نمرود . وقيل : إن نمرود من قبل عاد . وقال ابن إسحق : هما عادان فالأولى أهلك بالريح الصرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلك بالصيحة . وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى ؛ والمعنى متقارب . وقيل : إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَادًا الْأُولَى » ببيان التنوين والهمز . وقرأ نافع وابن محيصن وأبو عمرو « عَادًا الْأُولَى » بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أن قالون والسوسي يظهران الهمزة الساكنة . وقبلها الباقون وأوا على أصلها ؛ والعرب تقاب هذا القلب فتقول : قُم الآن عَنَّا وَضُمَّ لِثَنَيْنِ أَى قُم الآن وَضُمَّ الْاِثْنَيْنِ ﴿ وَنَمُودَ قَمَا أَبَقَى ﴾ نمرود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . قرئ « نَمُودًا » « وَنَمُود » وقد تقدّم . وانتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل عاد ونمرود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْنَى ﴾ وذلك لطول مدة نوح فيهم ، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : أحذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى قد مشى بى إلى هذا وقال لى مثل ماقلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : إن الكناية ترجع إلى كل من ذكر من عاد ونمرود وقوم نوح ؛ أى كانوا أكفر من مشركى العرب وأطنى . فيكون فيه تسليه وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه يقول له : فأصبر أنت أيضا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ يعنى مدائن قوم لوط عليه السلام آتفتكت بهم ، أى انقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أفكته أى قلبته وصرفته . « أَهْوَى » أى خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرد : جعلها تهوى . ويقال : هوى بالفتح يهوى هَوِيًّا أى سقط

(١) فى ب ، ح م و ه : « من نسل عاد » .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ .

و « أَهْوَى » أى أسقط . (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة ؛ قال الله تعالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ^(١) » وقيل : إن الكاية ترجع إلى جميع هذه الأمم ؛ أى غشاها من العذاب ما غشاها ، وأبهم لأن كلاً منهم أهلك بضرب غير ما أهلك به الآخر . وقيل : هذا تعظيم الأمر . (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى) أى فبأى نعم ربك تشك . والمخاطبة للإنسان المكذب . والآلاء النعم واحدها ألى وإلى وإلى . وقرأ يعقوب « تَمَارَى » بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى والتشديد .

قوله تعالى : هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْزَقَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : (هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى) قال ابن جرير ومحمد بن كعب : يريد أن هذا صلى الله عليه وسلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبله ، فإن أطمعتموه أفلحتم ، وإلا حل بكم ما حل بمكذبي الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى . وقيل : أى هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أى مثل النذر ؛ والنذر فى قول العرب بمعنى الإنذار كاللنكر بمعنى الإنكار ؛ أى هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو فى صحف إبراهيم وموسى . وقال السدى : أخبرنى أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى » كل هذه فى صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده ؛ كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا » . وقيل : سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدوا لها ؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ يَرَكَابَنَا * لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِيدَ

وفى الصحاح : أَزِفَ الترحل يَأْزِفُ أَزْفًا أى دنا وأفيد ؛ ومنه قوله تعالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » بمعنى القيامة ، وأزِفَ الرجل أى عَجَلَ فهو آزِفٌ على فاعل ، والمتأزِفُ القصير وهو المتداني . قال أبو زيد : قلت لأعرابي ما الْمُجْبَنُطِيُّ ؟ قال : الْمُتَكَاكِيُّ . قلت : ما الْمُتَكَاكِيُّ ؟ قال : المتأزِف . قلت : ما المتأزِف ؟ قال : أنت أحمق وتركنى ومرو . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدمها . وقيل : كاشفة أى أنكشاف أى لا يكشف عنها ولا يبدئها إلا الله ؛ فالكاشفة أسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء فى العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أى من بقاء . وقيل : أى لا أحد يرد ذلك ؛ أى إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى . وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردها كشفًا ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف ؛ أى نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن « كاشفة » بمعنى كاشف والهاء للبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ بمعنى القرآن . وهذا آسفهم توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيباً به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أنزجاراً وخوفاً من الوعيد . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسماً . وقال أبو هريرة : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يُلْجِ النارَ مَنْ بكى من

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله ولو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم“ . وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يبكي ، فقال له : من هذا ؟ قال : هذا فلان ، فقال جبريل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أى لا هون معرضون . عن ابن عباس ، رواه الوالي والعوفي عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حمير ، يقال : سَمَدٌ لنا أى غنٌّ لنا ، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوها . وقال الضحاك : سَامِدُونَ شائحون متكبرون . وفي الصحاح : سَمَدٌ سُوداً رفع رأسه تكبُّراً وكل رافع رأسه فهو سَامِدٌ ، قال :
* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الْأَزْوَادِ *

يقول : ليس في بطونها علف . وقال ابن الأعرابي : سَمَدَتِ سُوداً علوت . وسَمَدَتِ الْإِبِلُ في سيرها جَدَّتْ . وَالسُّمُودُ اللَّهُو ، والسَامِدُ اللَّاهِي ، يقال للْقَيْنَةِ : أَسْمِدِينَا ، أى ألهينا بالغناء . وتسميد الأرض أن يجعل فيها السباد وهو سرجين ورَمَاد . وتسميد الرأس استئصال شعره ، لغة في التَّسْيِدِ . وَأَسْمَدَ الرجل بالهمز أَسْمَدَادًا أى ورم غضباً . وروى عن علي رضي الله عنه أن معنى « سَامِدُونَ » أن يجلسوا غير مصابين ولا منتظرين الصلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام ، ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال : ” مالى أراكم سَامِدِينَ “ حكاه الماوردي . وذكره المهدوي عن علي ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً [ينتظرونه] فقال : ” ما ليكم سَامِدُونَ “ قاله المهدوي . والمعروف في اللغة : سَمَدٌ يَسْمُدُ سُوداً إذا لَهَا وَأَعْرَضَ . وقال المبرد : سَامِدُونَ خَامِدُونَ ، قال الشاعر :

أَتَى الْحِدَنَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ * بِمَقْدُورٍ سَمَدُنْ لَهُ سُوداً

وقال صالح أبو الخليل : لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « أَقِمْنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجِبُونَ . وَتَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » لم ير ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعالى : (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن . وهو قول ابن مسعود . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » وأنه قال : تلك الغرائيق العلاء وشفاعتهن ترتجي . كذا في رواية سعيد بن جبيرة ترتجي . وفي رواية أبي العالية وشفاعتهن ترتضى ، ومثلهن لا ينسى . ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ما تقدم بيانه في « الحج »^(١) . فلما بلغ الخبر بالحبشة من كان بها من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجعوا ظناً منهم أن أهل مكة آمنوا ؛ فكان أهل مكة أشد عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم . وقيل : المراد بسجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عرائم السجود . وبه قال مالك . وروى أبي بن كعب رضى الله عنه : كان آخر فعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصل . والأول أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »^(٢) مبيناً والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « والنجم » .

(١) هذه الأخبار من المقتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضمنه الملاحدة للدخول به إلى العلم في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو في الوحي أو في القرآن وهو الذي لا ينطق عن الهوى . راجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث في ج ١٢ ص ٨٠ .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٧ .

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور . وقال مقاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى :
 « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ » إلى قوله : « وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ » ولا يصح على ما يأتي .
 وهي خمس وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنَشَقُّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا
 سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ
 الْتَذَرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِرٍ ۝ خُشَعًا
 أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۝ مُهْطِعِينَ إِلَى
 الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝

قوله تعالى : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنَشَقُّ الْقَمَرُ » أي قربت مثل
 أَرَفَتِ الْأَافِقُ^(١) على ما بيناه . فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا
 كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس
 تغيب فقال : « ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى » وما نرى
 من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا سنة آلاف سنة . قال وهب : قد مضى
 منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعالى : « وَآنَشَقُّ الْقَمَرُ » أي وقد آتش القمر . وكذا قرأ حذيفة « أَقْتَرَبَتِ
 السَّاعَةُ وَقَدْ آنَشَقُّ الْقَمَرُ » بزيادة « قد » وعلى هذا الجمهور من العلماء ؛ ثبت ذلك في صحيح

البخارى وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضى الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية ، فَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَتَزَلَّتْ : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » إلى قوله : « سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخارى عن أنس قال : أَنْشَقَ الْقَمَرُ فَرَقَتَيْنِ . وقال قوم : لم يقع آنشقاق القمر بعد وهو منتظر ؛ أى أقترب قيام الساعة وأنشقاق القمر ؛ وأن الساعة إذا قامت آنشقت السماء بها فيها من القمر وغيره . وكذا قال الفشيرى . وذكر الماوردى : أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا آنشق ما بقى أحد إلا رآه ؛ لأنه آية والناس فى الآيات سواء . وقال الحسن : أقتربت الساعة فإذا جاءت آنشق القمر بعد النفخة الثانية . وقيل : « وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » أى وضع الأمر وظهره ؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وَصَحَ ؛ قال :

أَقِمْـوْا بَنِي أُمِّ صُدُورٍ مَطِيئَكُمْ * فَإِنِّى إِلَى حَىِّ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ
فَقَدْ حَمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقِمَّرٌ * وَشُدَّتْ لَطِيَّاتُ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

وقيل : آنشقاق القمر هو آنشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها ، كما يسمى الصبح فلقاً ؛ لأنفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن آنفلاقه بآنشقاقه كما قال النابغة :

فَلَمَّا أَذْبَرُوا وَلَهُمْ دَوَى * دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعٍ

قلت : وقد ثبت بنقل الأحاد العدول أن القمر آنشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فيها ؛ لأنها كانت آية ليلية ؛ وأنها كانت باستدعاء النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التحدى . فروى أن حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سب أبى جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً فى إيمانه . وقد تقدم فى الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم آنشقاق القمر فلفقتين كما فى حديث ابن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد أقتربت ، وأن القمر قد آنشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : هو على

(١) فى تفسير الجلال نقلاً عن القرطبي : « زوال الظلمة » .

التقديم والتأخير ، وتقديره أنشق القمر وأقتربت الساعة ؛ قاله ابن كيسان . وقد مرّ عن الفراء أن الفعلين إذا كانا متقاربين المعنى فلك أن تقدم وتؤخر عند قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ^(١) » .

قوله تعالى : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا) هذا يدل على أنهم رأوا أنشقاق القمر . قال ابن عباس : أجمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إن كنت صادقاً فأنشق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبي قبيس ونصف على قبيصان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فعلت تؤمنون » قالوا : نعم ؟ وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا ؛ فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى المشركين : « يا فلان يا فلان أشهدوا » . وفي حديث ابن مسعود : أنشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قریش : هذا من سحر ابن أبي كبشة ؛ سحرهم فأسألو السُّفَّار ؛ فسألوه فقالوا : قد رأينا القمر أنشق فتزلت : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا » أى إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضوا عن الإيمان (وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْمَرٌ) أى ذاهب ؛ من قولهم : مرّ الشيء واستمر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة ، وأختره النحاس . وقال أبو العالبة والضحاك : محكم قوى شديد ، وهو من الميرة وهى القوة ؛ كما قال لقيط :

حتى استمرت على شزير مريته * مرّ العزيمة لا [حما] ولا ضرعاً ^(٢)

وقال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدة فتله . وقيل : معناه مرّ من المارة . يقال : أمرّ الشيء صار مرّاً ، وكذلك مرّ الشيء [يمرّ] بالفتح مرادة فهو مرّ ، وأمرّه غيره ومـره . وقال الربيع : مستمر نافذ . يمان : باض . أبو عبيدة : باطل . وقيل : دائم . قال :

* وليس على شيء قويم مستمر *

(١) راجع ص ٨٩ من هذا الجزء . (٢) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء في شرح البيت .

(٣) البيت لأمرئ القيس وصدره : * ألا إنما الدنيا لبال وأعصر *

أى بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضاً ؛ أى قد استمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتى بشيء له حقيقة بل الجميع تخيلات . وقيل : معناه قد مر من الأرض إلى السماء . (وَكَذَّبُوا)
 نبينا (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أى ضلالتهم واختياراتهم . (وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ) أى يستقر بكل
 عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله فى الجنة ، والشر مستقر بأهله فى النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَرٌّ » بفتح القاف ؛ أى لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر .
 وقد روى عن أبى جعفر بن القعقاع « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ » بكسر القاف والراء جعله نعماً لأمر
 و « كُلُّ » على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر
 فى أم الكتاب كائن . ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة ؛ المعنى : أقربت الساعة
 وكل أمر مستقر ؛ أى أقرب استقرار الأمور يوم القيامة . ومن رفعه جعله خبراً عن
 « كُلِّ » .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ) أى من بعض الأنبياء ؛ فذكر سبحانه من ذلك
 ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنما
 أقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ
 جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية (مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)
 أى ما يزرعهم عن الكفر لو قبلوه ، وأصله مُزْدَجَرٌ فقامت التاء دالاً ؛ لأن التاء حرف مهموس
 والزاي حرف مجهور ، فأبدل من التاء دالاً لتوافقها فى المخرج وتوافق الزاي فى الجهر .
 و « مُزْدَجَرٌ » من الزجر وهو الانتهاء ، يقال : زجره وأزجره فأنزجر وأزدجر ، وزجرته أنا
 فأنزجر أى كففته فكف ، كما قال :

فأصبح ما يطلب الغانيا * ت مُزْدَجَرًا عن هواه أزدجارا

وقرى « مُزْدَجَرٌ » بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها ؛ حكاه الزمخشري .

(حِكْمَةٌ بِاللَّغَةِ) يعنى القرآن وهو بدل من « ما » من قوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » .
 ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أى هو حكمة . (فَمَا تُغْنِ النَّسْرُ)

إذا كذبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » ^(١) فـ «مَا» نفى أى ليست تغنى عنهم النذر . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ ؛ أى فأى شئ تغنى النذر عنهم وهم معرضون عنها . و «النُّذُرُ» يجوز أن تكون بمعنى الإنذار ، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عنهم . قيل : هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » العامل فى « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أو « خُشَعًا » أو فعل مضمر تقديره وأذكري يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتول عنهم فإن لهم يوم يدعوا الداعى . وقيل : تول عنهم يا محمد فقد أمت الحجة وأبصرهم يوم يدعوا الداعى . وقيل : أى أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم ، فإنهم يدعون « إِلَى شَيْءٍ نُكِرٍ » وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيل : أى وكل أمر مستقر يوم يدعوا الداعى . وقرأ ابن كثير « نُكِرٍ » بإسكان الكاف ، وضمها الباقيون وهما لفتان كعسر وعسر وشغل وشغل ، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة . والداعى هو إسرائيل عليه السلام . وقد روى عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا « إِلَى شَيْءٍ نُكِرٍ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . « خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ » الخشوع فى البصر الخشوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ » ^(٢) وقال تعالى : « خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » ^(٣) . ويقال : خَشَعَ وَخَشَعَ إِذَا ذَلَّ . وخَشَعَ ببصره أى غَضَهُ . وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز فى أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد ، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » ^(٤) والتأنيث نحو : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » ^(٥) ويجوز الجمع نحو : « خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ » ^(٥) قال : وَشَبَابٍ حَسَنِ أَوْجُهُهُمْ * مِنْ إِيَادِ بْنِ زِرَارِ بْنِ مَعْدٍ

(١) راجع ج ٨ ص ٣٨٦ (٢) راجع ج ١٩ ص ١٩٤ (٣) راجع ج ١٥ ص ٤٥

(٤) راجع ج ١٨ ص ٢٤٨ (٥) هو الحرث بن دوس الإباضى ، ويرى لأبى ذؤاد الإباضى .

و « خُشَعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الماء والميم في « عَنْهُمْ » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عَنْهُمْ » . ويجوز أن يكون حالا من المضمرة في « يَخْرُجُونَ » فيوقف على « عَنْهُمْ » . وقرئ « خُشَعٌ أَبْصَارُهُمْ » على الابتداء والخبر ، ومحل الجملة النصب على الحال ، كقوله :

* [وجدته ^(١) حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ] *

(يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ) أى القبور واحداها جدث . (كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ) . وقال في موضع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ^(٢) » فهما صفتان في وقتين مختلفين ؛ أحدهما - عند الخروج من القبور ، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم في بعض ؛ فهم حينئذ كالفراش المبعوث بعضها في بعض لاجهة له يقصدها [الثانى ^(٣)] - فإذا سمعوا المنادى قصده فصاروا كالجراد المنتشر ؛ لأن الجراد له جهة يقصدها . و « مُهْطِعِينَ » معناه مسرعين ؛ قاله أبو عبيدة . ومنه قول الشاعر :

بِدِجْلَةٍ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ * بِدِجْلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمْعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَعَ الرجلُ هُطُوعًا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ؛ وأهطع إذا مدَّ عنقه وصوب رأسه . قال الشاعر ^(٤) :

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى * وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعٌ

وبعير مُهْطِعٌ : فى عنقه تصويبٌ خَلْقَةً . وأهطع فى عذوه أى أسرع . (يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ) يعنى يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدة .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين . (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٦٥ .

(٣) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره . (٤) فى اللسان : « أهلها » .

(٥) فائله تبع .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدِجَارٌ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ
بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَجَحَرْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ
لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية أنبيسا
للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أى قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعنى
نوحا . الزمخشري : فإن قلت ما معنى قوله : « فَكَذَّبُوا » بعد قوله : « كَذَّبَتْ » ؟ قلت : معناه
كذبوا فكذبوا عبدنا ؛ أى كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قرن مكذب
تبعه قرن مكذب ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ؛ أى لما كانوا مكذبين بالرسل
جاحدين للنبوة رأسا كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى هو مجنون
﴿ وَأَزْدِجَارٌ ﴾ أى زجر عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَأَزْدِجَارٌ »
بلفظ مالم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أى دعا عليهم حينئذ نوح وقال : رَبِّ
﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ أى غلبوني بتمردهم ﴿ فَأَنْتَصِرْ ﴾ أى فانتصرلى . وقيل : إن الأنبياء كانوا
لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾
أى فأجبنا دعاءه وأمرناه بالتخاض السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أى كثير ؛
قاله السدى . قال الشاعر :

أعني جودا بالدموع الهوامر * على خير باد من معد وحاضر

وقيل : إنه المنصب المتدفق ؛ ومنه قول امرئ القيس يصف غيثا :

رَاحَ تَمْرِ يَهُ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى * فِيهِ شُؤْبُوبٌ جَنُوبٌ مِنْهُمْ^(١)

الهمر الصب ؛ وقد همر الماء والدمع يهمر همرًا . وهمر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع .
 وهمر له من ماله أى أعطاه . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء^(٢) [منهمر] من غير سحب
 لم يقلع أربعين يوما . وقرأ ابن عامر ويعقوب : « فَفَتَحْنَا » مشددة على التكثير . الباقون
 « فَفَتَحْنَا » مخففا . ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها . وقيل : إنه المجتره وهى شرج
 السماء ومنها فتحت بماء منهمر ؛ قاله على رضى الله عنه . (وَخَرَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) قال عبيد
 ابن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون ، وإن عينا تأخرت فغضب
 عليها فجعل ماءها مراً أجاباً إلى يوم القيامة . (فَالْتَقَى الْمَاءُ) أى ماء السماء وماء الأرض
 (عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ) أى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ابن قتيبة . أى كان ماء
 السماء والأرض سواء . وقيل : « قَدَرٌ » بمعنى قضى عليهم . قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا
 أن يفرقوا . وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء ؛
 ونلا هذه الآية . وقال : « الْتَقَى الْمَاءُ » والالتقاء إنما يكون فى اثنين فصاعداً ؛ لأن الماء
 يكون جمعا وواحدا . وقيل : لأنهما لما اجتمعا صارا ماء واحدا . وقرأ الجحدري : « فَالْتَقَى
 الْمَاءَانِ » . وقرأ الحسن : « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهما خلاف المرسوم . القشيري :
 وفى بعض المصاحف « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهى لغة طيية . وقيل : كان ماء السماء بارداً مثل
 الثلج وماء الأرض حاراً مثل الحميم . (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ) أى على سفينة ذات ألواح .
 (وَدُسِرَ) قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسرَت بها السفينة أى شدت ؛ وقاله القرطبي
 وابن زيد وابن جبير ، ورواه الوالى عن ابن عباس . وقال الحسن وشهر بن حوشب
 وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج سُميت بذلك لأنها تدُسُّ الماء أى تدفعه ،
 والدُسُّ الدفع والمخَرُّ ؛ ورواه العوفي عن ابن عباس قال : الدُسُّ كلُّكَلِ السفينة^(٣) .

(١) راح : أى عاد فى الرواح ؛ كأن المطر كان فى أول النهار ثم عاد فى آخره . وتمريه : تسندزه ، وأصله من

مرى الضرع وهو مسحه ليدر . والشؤبوب : الدفعة من المطر . وخص الصبا لأنهم يمتطرون بها .

(٢) الزيادة من ط . (٣) الكلكل : الصدر .

وقال الليث : الدَّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة . وفي الصحاح : الدَّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال : هي المسامير ، وقال تعالى : « عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ » . ودُسُر أيضا مثل عُسر وعُسُر . والدُّسر الدفع ؛ قال ابن عباس في العنبر : إنما هو شيء يَدُسُّره البحر دَسْرًا أى يدفعه . ودَسَره بالرح . ورجل مَدْسِر . (تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا) (١) أى بمرأى منا . وقيل : بأمرنا . وقيل : بحفظ منا وكَلَاءة : وقد مضى فى « هود » . ومنه قول الناس للودَّع : عين الله عليك ؛ أى حفظه وكَلَاءته . وقيل : بِوَحِينَا . وقيل : أى بالأعين التابعة من الأرض . وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه . وقيل : أى تجرى بأوليائنا ، كما فى الخبر : مرض عين من عيوننا فلم تعد . (جَزَاءٌ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا) أى جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به ؛ فاللام فى « لِمَنْ » لام المفعول له ؛ وقيل : « كُفِرًا » أى جحد ؛ فـ « مَنْ » كناية عن نوح . وقيل : كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب ؛ أى عقابا لكفرهم بالله تعالى . وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحيد « جَزَاءٌ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا » بفتح الكاف (٢) والفاء بمعنى : كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله ، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق ؛ كان الماء إلى مُجْزئته . وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها ، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك ، ونجا من الغرق . (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً) يريد هذه الفعلة عبرة . وقيل : أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل . قال قتادة : أبقاها الله بباقردى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة ، ولم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا . (فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ) مُتَعَطِّ خائف ، وأصله مُدْتَكِرٌ مُفْتَعِلٌ من الذكر ، فتنقأت على الألسنة فقلبت التاء دالا لتوافق الذال فى الجهر وأدغمت الذال فيها . (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي) أى إنذارى ؛

(١) راجع ج ٩ ص ٣٠ .

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب الفاءوس هو ابن عوق لاعتق .

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نَذَر » جمع نَذِير ونَذِير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيأناه للذكر [مأخوذ ^(١)] من يَسَّر ناقله للسفر : إذا رحلها ، وَيَسَّر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وَمُنْتُ إِلَيْهِ بِالْجَمِّ مُبَسَّرًا * هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبني إسرائيل ، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرا ، غير موسى وهرون ويوشع ابن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك آفتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ما تقدم بيانه في سورة « براءة ^(٢) » فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكروا ما فيه ؛ أى يفتعلوا الذكر ، والافتعال هو أن يجمع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ فارى يقرؤه . وقال أبو بكر الوراق : وابن شاذب : فهل من طالب خير وعلم فيعان عليه ، وكرر في هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعالى أقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبي أمورهم وأمور المرسلين ؛ فكان في كل قصة ونبا ذكر للمستمع أن لو أذكر ، وإنما كثر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ » لأن « هل » كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هل » الاستعراض والهاء للاستخراج .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانِهِمْ أَجْجَارًا تَجَلَّيْثًا مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي . (٢) راجع ج ٨ ص ١١٧ .

(٣) في ط ، ل : المسلمين ، وما أثبتناه في أ وب وج وه . (٤) في : « للاستغراق » .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ﴾ . (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي) وقعت « نُذْرِي » في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة في الحاليين ، وورث في الوصل لا غير ، وحذف الباقيون . ولا خلاف في حذف الياء من قوله : « فَمَا تُنْعِنِ النُّذْرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما الياء من « الدَّاعِ » الأول فأثبتها في الحاليين ابن محيصن ويعقوب وحميد والبرقي ، وأثبتها ورث وأبو عمرو في الوصل ، وحذف الباقيون . وأما « الدَّاعِ » الثانية فأثبتها يعقوب وابن محيصن وابن كثير في الحاليين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل ، وحذفها الباقيون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أى شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت . وقد مضى في « حم السجدة » . (فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) أى في يوم كان مشئوما عليهم . وقال ابن عباس : أى في يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل في يوم الأربعاء . ابن عباس : كان آخر الأربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحْسٍ » بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة « فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » . و « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ » أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : استمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المارة ؛ يقال : مُرُّ الشيء وأمرُّ أى كان كالشيء المتركه الفموس . وقد قال : « فَدُوْقُوا » والذي يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المرة بمعنى القوة . أى في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم القتل الذي لا يطاق تقضيه . فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم استجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى في « البقرة » حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضى باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر »

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٤٧ .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣١٣ .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين^(١) ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين ؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن ؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة أستجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحسا على الظالم ؛ ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار ، وقول جابر في حديثه « لم ينزل بي أمر غليظ » إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ في موضع الصفة للريح أى تَقْلَعُهُمْ من مواضعهم . قيل : قلعته من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رؤوسهم فتندق أعناقهم وتبين رؤوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنتزعت الريح الناس من قبورهم » . وقيل : حفروا حُفَرًا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل [قد^(٢)] هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقورة . ويروى أن سبعة منهم حفروا حُفَرًا وقاموا فيها ليردوا الريح . قال ابن إسحق : لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهلقام وأبنا يقن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال في شعب بين جبلين ، ثم أصطفوا على باب الشعب ليردوا الريح عن في الشعب من العيال ، فجعلت الريح^(٣) تجعفهم رجلاً رجلاً ، فقالت امرأة من عاد :

ذهب الدهرُ بعمرِ وب * من حليّ والهنّيات

ثم بالحرث والهل * مقام طلائع الثنّيات

والذى سدّ مهبّ الر * يح أيام البليّات

(١) في : « المصلحين » . (٢) زيادة من ي .

(٣) جعفه : صرعه وضرب به الأرض .

الطبرى: في الكلام حذف ، والمعنى تنزع الناس فتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر ؛
فالكاف في موضع نصب بالمحذوف . الزجاج : الكاف في موضع نصب على الحال ، والمعنى
تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيل إنه للمحفر التي كانوا فيها . والأعجاز جمع عَجَزٍ
وهو مؤنر الشيء ، وكانت عاد موصوفين بطول القامة ، فُشِّهوا بالنخل أنكبت لوجوهها .
وقال : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكر ويؤنث . والمنقعر : المتقطع
من أصله ؛ فعمرت الشجرة فعراً قلعتها من أصلها فأفقرت . الكسائي : فعمرت البئر أى نزلت
حتى انتهت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى انتهت إلى قعره . وأفقرت
البئر جعلت لها قعراً . وقال أبو بكر بن الأنباري : سئل المبرد بحضرة إسماعيل القاضي عن
ألف مسألة هذه من جملتها ، فقبل له : ما الفرق بين قوله تعالى : « وَلَسْلَيْمَانُ الرِّيحَ عَاصِفَةً »^(١)
و « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » ، وقوله : « كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ » و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » ؟^(٢)
فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً ، أو إلى المعنى تأنيساً .
وقيل : إن النخل والنخيل بمعنى يذكر ويؤنث كما ذكرنا . (فَكَيْفَ كَانَ مَذَابِي وَنُذِرِ .
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ) [تقدم] .^(٣)

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا
نَّتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبههم ، أو كذبوا
بالآيات التي هي النذر (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) وندع جماعة . وقرأ أبو الأئهب
وآبن السَّمِيعِ وأبو السَّمَالِ العدوي « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتداء والخبر
« نَّتَّبِعُهُ » . الباقر بالنصب على معنى أتبع بشراً منا واحداً نتبعه . وقرأ أبو السَّمَالِ :^(٤)

(١) راجع ج ١١ ص ٣٢١ . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٢٥ . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٦١ .

(٤) من ب ، ي . (٥) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في «روح المعاني» وغيره . وفي ب ، ز ، ول .

« أبو السمال » بالكاف وليس بصحيح .

« أَبْشَرُ » بالرفع « مِنَّا وَاحِدًا » بالنصب ، رفع « أَبْشَرُ » بإضمار فعل يدل عليه « أَوْلَانِي » كأنه قال : أينبأ بشر منّا ، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمرفي « مِنَّا » والناصب له الظرف ، والتقدير أينبأ بشركائن منّا منفردًا ؛ ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في « تَتَّبِعُهُ » منفرداً لا ناصر له . (إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ) أى ذهاب عن الصواب (وَسُعْرٍ) أى جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ذكره ابن عباس . قال الشاعر يصف ناقته :

تَخَالُ بِهَا سَعْرًا إِذَا السُّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ وَإِقَاعٌ مِنَ السَّيْرِ مُتَعِبٌ

[الذميل ضرب من سير الإبل . قال أبو عبيد : إذا ارتفع السير عن العنق قليلاً فهو التَّيْدُ ، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل ، ثم الرسيم ؛ يقال : ذَمَلٌ يَذْمُلُ وَيَذْمِلُ ذَمِيلًا . قال الأصمعي : ولا يَذْمُلُ بعير يوماً وليلة إلا مَهْرِيٌّ قاله ج] . وقال ابن عباس أيضاً : الشعر العذاب ، وقاله الفراء . مجاهد : بعد الحق . السدى : فى أحترق . قال :

أَصْحَوْتَ الْيَوْمَ أَمْ شَاقَتَكَ هَزُّ * وَمِنْ الْحُبِّ جُنُوبٌ مُسْتَعِرٌ

أى متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو طيب النار . والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتهلب به من الحدة . ومعنى الآية : إِنَّا إِذَا لَفِئَ شَقَاءٌ وَعَنَاءٌ مَّا يَلْزَمُنَا . قوله تعالى : (أَوْلَانِي الَّذِي كُرِّ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا) أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار . (بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ) أى ليس كما يدعيه ، وإنما يريد أن يتعاطم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق . والأشَرُّ المَرَحَ والتَّجَبُّرُ والنشاط . يقال : فرس أشر إذا كان مرحاً نشيطاً ؛ قال امرؤ القيس يصف كلباً :

فِي دَرَكِنَا قِفْمٌ دَاجِنٌ * سَمِيعٌ بِصَيْرٍ طَلُوبٌ نَكِرٌ
أَلْسُ الضُّرُوسِ حَنِيٌّ الضُّلُوعِ * تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشَرٌ

(١) زيادة من ب ، ه . (٢) هو طرفة . (٣) فى ١ ، ز ، ل : السعير . (٤) القفم : المولع بالصيد الحر يص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أى متكر عالم . وقبل نكر أى كره الصورة . (٥) الألس الذى النصفت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل: «أَشْرُ» بَطَر . وَالْأَشْرُ الْبَطَرُ ؛ قال الشاعر :

أَشْرُتُمْ بِلُبْسِ الْحَزِّ لَمَّا لَبِستُمْ * وَمِنْ قَبْلُ مَا تَدْرُونَ مَنْ فَتَحَ الْقُرَى

وقد أَشْرَ بالكسر يَأْشُرُ أَشْرًا فهو أَشِيرٌ وَأَشْرَانُ ، وقوم أَشَارَى مثل سَكْرَانٍ وَسُكَّارَى ؛ قال الشاعر ^(١) :

وَحَلَّتْ وُعُولًا أَشَارَى بِهَا * وَقَدْ أَزْهَفَ الطُّعْنُ أَبْطَاهَا

وقيل : إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها ، والمعنى واحد . وقال ابن زيد وعبد الرحمن ابن حماد : الأَشْرُ الذي لا يبالي ما قال . وقرأ أبو جعفر وأبو قلابة « أَشْرُ » بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أَشْرْنَا وأخْبَدْنَا . (سَيَعْلَمُونَ غَدًا) أى سيرون العذاب يوم القيامة ، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا . وقرأ ابن عامر وحزمة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب . الباؤون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم . وقوله : « غَدًا » على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب : إن مع اليوم غدا ؛ قال :

لِلْمَوْتِ فِيهَا سِهَامٌ غَيْرُ مُحْطَئَةٍ * مَنْ لَمْ يَكُنْ مَيِّتًا فِي الْيَوْمِ مَاتَ غَدًا

وقال الطرمي :

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ نَوْجِ النَّوَائِحِ * وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَائِحِ

وقبل غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ * إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَاحٍ

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غدا بعينه . (مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ) وقرأ أبو قلابة « الْأَشْرُ » بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل . قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأشْر والأخير إلا فى ضرورة الشعر ؛ كقول رؤبة :

* بِلَالٍ خَيْرُ النَّاسِ وَأَبْنُ الْأَخِيرِ *

(١) هي مية بنت ضرار الغنبي ترى أخاها . وأزهف الطعن أبطلها أى مرعها . وقبل البيت :

تراه على الخبييل ذا غدمة * إذا سربل الدم أكفأها

وإنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»^(١) وقال: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا»^(٢). وعن أبي حنيفة بفتح الشين وتخفيف الراء . وعن مجاهد وسعيد بن جبيرة ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى «الأشر» ومثله رجل حذر وحذر .

قوله تعالى: **إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ** ﴿٢٧﴾ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ** ﴿٢٨﴾ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ** ﴿٢٩﴾ **فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ** ﴿٣٠﴾ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ** ﴿٣١﴾ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ** ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: **(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ)** أى مخرجوها من الهضبة التى سألوها، فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التى عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عسراء [وبراء]^(٣). **(فِتْنَةً لَهُمْ)** أى اختبارا وهو مفعول له . **(فَأَرْتَقِبْهُمْ)** أى أنتظر ما يصنعون . **(وَأَصْطَبِرْ)** أى أصبر على أذاهم ، وأصل الطاء فى أصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد فى الإطباق . **(وَنَبِّئْهُمْ)** : أى أخبرهم **(أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ)** أى بين آل ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: **«لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»**^(٤) . قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا فى نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا . وإنما قال: **«بَيْنَهُمْ»** لأن العرب إذا أخبروا عن بنى آدم مع البهائم غلبوا بنى آدم . وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر فى مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك ، قال: **«أياها الناس لا تسألوا فى هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل**

(١) راجع ج ٤ ص ١٧٠ . (٢) راجع ج ١١ ص ١٤٤ .

(٣) فى الأصول جرداء، والذي فى قصص الأنبياء للعلامة وغيره من كتب التفسير «وبراء» فلذا أثبتناه .

(٤) راجع ج ١٣ ص ١٢٧ .

إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحبسون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غيبها وهو معنى قوله تعالى : « وَبَيَّنُّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » .
 ﴿ كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشرب - بالكسر - الحظ من الماء ؛ وفي المثل : (آخرها أقلها شرباً)
 وأصله في سقى الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نَزِفَ الحوض . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضره
 من هو له ؛ فالناقة تحضر الماء يوم وردها ، وتغيب عنهم يوم وردهم ؛ قاله مقاتل . وقال
 مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم غيبها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحض على عقرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَمَّرَ ﴾ ها
 ومعنى تعاطى تناول الفعل ؛ من قولهم : عَطَوْتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسان :

كَلَّتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطَيْنِي * بزجاجة أرخاهما للمفصل

قال محمد بن إسحق : فكمن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة
 ساقها ، ثم شدد عليها بالسيف فكشف عرقوبها ، فخرت ورغت رغاءً واحدة تحذر سقها
 من بطنها ثم نحرها ، وأنطلق سقها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأنام صالح
 عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عقرت بكى وقال : قد آنتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب
 الله . وقد مضى فى « الأعراف »^(١) بيان هذا المعنى . قال ابن عباس : وكان الذى عقرها أحر
 أزرق أشقرا كشف أفضى . ويقال فى اسمه قُدَار بن سالف . وقال الأوفى الأودى :

أَوْ قَبْلَهُ كَقُدَارٍ حِينَ تَابَعَهُ * على الغواية أقوامٌ فقد بادوا

والعرب تسمى الجزار قُدَاراً تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشثوم آل ثمود ؛ قال مهامل :

إِنَّا لَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ رُءُوسَهُمْ * ضَرْبَ الْقُدَارِ نَقِيعَةَ الْقَدَامِ^(٢)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤١ . (٢) الذى فى شعراء النصرانية : « أوبعده » .

(٣) القدار : الجزار . والنقعة : ما يجر للضيافة . والقدام : القادعون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام

الملك . ويروى : * إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذکره زهير فقال :

فَتَنْتِجَ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشَامَ كُلُّهُمْ * كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضَعُ فَتَقْطِمُ^(١)

يريد الحرب ؛ فكُنِيَ عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبِيحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صبيحة جبريل عليه السلام ، وقد مضى في « هود » . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المحتظر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفي الصحاح : والمحتظر الذي يعمل الحظيرة . وقرئ « كهشيم المحتظر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحة جعله المفعول به . ويقال للرجل القليل الخير : إِنَّهُ لَنَكِيدُ الْحَظِيرَةَ . قال أبو عبيد : أراه سمي أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوى : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر ، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أَثَرُنَ عَجَاجَةً كَدَخَانٍ نَارٍ * تَشَبَّ بِغَرْقَدٍ بَالٍ هَشِيمٍ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح . وقال سفيان الثوري : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا ، وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشياً . والحظر المنع ، والمحتظر المفتحل يقال منه : أحترظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جَيْفَ الْمِطْيِ بِجَانِبِهِ * كَأَنَّ عِظَامَهَا خَشَبُ الْهَشِيمِ

(١) تنتج لكم بمعنى الحرب . « غلمان أشام » في معنى غلمان شوم أو كلهم في الشوم كأحره عَاد . « ثم ترضع فتقطم » يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم قطمت فقد تمت .

(٢) راجع ج ٩ ص ٦١ .

وعن ابن عباس : أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم ، فالمحظطر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه ، والهشم فئات السنبلة والتبن . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لما كذبوا الوطا . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحصباء ؛ قال أيب :

جَرَتْ عَلَيْهَا أَنْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا * أَذْيَالَهَا كُلُّ عَصُوفٍ حَصْبَةً

عصفت الريح أى أشتدت فهى ريح عاصف وعصوف . وقال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضرِبُنَا * بحاصب كنديف القطن منشور

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ، ولو أراد سحر يوم بعينه لما أجراه ، ونظيره : « أَهَيُّطُوا مِصْرًا » لما أنكره ، فلما عترفه فى قوله : « آذْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » لم يُجْهِرْهُ ، وكذا قال الزجاج : « سحر » إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف ، تقول أتيته سحراً ، فإذا أردت سحر يومك

لم تصرفه ، تقول : أتيتته سحرًا هذا ، وأتيتته بسحر . والسَّحَرُ : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ؛ لأن في هذا الوقت يكون مخايل الليل ومخايل النهار . (نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدَنَا) إنعاماً منا على لوط وأبنتيه ؛ فهو نصَّب لأنه مفعول به . (كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) أى من آمن بالله وأطاعه . (وَلَقَدْ أَنْذَرُهُمْ) يعنى لوطاً خوْفَهُمْ (بَطَشْنَا) عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب (فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أى شكوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه ، وهو تفاعل من المِرية . (وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ) أى أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدم . يقال : راودته على كذا مُرَادَةً وِرَوَادًا أى أردته . وراد الكلاً يروده رَوْدًا وريادًا ، وأراده آرتيادًا بمعنى أى طلبه ؛ وفي الحديث : " إذا بال أحدكم فليتردد ليلوله " أى يطلب مكاناً ليناً أو منهدراً . (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعموا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : لا ، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت ف أين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم . (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) أى قلنا لهم ذوقوا ، والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أى فاذقتم عذابي الذى أنذرهم به لوط . (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ) أى دائم عام استقر فيهم حتى يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العذاب قلب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) العذاب الذى نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذى أهلكوا به فلذلك حسن التكرير . (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) [تقدم]^(٢) قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا كُلَّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴾ (يعنى القبط و « النذر » موسى وهرون . وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهى العصا ، واليد ، والسنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النذر » الرسل ؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيل : « النذر » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَيْنٍ ﴾ أى غالب فى انتقامه ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أى قادر على ما أراد .

قوله تعالى : أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
 أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾
 بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ ﴾ خاطب العرب . وقيل : أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : استفهام ، وهو استفهام إنكار ومعناه النفى ؛ أى ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى فى الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ابن عباس : أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ، ولم يقل منتصرين أتباعاً لرؤوس الآى ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أى جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رؤيس عن يعقوب « سَنُهْزَمُ » بالنون وكسر الزاى « الْجَمْعُ » نصباً . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وأبن إسحق ورؤيس عن يعقوب « وَيُوَلُّونَ » بالناء على الخطاب . و « الدُّبُرُ » أسم جنس كالدرهم

والدينار فوحد والمراد الجمع لأجل رءوس الآي . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فقتلهم من الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من عهد وأصحابه ؛ فأنزل الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » . وقال سعيد بن جبيرة قال سعد بن أبي وقاص : لما نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » كنت لا أدري أى الجمع ينهزم ، فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقب في الدرع ويقول : اللهم إن قريشاً جاءتك تُحَادِّثُكَ وتُحَادِّثُ رَسُولَكَ بفخرها و [خِيَلَانُهَا]^(١) فأخبرهم الغداة — ثم قال — « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أخنى عليه الدهر : أى أتى عليه وأهلكه ، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عَلَيْهِ الذِّى أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ *

وأخنيت عليه : أفسدت . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هذا مكية . وفي البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ » . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : « أَنَشِدُكَ عَهْدَكَ وَعَهْدَكَ اللَّهُمَّ إِن شئت لم تُعَبِّدْ بعدَ اليوم أبداً » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو في الدرع نفرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . « وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ » أى أذى وأمر مما لحقهم يوم بدر . و « أَذَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهاً ودهياً . وقال ابن السكيت : دهنه داهية دهاً ودهياً وهى توكيد لها .

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام .

قوله تعالى : **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾**

قوله تعالى : **(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)** فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ »** أى فى حَبْذٍ عَنِ الْحَقِّ وَ « سُعُرٍ » أى أَحْتِرَاقٌ . وَقِيلَ : جَنُونَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَدَرِ فَتَلَّتْ : **(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : أَدْرَكَتْ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ : كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ . قَالَ : وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **« كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ »** أَوْ - الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ - وَهَذَا إِبْطَالٌ لِمَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ . « ذُوقُوا » أى يَقَالُ لَهُمْ ذُوقُوا ، وَمَسَّهَا مَا يَحْدُونُ مِنَ الْأَلَمِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِيهَا . وَ « سَقَرَ » أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ لَا يَنْصَرَفُ ؛ لِأَنَّهُ أَسْمٌ مُؤَنَّثٌ مَعْرُوفٌ ، وَكَذَا لَطَى وَجَهَنَّمَ . وَقَالَ عَطَاءٌ : « سَقَرَ » الطَّبَقُ السَّادِسُ مِنْ جَهَنَّمَ . وَقَالَ قُطْرُبٌ : « سَقَرَ » مِنْ سَقَرَتِهِ الشَّمْسُ وَصَقَرَتِهِ لَوْحَتُهُ . وَيَوْمَ مُسْحَقَرٌ وَمُصْفَقَرٌ : شَدِيدُ الْحَرِّ .

الثانية - قوله تعالى : **« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ »** قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ « كُلٌّ » بِالنَّصْبِ . وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ « كُلُّ » بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ . وَمِنْ نَصْبٍ فَلِإِضْمَارِ فَعَلٍ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْكُوفِيِّينَ ؛ لِأَنَّ إِنْ تَطْلُبُ الْفِعْلُ فَهِيَ بِهِ أَوَّلَى ، وَالنَّصْبُ أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْخُلُوقَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّكَ لَوْ حَذَفْتَ « خَلَقْنَاهُ » الْمَفْسَّرُ وَأُظْهِرْتَ الْأَوَّلَ لَصَارَ إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ . وَلَا يَصِحُّ كَوْنُ خَلْقِنَاهُ صِفَةً لَشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَ الْمَوْصُوفِ ، وَلَا تَكُونُ تَفْسِيرًا لِمَا يَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَهُ .

الثالثة — الذى عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء ؛ أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجد على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوى والسفلى إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وقدرته وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ؛ كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذر رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله : « إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال : « أنتم خصماء الله يوم القيامة » .

الرابعة — روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مريضوا فلا تعودهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » . خرجه ابن ماجه فى سننه . وخرج أيضا عن ابن عباس وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى ليس لهم فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقدر » . وأسند النحاس : وحدثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدثنا عقبة بن مكرم الضبي قال حدثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القدرية الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم فى شفاعتى نصيب ولا أنا منهم ولا هم منى » وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . وهذا مثل قوله تعالى فى المنافقين : « وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » وهذا واضح . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن » .

قوله تعالى : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
 أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٦﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٧﴾
 وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٩﴾
 فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى لا مرة واحدة . (كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)
 أى قضائى فى خلقى أسرع من لمح البصر . واللمح النظر بالعجلة ؛ يقال : لمح البرق ببصره .
 وفى الصحاح : لمح وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والأسم اللحة ، ولمح البرق والنجم لمحا
 أى لمع .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ) أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل :
 أتباعكم وأعاونكم . (فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) أى من يتذكر .

قوله تعالى : (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) أى جميع ما فعلته الأمم قبلاهم من خير
 أو شر كان مكتوبا عليهم ؛ وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فى الزُّبُرِ »
 أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظ . وقيل : فى أم الكتاب . (وَكُلُّ صَغِيرٍ
 وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ) أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ،
 ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْرًا كَتَبَ ؛ وأسطر مثله .

قوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ) لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضا .
 « ونهر » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ؛ قاله ابن جريج . ووجد لأنه رأس الآية ،
 ثم الواحد قد ينبت عن الجميع . وقيل : فى « نهر » فى ضياء وسعة ؛ ومنه النهار لضياءه ، ومنه
 أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر (٢) :

مَلَكْتُ بِهَا كَفَى فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا * يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

(١) فى ب ، ح ، س ، هـ : « قبل أن يفعلوه ليجازوا ومكتوب إذا فعلوه » .

(٢) هو فليس بن الخطايم يصف طعنة . وملكت أى شددت وفويت .

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وفتادة « وَنَهْرٍ » بضمين كأنه جمع نهار لا ليل لهم ؛ كسحاب ومحب . قال الفراء : أنشدني بعض العرب :
 إِنَّ تَكُ لَيْلًا فَإِنِّي نَهْرٌ * مَتَى أَرَى الصُّبْحَ فَلَا أُنْتَظَرُ
 أى صاحب النهار . وقال آخر :

أَوَلَا التَّرِيدَانِ هَلَكْنَا بِالضُّمُرِ * تَرِيدُ لَيْلٍ وَتَرِيدُ بِالنَّهْرِ

(في مقعد صدق) أى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة (عند ملك مقتدير) أى يقدر على ما يشاء . و « عِنْدَ » هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البتي « فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ » بالجمع ؛ والمقاعد مواضع قعود الناس فى الأسواق وغيرها . قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى ، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذى هو مجلسه ، على منابر من الدر والياقوت والبرجد والذهب والفضة بقدر أعمالهم ، فلا تقر أعينهم بشئ قط كما تقر بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن معدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله أنطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند ملك مقتدر . وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففى الخبر : أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس فى الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة . فيقولون : إنكم تحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ » . والله أعلم .
 تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن ^(١) [عز وجل]

مَكِّيَّة كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس :
إلا آية منها هي قوله تعالى : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وهي ست وسبعون آية .
وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها . والقول الأول أصح لما روى عروة بن الزبير قال :
أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا :
ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ابن مسعود : أنا ؛
فقالوا : إنا نخشى عليك ، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال :
« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تلمذ رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها ،
فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ،
ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه . وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي الصبح بنخلة ،
فقرأ سورة « الرَّحْمَنُ » ومرت النفس من الجن فآمنوا به . وفي الترمذي عن جابر قال : خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرَّحْمَنُ » من أولها إلى آخرها
فسكتوا ؛ فقال : « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما
أتيت على قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »
قال : هذا حديث غريب . وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن
عاصم الميموني قال للنبي صلى الله عليه وسلم : آت على مما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة
« الرَّحْمَنُ » فقال : أعدها ؛ فأعادها ثلاثاً ؛ فقال : والله إن له لطلُوة ، وإن عليه لخلُوة ،
وأسفله لمُغْدِق ، وأعلاه مُمَر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت
رسول الله . وروى عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل
شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ
ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبِيُّ : « الرَّحْمَنُ »
فاتحة ثلاث سور إذا جُمع كن أسماء من أسماء الله تعالى « الرَّحْمَنُ » و « الرَّحِيمُ » و « الرَّحْمَنُ » فيكون
مجموع هذه « الرَّحْمَنُ » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علمه نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أداه إلى جميع
الناس . وأنزلت حين قالوا : وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ وقيل : نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : إِنَّمَا
يَعْلَمُهُ بَشَرٌ وَهُوَ رَحْمَنُ الْيَمَامَةِ ؛ يعنون مسليمة الكَذَّابَ ، فأُنزل الله تعالى : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » .
وقال الزجاج : معنى « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى سَمَّاهُ لِأَن يُذَكَّرَ وَيُقْرَأَ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ » . وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال ابن عباس
وقنادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شئ . وقيل : علمه اللغات
كلها . وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان : الإنسان هاهنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ،
والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال . وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه
بَيِّنٌ عن الأولين والآخرين ويوم الدين . وقال الضحاك : « البيان » الخير والشر . وقال
الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قنادة . وقيل : « الْإِنْسَانُ » يراد به جميع
الناس فهو أسم للجنس و « الْبَيَانَ » على هذا الكلام والفهم ، وهو مما فُضِّلَ به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره : « عِلْمٌ بِالْقَلَمِ . عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ)^(١) أى يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أى يجريان بحساب فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً . وقال السدي : « حُسْبَانٌ » تقدير آجالهما أى تجرى بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره : « كُلُّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى »^(٢) . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « حُسْبَانٌ » كحسبان الرّحى يعنى قطبها يدوران فى مثل القطب . والحُسْبَانُ قد يكون مصدر حسبته أحسبه بالضم حسباً وحُسْبَاناً ، مثل الغفران والكُفْران والرُّجْحَانُ ، وحِسَابَةٌ أيضاً أى عدده . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شهاب وشهبان . والحُسْبَانُ أيضاً بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى فى « الكهف »^(٣) الواحدة حُسْبَانَةٌ ، والحُسْبَانَةُ أيضاً الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَبْتُهُ إذا وسَدْتُهُ ؛ قال^(٤) :

* ... لَثَوَيْتَ غَيْرَ مُحَسَّبٍ *

أى غير موسّد يعنى غير مكرم ولا مكفّن (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) قال ابن عباس وغيره : النجم مالا ساق له والشجر ماله ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمي :

لَقَدْ أَتَجَمَّ الْقَاعُ الْكَبِيرُ عِضَاهَهُ * وَتَمَّ بِهِ حَيَاتِمِمْ وَوَائِلِ

وقال زهير بن أبى سلمى :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنَسُّجُهُ * رِيحُ الْجَنَوِبِ إِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٠ . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ . (٣) راجع ج ١٠ ص ٤٠٨ .

(٤) هو نهبك الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لنقبت بالوجهاء طعنة مرهف * مران أو لثويت غير محسب

الوجهاء الأست . يقول : لو طعنتك لوليتى دبرك وأنقبت طعنتى بوجهائك ، ولثويت هالكاً غير مكرم .

(١) واشتقاق النجم من نَجْم الشيءُ يَنْجُم بالضم نجوماً ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلّهما ،
 قاله الضحاك . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها
 حتى ينكسر الفء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظلّ معهما ، كما قال تعالى : « يتفياً
 ظِلَّهُ^(٢) » . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء ، وسجوده في قول مجاهد دوران ظله ، وهو
 اختيار الطبري ، حكاه المهدوي . وقيل : سجود النجم أنفوله ، وسجود الشجر إمكان الاجتناء
 لثمرها ، حكاه الماوردي . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم
 من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنى به آثار
 الحدوث ، حكاه القشيري . النحاس : أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز
 وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وأنقيادها له ، ومن الحيوان كذلك
 ويكون من سجود الصلاة ، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال :^(٣)

فَبَاتَتْ تُعَدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ * سَرِيعَ بَأْيَدِي الْآكِلِينَ جُمُودَهَا

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا) وقرأ أبو السّمّال « وَالسَّمَاءَ » بالرفع على الابتداء واختار ذلك لما عطف
 على الجملة التي هي : « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » بفعل المعطوف مركباً من مبتدأ وخبر
 كالمعطوف عليه . الباقر بن النصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)
 أي العدل ، عن مجاهد وقتادة والسدي ، أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به ، يقال : وضع
 الله الشريعة . ووضع فلان كذا أي ألقاه ، وقيل : على هذا الميزان القرآن ، لأن فيه بيان
 ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة — أيضاً — والضحاك :
 هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر
 بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العدل . وقيل : هو
 الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال . وأصل ميزان موزان وقد مضى
 في « الأعراف »^(٤) القول فيه . (الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصباً

(١) في ب ، ح ، س ، هـ : « وسجودهما بسجود » . (٢) راجع ج ١٠ ص ١١١ :

(٣) قائله الراعي . (٤) راجع ج ٧ ص ١٦٦ :

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : « يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »^(١) . ويجوز ألا يكون له « أن » موضع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تَطْغَوْا » على هذا التقدير مجزوماً ؛ كقوله تعالى : « وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا »^(٢) [أى امشوا]^(٣) . والطغيان مجاوزة الحد . فمن قال : الميزان العدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ابن عباس : أى لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالي ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحكم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيه إضمار ؛ أى وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه . (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) أى أعملوه مستقيماً بالعدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل . وقال ابن عيينة^(٤) : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل : هو كقولك أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل . (وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ »^(٥) . وقال قتادة فى هذه الآية : أعدل يا بن آدم كما تحب أن يعدل لك ، وأوف كما تحب أن يوفى لك ؛ فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال ربوس الآى . وقيل : التكرير للائمر بليفاء الوزن ورعاية العدل فيه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بردة وأبان عن عثمان « تَخْسِرُوا » بفتح التاء والسين وهما لغتان ، يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته . وقيل : « تَخْسِرُوا » بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر ؛ والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) الأنام الناس ؛ عن ابن عباس . الحسن : الحق والإنس . الضحاك : كل ما دب على وجه الأرض ، وهذا عام . (فِيهَا قَائِكَةٌ) أى كل

(١) راجع ج ٦ ص ٢٩ . (٢) راجع ج ١٥ ص ١٥١ . (٣) الزيادة من ب ، ج ، د ، هـ .

(٤) فى حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي « أبو عبيدة » بدل ابن عيينة . (٥) راجع ج ٩ ص ٨٥ .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . (وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ) الأكام جمع كَم بالكسر . قال الجوهري : والكِمَّة بالكسر والكِمَامَة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كِمَام وأَكِمَّة وأَكَام والأكاميم أيضا . وكُمَّ الفصيل إذا أشفق عليه فسُير حتى يقوى ؛ قال العجاج :

بَلْ لَوْ شَهِدَتِ النَّاسُ إِذْ تُكُّوْا * بَغْمَةً أَوْ لَمْ تُفَرِّجْ غُمُّوْا

وتكُّوا أى أغمى عليهم وغطوا . وأَكَمْتُ [النخلة^(١)] وكَمَّمت أى أخرجت أكامها . والكِمَام بالكسر والكِمَامَة أيضا ما يُكَّم به فَم البعير لئلا يعَض ؛ تقول منه : بعير مكوم أى تحجوم . وكَمَّمت الشيء غطيته . والكَم ماستر شيئا وغطاه ؛ ومنه كُم القميص بالضم والجمع أَكَمَام وكِمَة ، مثل حُبَّ وَحِيَّة . والكَمَّة القلنسوة المدورة ؛ لأنها تغطى الرأس . قال :

فَقُلْتُ لَهُمْ يَكْلُو بِكَمَّةٍ بَعْضُكُمْ * دَرَاهِمَكُمْ إِنِّي كَذَلِكَ أَتَكَلُّ

قال الحسن : « ذَاتُ الْأَكَامِ » أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَّم بالليف ، وكِمَامها ليفها الذى فى أعناقها . ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال . (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) الحب الحنطة والشعير ونحوهما ؛ والعصف الثبن ؛ عن الحسن وغيره . مجاهد : ورق الشجر والزرع . ابن عباس : ثبن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح . سعيد بن جبير : بقل الزرع أى أول ما ينبت منه ؛ وقاله الفراء . والعرب تقول : خرجنا أعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفْتُ الزَّرْعَ أى جززته قبل أن يدرك . وعن ابن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رهوسه ويس ؛ نظيره : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِلَ » . الجوهري : وقد أعصف الزرع ، ومكان مُعِصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأسلت الأنصارى :

إِذَا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطَرَهَا * زَانَ جَنَابِي عَطَنَ مُعِصِفُ

(١) الزيادة من الصحاح للجوهري . (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٩٩ .

(١)

والعصف أيضا الكسب ؛ ومنه قول الراجز :

* بغير ما عَصِفَ ولا أَصْطَرَفَ *

وكذلك الاعتصاف . والعصيفة الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنْبُل . وقال الهروى :
والعصف والعصيفة ورق السُّنْبُل . وحكى التعلبي : وقال ابن السكيت تقول العرب لورق
الزرع العصف والعصيفة والحل بكسر الجيم . قال علقمة بن عبدة :
تَسْقِي مَذَانِبَ قَد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُّورُهَا مِنْ أَيْ الْمَاءِ مَطْمُومٌ

وفي الصحاح : والحل بالكسر قصب الزرع إذا حُصِدَ . والريحان الرزق ؛ عن ابن عباس
ومجاهد . الضحاك : هي لغة حمير . وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقناة : أنه الريحان
الذي يشم ، وقاله ابن زيد . وعن ابن عباس أيضا : أنه خضرة الزرع . وقال سعيد
ابن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف الماء كقول من الزرع ، والريحان
ما لا يؤكل . وقال الكلبي : إن العصف الورق الذي لا يؤكل ، والريحان هو الحب الماء كقول .
وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت ريحانا ؛ لأن الإنسان يراحم لها رائحة طيبة .
أى يشم فهو فعلان رَوْحَان من الرائحة ؛ وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين
الرُّوحَانِي وهو كل شيء له رُوح . قال ابن الأعرابي : يقال شيء رُوحَانِي ورُيحَانِي أى له
روح . ويجوز أن يكون على وزن فِعْلَان فاصله رِيَّوْحَان فابدل من الواو ياء وأدغم كهين
وآين ، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدين الألف والنون ، والأصل فيما يتركب من الراء
والواو والحاء الأهتراز والحركة . وفي الصحاح : والريحان نبت معروف ؛ والريحان الرزق ؛
تقول : خرجت أبتغي ريحان الله ؛ قال التمر بن توالب :

سَلَامُ الإِلهِ وَرِيحَانُهُ * وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دَرَرٍ

وفي الحديث : " الولد من ريحان الله " . وقولهم : سبحان الله وريحانه ، نصبوهما على
المصدر يريدون تزيينها له وأسترزاقا . وأما قوله : « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » فالعصف

(١) قاله المعاج . وصدر البيت : * قد يكسب المال الهدان الحافى *
والهدان الأحق .

ساق الزرع ، والريحان ورقه ؛ عن الفراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيها كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفاً على الأرض . وقيل : بإضمار فعل ، أى وخلق الحب ذا العصف والريحان ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » . وجر حمزة والكسائي « الریحان » عطفاً على العصف ؛ أى فيها الحب ذو العصف والريحان ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق ، فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقاً ؛ لأن العصف رزق للبهائم ، والريحان رزق للناس ، ولا شبهة فيه في قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعالى : ﴿ قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ كَذَبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجن ؛ لأن الأنام واقع عليهما . وهذا قول الجمهور ، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه « لَجْنٌ أَحْسَنُ مِنْكُمْ رِدًّا » . وقيل : لما قال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » دل ذلك على أن ما تقدم وما تأخر لها . وأيضاً قال : « سَتَفْرُغُ أَيْهَا الثَّقَلَانِ » وهو خطاب للإنس والجن وقد قال في هذه السورة : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » . وقال الجرجاني : خاطب الجن مع الإنس وإن لم يتقدم للجن ذكر ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » . وقد سبق ذكر الجن فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدم من القول في « الْقَبَائِلِ فِي جَهَنَّمَ » . وكذلك قوله :

* قِفَا نَبِكَ ... *
و * خَلِيلِي مُرَابِي ... *

(١) رواية الترمذى المتقدمة تخالف هذه الرواية في اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٩٥ . (٣) راجع ص ١٦ من هذا الجزء .

(٤) البيت مطلع معلقة امرئ القيس وتماهه :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول لغوميل

(٥) البيت مطلع قصيدة لأمير القيس أيضاً والبيت تمامه :

خليلي مرابي على أم جندب * نقض لبانات الفؤاد المعذب

فأما ما بعد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ،
والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » والآلاء النعم ، وهو قول
جميع المفسرين ، واحدها إلى وإلى مثل معى وعصا ، وإلى وإلى أربع لغات حكاهما
النحاس قال : وفي واحد « آناء الليل » ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ،
وقد مضى في « الأعراف »^(١) و « النجم »^(٢) . وقال ابن زيد : إنها القدرة ، وتقدير الكلام
فبأي قدرة ربكما تكذبان ؛ وقاله الكلبي وأختره الترمذي محمد بن علي ، وقال : هذه السورة
من بين السور علم القرآن ، والعلم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت علما لأنها سورة
صفة الملك والقدرة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » فأفتح السورة باسم الرحمن من بين
الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من
الرحمة العظمى من رحانيته فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ
الْإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما من عليه به ، ثم ذكر حسابان الشمس والقمر وسجود
الأنبياء مما نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ؛
نخاطب هذين الثقلين الجن والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحانيته التي رحمهم
بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود آتخذوه من دونه ،
وجحدوا الرحمة التي نرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكْذِبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ، وإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء
التي نرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق
الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجن من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة ؛
فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، وأتخذ المجزة عليهم بما وقفهم على خلق
خليق . وقال القتيبي : إن الله تعالى هدد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

(٢) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٧ .

كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم
ويقررهم بها ؛ كما تقول لمن نتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك
أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صرورة^(١) فحججت بك أفتنكر
هذا ؟ ! ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا ؟ ! والتكرير حسن في مثل هذا . قال :

* كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ تَكْمُ وَكَمْ *

وقال :

لَا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إِنْ كُنْتَ مُسْلِمَةً * إِيَّاكَ مِنْ دَمِهِ إِيَّاكَ

وقال آخر :

لَا تَقْطَعَنَّ الصَّدِيقَ مَا طَرَفْتُ * عَيْنَاكَ مِنْ قَوْلِ كَاشِحٍ إِشِيرِ
وَلَا تَمَلَنَّ مِنْ زِيَارَتِهِ زُرْهُ * وَزُرْهُ وَزُرْ وَزُرْ وَزُرْ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طردا للنفلة ، وتأكيذا للحجة .

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ
الْجَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض ،
وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ »
باتفاق من أهل التأويل يعني آدم . (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) الصلصال الطين اليابس الذي
يسمع له صلصلة ، شبهه بالفخار الذي طبخ . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين
المتين من صَلِّ اللُّحْمِ وَأَصْلٌ إِذَا أَتَنَ ؛ وقد مضى في « الحجر » . وقال هنا : « مِنْ صَلْصَالٍ
كَالْفَخَّارِ » وقال هناك : « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . وقال : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

(١) الصرورة : الذي لم يحج قط .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢١ .

(١) . وقال : « كَتَلِ آدَمَ خَلْقَهُ مِنْ تُرَابٍ » (٢) وذلك متفق المعنى ؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم أنتقل فصار كاللحم المسنون ، ثم أنتقل فصار صلصالا كالفتخار . (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ) قال الحسن : الجان إبليس وهو أبو الجن . وقيل : الجان واحد الجن ، والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجان من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذي يكون في طرفها إذا آلتهبت . وقال الليث : المارج الشُعْلَةُ الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر ؛ ونحوه عن مجاهد ؛ وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسل التي لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار ، وأصله من مرج إذا اضطرب وأختلط ؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس . قال القشيري : والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول ؛ كقوله : « مَاءٌ دَافِقٌ » (٣) و « عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ » (٤) والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهرى في الصحاح : و « مَارِجٌ مِنْ نَارٍ » نار لا دخان لها خلق منها الجان . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ .

قوله تعالى : (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) (١) أى هو رب المشرقين . وفي الصافات « وَرَبُّ الْمَشَارِقِ » وقد مضى الكلام في ذلك هناك .

قوله تعالى : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)

(١) راجع ج ١٥ ص ٦٣ و ص ٦٨ . (٢) راجع ج ٤ ص ١٠٢ .

(٣) راجع ج ٢٠ ص ٤ . (٤) راجع ج ١٨ ص ٢٧٠ .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ «مرج» أى خلى وأرسل وأهمل ، يقال : مرج السلطان الناس إذا أهملهم . وأصل المَرَج الإهمال كما تُمرَج الدابة في المرعى . ويقال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش : ويقول قوم أمرج البحرين مثل مَرَج ، فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى . «البحرين» قال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ، وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . «يَلْتَقِيَانِ» في كل عام . وقيل : يلتقي طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال ابن جريح : إنه البحر المسالخ والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أى حاجز فعلى القول الأول ما بين السماء والأرض ، قاله الضحاك . وعلى القول الثانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ، قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدم فى «الفرقان» . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم " أن الله تعالى كلم الناحية الغربية فقال : إني جاعل فيك عبداً لى يُسَبِّحُونى وَيُكَبِّرُونى وَيَهْلُلُونى وَيُحْمَدُونى فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أغرقهم يارب . قال : إني أحملهم على يدى ، وأجعل بأسك فى نواحيك . ثم كلم الناحية الشرقية فقال : إني جاعل فيك عبداً لى يُسَبِّحُونى وَيُكَبِّرُونى وَيَهْلُلُونى وَيُحْمَدُونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أسبِّحك معهم إذا سَبَّحُوكَ ، وأكبرك معهم إذا كبروك ، وأهللك معهم إذا هَلَّلُوكَ ، وأمجِّدك معهم إذا مجَّدوك ، فأناهاها الله الحلية وجعل بينهما برزخاً ، وتحول أحدهما ملجأً أجاباً ، وبقي الآخر على حالته عذاباً فُوتاً " ذكر هذا الخبر الترمذى الحكيم أبو عبد الله قال : حدثنا صالح بن محمد ، حدثنا القاسم العمرى عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة : «لَا يَبْغِيَانِ» قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ، جعل بينهما وبين الناس يَبْغِيَانِ . وعنه أيضاً ومجاهد : لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه . ابن زيد : المعنى «لَا يَبْغِيَانِ» أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان ، لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، أى بينهما مدة قدرها الله وهى مدة الدنيا فهما لا يبغيان ، فإذا أذن الله فى أنقضاء الدنيا صار البحرين

شيئاً واحداً، وهو كقوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ بُخِرَتْ ^(١) » . وقال سهل بن عبدالله : البحرين طريق الخير والشر ، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة .

قوله تعالى : « يُخْرِجُ مِنْهُمَا ^(٢) اللَّوْثُ وَالْمَرْجَانُ » [أى يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان] ، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان . وقرأ نافع وأبو عمرو « يُخْرِجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول . الباقيون « يُخْرِجُ » بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل . وقال : « مِنْهُمَا » وإنما يخرج من المالح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْخُنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ ^(٣) » وإنما الرسل من الإنس دون الجن ، قاله الكلبي وغيره . قال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ، وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ^(٤) » والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكان مافى إحداهن فيهن . وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف ، أى من أحدهما ، كقوله : « عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٌ ^(٥) » أى من إحدى القريتين . وقال الأخفش سعيد : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب . وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان . ابن عباس : هما بحرا السماء والأرض . فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما ، وقاله الطبري . قال الثعالبي : ولقد ذكر لي أن نواة كانت في جوف صدفة ، فأصاب القطرة بعض النواة ولم تصب البعض ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة . وقيل : إن العذب والمالح قد يلتقيان ، فيكون العذب كاللقاح للمالح ، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى ، لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والمالح . وقيل : المرجان عظام اللؤلؤ وكباره ، قاله علي وابن عباس رضي الله عنهما . واللؤلؤ صغاره . وعنهما أيضا بالعكس : إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ، وقاله الضحاك وقتادة . وقال ابن مسعود وأبو مالك : المرجان الخرز الأحمر .

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٤٢ (٢) ما بين المربعين سابق من ز ، ل . (٣) راجع ج ٧ ص ٨٥

(٤) راجع ج ١٨ ص ٣٠٤ (٥) راجع ج ١٦ ص ٨٢

قوله تعالى : وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾
فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (وَلَهُ الْجَوَارِ) يعنى السفن . (الْمُنشَآتُ) قراءة العامة « الْمُنشَآتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفِعَ قَلْعُهَا ؛ قال : وإذا لم يُرْفَعْ قَلْعُهَا فليست بمنشآت . وقال الأخفش : لأنها المجريّات . وفى الحديث : أن عليّاً رضى الله عنه رأى سفناً مُقْلَعَةً ، فقال : وربّ هذه الجوارى المنشآت ما قتلت عثمان ولا ملأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه « الْمُنشَآتُ » بكسر الشين أى المنشآت السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع . وقيل : الرافعات الشُّرْعُ أى القُلُوعُ . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرْعُ . (كَالْأَعْلَمِ) أى كالجبال ، والعلم الجبل الطويل ، قال :

* إِذَا قَطَعْنَ عِلْمًا بَدَأَ عِلْمٌ *

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر ، وقد مضى فى « الشورى » بيانه . وقرأ يعقوب « الْجَوَارِى » بياء فى الوقف ، وحذف الباقيون .

قوله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم من عليها ،

(١) قائله جرير؛ وتام البيت :

* حتى تهاين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المهتم * فى منضى المجد وبؤى الكرم

(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٣

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ^(١) » فأيقنت الملائكة بالهلاك ، وقاله مقاتل . ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام . وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) أى ويبقى الله ، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ، قال الشاعر :

قَضَى عَلَى خَلْقِهِ الْمَنَاسِيَا * فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ فَانِي

وهذا الذى أرناؤه المحققون من علمائنا : ابن فورك وأبو المعالى وغيرهم . وقال ابن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالى : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود البارى تعالى ، وهو الذى أرناؤه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ » والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود البارى تعالى . وقد مضى فى « البقرة » القول فى هذا عند قوله تعالى : « فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فَنَسَمٌ وَجْهُ اللَّهِ » وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيري : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيَّف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الرب تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال : وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر وجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أى يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التى يتقرب بها إلى الله . (ذُو الْجَلَالِ) الجلال عظمة الله وكبرياؤه وآسمحقاقه صفات المدح ، يقال : جَلَّ الشَّيْءُ أى عَظُمَ وأجلته أى عظمت ، والجلال أسم من جَلَّ . (وَالْإِكْرَامِ) أى هو أهل لأن يكرم عمالا يليق به من الشرك ، كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الأسمين لغة ومعنى فى الكتاب الأسنى مستوفى . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اَلْطَّوَّاءِ إِذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » . وروى أنه من قول ابن مسعود ، ومعناه : ألزموا ذلك فى الدعاء . قال أبو عبيد :

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٢٢ . (٢) راجع ج ٢ ص ٨٣ .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه . ويقال : الإلظاظ الإلحاح . وعن سعيد المقبري : أن رجلاً
أَحْبَجَ فَعَلَ يقول : اللَّهُمَّ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ! اللَّهُمَّ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ! فنودى :
إني قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ
فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل : المعنى يسأله من
في السموات الرحمة ، ومن في الأرض الرزق . وقال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات
يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً . وقال ابن جريج :
وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض ؛ فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض
لأهل الأرض . وفي الحديث : « إن من الملائكة ملكاً له أربعة أوجه [وجه^(١)] كوجه الإنسان وهو
يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسموات ووجه كوجه الثور
وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله الرزق للطير » . وقال ابن عطاء :
لأنهم سألوه القوة على العبادة . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ . وأنتصب « كُلَّ
يَوْمٍ » ظرفاً ، لقوله : « فِي شَأْنٍ » أو ظرفاً للسؤال ؛ ثم ابتدئ « هُوَ فِي شَأْنٍ » . وروى
أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال :
« من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » . وعن ابن عمر عن النبي صلى الله
عليه وسلم في قول الله عز وجل : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : « يغفر ذنباً ويكشف
كرباً ويحجب داعياً » . وقيل : من شأنه أن يحيي ويميت ، ويعزّ ويذل ، ويرزق ويمنع .
وقيل : أراد شأنه في يومى الدنيا والآخرة . قال ابن بحر : الدهر كله يومان ، أحدهما مدة
أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار
بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ،

(١) الزيادة من ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ . (٢) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « أقواما » .

والثواب والعقاب . وقيل : المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر . والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ^(١) طِفْلاً » . وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو ابن ميمون في قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حياً ، ويُقِرَّ في الأرحام ماشاء ، ويُعزِّ ذليلاً ، ويُذلَّ عزيزاً . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها ، وأستمهله إلى الغد فانصرف كثيراً إلى منزله فقال له غلام له أسود : ما شأنك ؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإني أفسرها له ، فدعاه فقال : أيها الأمير ! شأنه أن يوجَّ الليل في النهار ، ويوجَّ النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويتشفى سقيماً ، ويُسقم سليماً ، ويتبدل معافى ، ويعافى مبتلىً ، ويُعزِّ ذليلاً ، ويُذلَّ عزيزاً ، ويُفقر غنياً ، ويُغني فقيراً ، فقال له : فرجت عنى فرج الله عنك ، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام ، فقال : يا مولاي ! هذا من شأن الله تعالى . وعن عبد الله ابن طاهر : أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ^(٢) » وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ^(٣) » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، ويكون توبة في هذه الأمة ؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبدئها لا شئون يتبديها . وأما قوله : « وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فعناه : ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً . فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه .

(٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٤

(٢) راجع ج ٦ ص ١٤٣

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٣٠

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَدْمَعُشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلَ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ يقال : فرغت من الشغل أفرغ فُروغاً وفَراغاً وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، إنما المعنى سنقصده لحجازاتكم أو محاسبتكم ، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك أى أقصدهك . وفرغ بمعنى قصده ، وأنشد ابن الأنبارى فى مثل هذا بالحرير :

الآن وقد فرغت إلى تميم * فهذا حين كنت لها عذاباً

يريد وقد قصدت . وقال أيضاً وأنشده النحاس :

* فرغت إلى العبد المقيّد فى الحِجْل *

وفى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : يا أهل الحبّاجب ! هذا مذمّم يبايع بنى قيلة على حربكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هذا إيزب العقبة أما والله يا عدوّ الله لا تفرغن لك " أى أقصده إلى إبطال أمرك . وهذا اختيار القنبي والكسائى وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعده على الفجور ، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كلاً إلى ما وعدناه ، أى أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وابن زيد . وقرأ عبد الله وأبى « سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ » وقرأ الأعمش وإبراهيم

(١) أى جرير . (٢) الحباجب : منازل منى (٣) إيزب : ضبطه الحلبي فى سيرته بكسر الهمزة وإسكان الزاى ، وهو هنا اسم شيطان .

« سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن شهاب والأعرج « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغَ يَفْرَغُ ، وحكى أيضاً قَرِغَ يَفْرَغُ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجعفي عن أبي عمرو « سَيَفْرُغُ » بفتح الياء والراء ، ورويت عن ابن هُرْمُزٍ . وروى عن عيسى الثقفي « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ حمزة والكسائي « سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بالياء . الباقر بن النون وهي لغة تهامة . والثقلان الجن والإنس ؛ سُميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سُموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتاً ؛ قال الله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ^(١) أَنْثَاهَا » ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه . وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن يُنَافَسُ فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصانده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سُميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بجمع ، ثم قال : « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ^(٢) » ولم يقل إن استطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : « فَإِذَا هُمُ قَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ^(٣) » و « هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ^(٤) » ولو قال : سَنَفْرُغُ لَكُمَا ، وقال : إن استطعتما لجاز . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقر بن النون بفتحها وقد تقدّم^(٣) .

مسألة — هذه السورة و « الْأَحْقَافِ » و « قُلْ أُوحِيَ » دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون ما مورون منيرون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنهم كؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » الآية . ذكر ابن المبارك : وأخبرنا جويرير عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتهما حتى يأمرهم الرب ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢١٤ .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٤٧ .

(٤) أي في نبي القرآن .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٥ و ٢٣٨ و ج ١٦ ص ٩٧ .

(١) كذلك فينزلون فيكونون صفًا من خلف ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ؛ فينزل الملك الأعلى في بهائه وملكه ومجنته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْرًا من أقطارها إلا وجدوا صفوفًا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطان العذر . وقال الضحاك أيضا : بينما الناس في أسواقهم أنفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت . فعلى هذا يكون في الدنيا ، وعلى ما ذكر ابن المبارك يكون في الآخرة . وعن الضحاك أيضا : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فأهربوا . وقال ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فأعلموه ، ولن تعلموه إلا بسطان أى ببيئة من الله تعالى . وعنه أيضا أن معنى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم . فتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان ، الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي » أى إلى . قال الشاعر :
(٢)

أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُولَةَ * لَدَيْنَا وَلَا مَقَالَةَ إِن تَقَلَّتْ

وقوله : « فَانْفُذُوا » أمر تعجيز .

قوله تعالى : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ » أى او خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المساع من النفوذ . وقيل : ليس هذا متعلقاً بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار . وقيل : أى بلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » ، فذلك النار قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ »

(١) في ب ، ز ، ح ، س ، د : « في جوف ذلك الصف » . (٢) في ب : « إلى سلطاني » .

(٣) راجع ج ٩ ص ٢٦٧ . (٤) هو كنية عزة .

والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له . والنحاس : الدخان الذي لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت رضى الله عنه ، كذا وقع في تفسير الثعلبي . والماوردي بن أبي الصلت ، وفي « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنباري : أمية بن خلف قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ حَسَّانَ عَنِّي * مُغْلَغَلَةٌ تَدْبُ إِلَى عُكَّازِ
الْيَسْ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَبْنًا * لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسَلَا فِي الْحِفَازِ
يَمَانِيًّا يَظُلُّ يُشْدُّ كِيرًا * وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشَّوَاظِ

فأجابه حسان رضى الله عنه فقال :

هَجَوْتِكَ فَأَخْتَضَعْتَ لَهَا بِذُلٍّ * بِقَافِيَةِ تَأَجَّجٍ كَالشَّوَاظِ^(١)

وقال رؤبة :

إِنِّ لَمْ مِنْ وَقَعْنَا أَقْبَاطًا * وَنَارَ حَرْبٍ تُسِيرُ الشَّوَاظَا

وقال مجاهد : الشواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الخطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعاً ؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ابن كثير « شواظ » بكسر الشين . الباقر بالضم وهما لغتان ؛ مثل صُورٍ وصُورٍ لقطع البقر . (ونحاس) قراءة العامة « ونحاس » بالرفع عطف على « شواظ » . وقرأ ابن كثير وابن محبصن ومجاهد وأبو عمرو « ونحاس » بالخفض عطفاً على النار . قال المهدوي : من قال إن الشواظ النار والدخان جميعاً فالجرفي « نحاس » على هذا بين . فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

(١) وفي الناج بدل هذا البيت :

مَجْلَلَةٌ نَعَمٌ شَارَا * مَضْرُوءَةٌ تَأَجَّجُ كَالشَّوَاظِ

والغسل من الرجال : الرذل الذي لا مروءة له ولا جلد . والمفعول مثله .

شَوَاطٍ مِنْ نَارٍ » وشيء من نحاس ؛ فشيء معطوف على شواط ، ومن نحاس جملة هي صفة
 لشيء ، وحذف شيء ، وحذفت من لتقدم ذكرها في « مِنْ نَارٍ » كما حذفت على من قولهم :
 على من تنزل أنزل [أى] عليه . فيكون « نُحَاسٌ » على هذا مجروراً بمن المحذوفة . وعن
 مجاهد وحيد وعكرمة وأبي العالية « وَنِحَاسٍ » بكسر النون لغتان كالشواط والشواط .
 والنحاس بالكسر أيضاً الطبيعة والأصل ؛ يقال : فلان كريم النحاس والنحاس أيضاً بالضم
 أى كريم التجار . وعن مسلم بن جندب « وَنَحْسٌ » بالرفع . وعن حنظلة بن مرة بن النعمان
 الأنصاري « وَنَحْسٍ » بالجر عطف على نار . ويجوز أن يكون « وَنِحَاسٍ » بالكسر جمع
 نَحِيس كَصَعْبٍ وَصِعَابٍ « وَنَحْسٌ » بالرفع عطف على « شواط » وعن الحسن « وَنَحِيسٌ »
 بالضم [فيهما] جمع نَحْس . ويجوز أن يكون أصله وَنُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدم عند
 قوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة « وَنَحْسٌ » بفتح النون وضم
 الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحْسُّ حَسًّا إذا استأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ تَحْسُونَهُمْ
 بِإِذْنِهِ » والمعنى ونقتل بالعذاب . وعلى القراءة الأولى « وَنُحَاسٌ » فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ
 على رءوسهم ؛ قاله مجاهد وقتادة ، وروى عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضاً وسعيد
 ابن جبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيه ؛ وهو معنى قول الخليل ؛ وهو معروف
 في كلام العرب بهذا المعنى ؛ قال نابغة بنى جعدة :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيلِ * يَطِّمُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا

قال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول السِّلِيطُ دهن السَّمْسَمِ بالشام ولا دخان فيه . وقال
 مقاتل : هي خمسة أنهار من صُفْرٍ مُذَاب ، تجري من تحت العرش على رءوس أهل النار ؛
 ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار . وقال ابن مسعود : النُّحَاسُ المُهْل .
 وقال الضحاک : هو دُرْدَى الزَّيْتِ المغلى . وقال الكسائي : هو النار التي لها ريح شديدة .
 (فَلَا تَنْصِرَانِ) أى لا ينصر بعضكم بعضاً يعنى الجن والإنس .

(١) زيادة يقتضها السياق . (٢) التجار — بكسر النون وضها — الأصل والحسب .

(٣) الذى فى الأصول : « بالضم فهين » وما أبتناه هو ما عليه كتب التفسير أى بضمين وكسر السين .

(٤) راجع ج ١٠ ص ٩١ . (٥) راجع ج ٤ ص ٢٢٣ .

قوله تعالى : فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ
 وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ) أى أنصدعت يوم القيامة (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)
 الدَّهَانُ الدهن ؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما . والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن ؛ والدهان
 على هذا جمع دُهْن . وقال سعيد بن جبيرة وقتادة : المعنى فكانت حمراء . وقيل : المعنى تصير
 فى حمرة الورد وجريان الدهن ؛ أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ،
 وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها . وقيل : الدهان الجلد الأحمر الصّرف ؛ ذكره أبو عبيد
 والفراء . أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار . ابن عباس : المعنى فكانت كالفرس
 الورد ؛ يقال للكميت : وَرْدٌ إذا كان يتلون بالوان مختلفة . قال ابن عباس : الفرس الورد ؛
 فى الربيع كبيت أصفر ، وفى أول الشتاء كبيت أحمر ، فإذا أشد الشتاء كان كُتَيْتًا أغبر . وقال
 الفراء : أراد الفرس الوردية ، تكون فى الربيع وَرْدَةً إلى الصفرة ، فإذا أشد البرد كانت وَرْدَةً
 حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدَةً إلى الغبرة ، فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل .
 وقال الحسن : « كَالدِّهَانِ » أى كصبّ الدهن فلأنك إذا صببته ترى فيه ألواناً . وقال زيد
 ابن أسلم : المعنى أنها تصير كعكر الزيت ، وقيل : المعنى أنها تتر وتجيء . قال الزجاج : أصل
 الواو والراء والدال للجيء والإتيان . وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوردية تتغير ألوانها .
 وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر ؛ حكاه الثعلبى . وقال الماوردى :
 وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعده المسافة ترى بهذا
 اللون الأزرق ، وشبهوا ذلك بعروق البدن ، وهى حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء ؛ فإن
 كان هذا صحيحاً فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحوائل ترى حمراء ،
 لأنه أصل لونها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ هذا مثل قوله تعالى : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » ^(١) وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم ، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض ، وهذا قول عكرمة . وقيل : المعنى لا يسألون إذا استقروا في النار . وقال الحسن وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله حفظها عليهم ، وكتبتهم الملائكة . رواه العوفي عن ابن عباس . وعن الحسن ومجاهد أيضا : المعنى لا تسأل الملائكة عنهم ، لأنهم يعرفونهم بسيماهم ، دليله ما بعده . وقاله مجاهد عن ابن عباس . وعنه أيضا في قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » ^(٢) وقوله : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقال : لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ . وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقال قتادة : كانت المسألة قبل ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم . وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه قال : « فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَيْ قُلْ أَلَمْ أَكْرِمَكَ وَأَسَوَّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبُعَ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَفْظَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ إِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ بَعِينَهُ ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكَتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ وَصَلَّيْتُ وَصَمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَبَنَيْتُ بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذَا تُمَّ يُقَالُ لَهُ الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ فَيَفْتَكِرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ هَذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمَ عَلَيْهِ وَيُقَالُ لِفَخْذِهِ وَلِحْمِهِ وَعِظَامِهِ أَنْطَقِي فَتَنْطَقُ نَفْثُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ وَذَلِكَ الْمَنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ » وقد مضى هذا الحديث في « حم السجدة » وغيرها ^(٤) .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥٩

(١) راجع ج ١٣ ص ٣١٦

(٣) أى قل : معناه يا فلان وليس ترخيا له ، وإنما هي صيغة أرتجلت في النداء ، ولا نقال إلا بسكون اللام .

وقال قوم : إنه ترخيم فلان .

(٤) راجع ج ١٥ ص ٤٨ و ص ٣٥٠

قوله تعالى : يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي
وَالْأَقْدَامِ ﴿٤٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٣﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي
يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٤﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءِ إِنَّ
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ) قال الحسن : سواد الوجه وزرقة العين ،
قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ » . (٢) (فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ) أى تأخذ الملائكة بنواصيمهم ، أى بشعور مقدم
رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار . والنواصي جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين
ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين
ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقي فى النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر
لتشويبه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارة
تأخذ بقدميه وتسجبه على رأسه .

قوله تعالى : (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) أى يقال لهم هذه النار التى أخبرتم
بها فكذبتم . (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنِ) قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين
الحميم ، والحميم النار ، والحميم الشراب . وفى قوله تعالى : « آنِ » ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذى
أنهى حره وحميمه . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى ، ومنه قول النابغة الذبياني :
وَتُحْضَبُ لِحْيَةُ غَدَرْتِ وَخَانَتْ * بِأَحْمَرٍ مِنْ نَجِيعِ الْجُوفِ آنِ

قال قتادة : « آنِ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ، يقول : إذا استغاثوا من
النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آنِ » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

(١) راجع ج ١١ ص ٢٤٤ . (٢) راجع ج : ص ١٦٦ .

(٣) نجيع الجوف : معنى الدم الخالص . وقيل البيت :

فإن يفسد عليك أبو قيس فطورك المعيشة فى هوان

النار فيغمسون بأغلاطهم فيه حتى تتخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آِن » . وعن كعب أيضاً : أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذي قد آن شر به وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ « فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنفته العبرة وجعل يقول : وَيُحْيِي من يوم تنشق فيه السماء وَيُحْيِي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَيَحْيَا يَاقَتِي مثلها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك » .

قوله تعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءِ رَبِّكَ تَكْذِبَانَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) فيه مسألان :

الأولى — لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعد للابرار . والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية . و « مَقَام » مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه وإطلاعه عليه ؛ بيانه قوله تعالى : « أَقْنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال مجاهد وإبراهيم النخعي : هو الرجل يهتّم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانية — هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته : إن لم أكن من أهل الجنة فانت طالق أنه لا يحنت إن كان هم بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءاً منه . وقال به سفيان الثوري وأفتى به . وقال محمد بن علي الترمذي : جنة لخوفه من ربه ، وجنة لتركه شهوته . وقال ابن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع ؛ أى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهو كالأجل في قوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » (٣) وقوله في موضع آخر :

(١) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « من بكائك » . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٢٢ .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٠٢ .

« إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ » ^(١) . (جَنَّاتٍ) أى لمن خاف جنتان على حدة ؛ فلكل خائف جنتان . وقيل : جنتان لجميع الخائفين ؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الجنتان بستانان فى عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام فى وسط كل بستان دار من نور وليس منها شئ إلا به ترنمة وخضرة ، قرارها ثابت وشجرها ثابت » ذكره المهدوى والشمسلى أيضا من حديث أبى هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنما هى جنة واحدة ؛ فثنى لرؤوس الآى . وأنكر القتيبي هذا وقال : لا يجوز أن يقال نخزة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رؤوس الآى . وأيضاً قال : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » . وقال أبو جعفر النحاس : قال الفراء قد تكون جنة فُتْنَتْنِيَّ فى الشعر ؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل ، يقول الله عز وجل : « جَنَّاتٍ » ويصنعها بقوله : « فِيهِمَا » فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتاج بالشعر ! وقيل : إنما كانتا آفتنين ليضعف له السرور بالثقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزيلت والنار حين برزت ؛ قاله عطاء وآبن شوذب . وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فاعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستنقاه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال : « رحمتك الله لقد أنزلت فيك آية » وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

(٢) فى ز ، ل : « نور على نور » .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٩٩

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فن . وقال مجاهد : الأفنان الأغصان واحدها فن ؛ قال النابغة :
 بكاء حمامة تَدْعُو هَدِيلًا * مُفَجَّعَةً عَلَى فَنَنِ تَفْنِي^(١)
 وقال آخر يصف طائرين :

بانا على عُصْنِ بَانٍ فِي ذُرَى فَنَنِ * يَرُدُّانِ لُحُونًا ذَاتَ الْوَانِ
 أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هَاجَ شَوْفَكَ مِنْ هَدِيلِ حَمَامَةٍ * تَدْعُو عَلَى فَنَنِ الْغُصُونِ حَمَامًا
 تَدْعُو أَبَا فَرْخَيْنِ صَادِفِ ضَارِيًا * ذَا مَحْلَبَيْنِ مِنَ الصُّقُورِ قَطَامًا
 والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين ؛ وقال يصف رَحَى :
 * لَهَا زِمَامٌ مِنْ أَفَانِينَ الشَّجَرِ *

وشجرة فناء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : ” أن أهل الجنة مُرَدُّ مَكْمَلُونَ أُولُو أَفَانِينَ “ يد أولو فَنَن وهو جمع أفنان ، وأفنان جمع فنن [وهو الخُصْلَةُ^(٢) من الشعر شبهة بالغصن . ذكره الهروي . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سمة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتادة . وعن مجاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ابن عباس : تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ابن عباس أيضا والحسن : تجريان بالماء الزلال ؛ إحدى العينين التسليم والأخرى السلبيل . وعنه أيضا :

(١) قبل هذا البيت :

أَسَاثِلُهَا وَقَدْ مَفَعَتْ دُمُوعِي * كَأَنَّ مَقْبِضَهُنَّ غُرُوبُ لُحْنِ

(٢) الزيادة من النهاية لأبن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضماقاً مضاعفة ، حصباؤها الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، وترابهما الكافور ، وحماتها المسك الأذفر ، وحافتاها الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من نحر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الوراق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أى صنفان وكلاهما حلوا يستلذ به . قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهى في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلوا . وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطيب . وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنة على الجنة اللتين دونهما ، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين ، وذكر ثم عينين تنضخان بالماء والنضج دون الجرى ، فكأنه قال : في تينك الجنة من كل فاكهة نوع ، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال . والفُرُش جمع فراش . وقرا أبو حيوة « فُرُش » بإسكان الراء . ﴿ بَطَّائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهى التى تحت الظهارة ، والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن ، أى إذا كانت البطانة التى تلى الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة ؟ قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جبيرة : البطائن من الإستبرق فما الظواهر ؟ قل : هذا لما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنهم لتهتدى إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ظواهرها نور يتلأأ » . وعن الحسن : بطائنهم من الإستبرق ، وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضاً : البطائن هى الظواهر ؛

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة، والعرب تقول للظهر بطناً، فيقولون : هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذي نراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا : لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا ولى كل واحد منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجنى ما يجتنى من الشجر، يقال : أنا ناجى بجناء طيبة لكل ما يجتنى . وتمر جنى على فصيل حين جنى، وقال :

هَذَا جَنَى وَخِيَارِهِ فِيهِ * إِذْ كُلُّ جَانِبٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ

وقرى « جنى » بكسر الجيم . « دان » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنىها ولى الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجماً، لا يرد يده بعد ولا شك .

قوله تعالى : فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَانٌّ ﴿٥٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ ﴾ قيل : في الجنتين المذكورتين .
قول الزجاج : وإنما قال : « فِيهِنَّ » ولم يقل فيهما ، لأنه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما
من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على القُرُش التي بطائنها من إستبرق ، أى في هذه القُرُش
« قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ » أى نساء قاصرات الطرف ، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم .
وقد مضى في « والصفات » ^(٢) ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر ،
من طَرَفَتْ عينه تطرِف طرفاً ، ثم سميت العين بذلك فأدى عن الواحد والجمع ، كقولهم :
قوم عدل وصوم .

(١) هو عمرو بن عدى التميمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٨٠

الثانية - قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِئُنَّا ﴾ أى لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد . الفراء : والطمئ الافتضاض وهو النكاح بالتدمية ؛ طمئها يطمئها ويطمئها طمئاً إذا اقتضها . ومنه قيل : امرأة طامت أى حاض . وغير الفراء يخالفه فى هذا ويقول : طمئها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمِئُنَّا » بضم الميم ؛ يقال : طمئت المرأة تطمئ بالضم حاضت . وطمئت بالكسر لغة فهى طامت ؛ وقال الفرزدق :

وقمى^(١) إلى لم يطمئن قبلى * وهن أصح من بيض النعام

وقيل : « لَمْ يَطْمِئُنَّا » لم يمسمن ؛ قال أبو عمرو : والطمئ المس وذلك فى كل شئ ، يمس . ويقال للمرتع : ما طمئ ذلك المرتع قبانا أحد ، وما طمئ هذه الناقة حبلى ؛ أى مامسها عقال . وقال المبرد : أى لم يذلّلهن أنس قبلهم ولا جان ؛ والطمئ التذليل . وقرأ الحسن « جان » بالهمز .

الثالثة - فى هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنّيات . قال ضمرة : للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين ؛ فالإنسيات للإنس ، والجنّيات للجن . وقيل : أى لم يطمئ ما وهب الله للمؤمنين من الجن فى الجنة من الحور العين من الجنّيات جن ، ولم يطمئ ما وهب الله للمؤمنين من الإنس فى الجنة من الحور العين من الإنسيات إنس ؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قد مضى فى « النمل » القول فى هذا وفى « سبحان » أيضاً ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم أنطوى الجن على إحليله بجامع معه فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِئُنَّا إِنْ أَنْسَ قَبَاهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمئن الجن ، وأن الحور العين قد برثن من هذا العيب ونزهن ، والطمئ الجماع . ذكره بكال الترمذى الحكيم ، وذكره المهدوى أيضاً والتعلبى وغيرهما والله أعلم .

قوله تعالى : كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (١) روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى منها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصففته لأريته [من ورائه] (٢) و يروى موقوفا . وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البضاء . وقال الحسن : هُنَّ فِي صِفَاءِ الْيَاقُوتِ ، وَبِياضِ الْمَرْجَانِ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ « هَلْ » في الكلام على أربعة أوجه : تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » ، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » ، وبمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ، وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ » ، و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » . قال عكرمة : أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . ابن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة ؟ قاله ابن زيد . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال : " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) كذا في الأصول ؛ والمعهود أن المرجان أحمر . (٣) راجع ج ١٩ ص ٣٠٦

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٠٩ (٥) راجع ج ٦ ص ٢٩٢ (٦) راجع ج ١٠ ص ١٠٣

هذه الآية فقال : ” يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قُدسي برحمتي “ وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد . وقال محمد بن الحنفية والحسن : هي مُسَجَّلَةٌ للبرِّ والعاجر ، أى مرسله على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة .

قوله تعالى : وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
مُذْهَبَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) أى وله من دون الجنة الأولى جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما في الدَّرَج . ابن زيد : ومن دونهما في الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ؛ فيكون في الأوليين النخل والشجر ، وفي الأخريين الزرع والنبات وما أنبسط . المساوردي : ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لاتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للغير العيين ، والأخرى للولدان المخلدين ؛ لتمييز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هي أربع : جنتان منها للسابقين المقربين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وجنتان لأصحاب اليمين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقربين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين .

قلت : إلى هذا ذهب الحليمي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب (منهاج الدين له) ؛ وأحتج بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » إلى قوله : « مُذْهَبَانِ » قال : تانك للمقربين ، وهاتان لأصحاب اليمين . وعن أبي موسى الأشعري نحوه . ولما وصف الله الجنة أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأوليين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وفي الأخريين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصَّاخَتَانِ » أى فوارتان ولكنهما ليسنا كالبحاريتين لأن النضج دون الحري . وقال في الأوليين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فتم ولم يخص . وفي الأخريين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

في الأوليين : « مُتَكِبَيْنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج ، وفي الآخرين « مُتَكِبَيْنَ عَلَى رَقَرِفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيَّ حِسَانٍ » والعبقريّ الوشّى ، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشّى ، والرقرف كسر الحباء ، ولا شك أن الفرش المعذّة اللّتكاء عليها أفضل من فضل الحباء . وقال في الأوليين في صفة الحور : « كَأَنَّهنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » ، وفي الآخرين « فِيهنَّ خَيْرَاتُ حِسَانٍ » وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان . وقال في الأوليين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفي الآخرين « مُدْهَمَّتَانِ » أى خضران كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، والآخرين بالخضرة وحدها ، وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ » واعلم ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنّتين كما ذكر أهل الجنّتين الأوليين ؟ قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب ، فالجنّتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى ، والجنّتان الآخرتان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنّتين الأوليين من ذهب وفضة ، والآخرين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين ، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ » أى ومن أمامهما ومن قبلهما . وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى (نواذر الأصول) فقال : ومعنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ » أى دون هذا إلى العرش ؛ أى أقرب وأدنى إلى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأوليين بما سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنّتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والآخرتان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعالى : (مُدْهَمَّتَانِ) أى خضران من الرى ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسودتان . والدّهمة فى اللغة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى أشدّت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه ؛ فإن زاد على ذلك حتى أشدّت السواد فهو جَوْنٌ . وادهمّ الفرس أدهمّ أى صار أدهم . وادهمّ الشيء أدهمّ أى أسود ؛ قال الله

تعالى : «مُذْهَبَانِ» أى سوداوان من شدة الخضرة من الرى ؛ والعرب تقول لكل أخضر أسود . وقال ليبد يرثى قتلى هوازن :

(١) وجاءوا به فى هودج ووراءه * كَأَنَّ خَضِرَ فِى سَبِيحِ السُّنُورِ
السُّنُورَ لَبُوسٌ مِنْ قَدِّ كَالْدَرْعِ . وسميت قُرى العراق سوادًا لكثرة خضرتها . ويقال
للبل المظلم : أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعالى : فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِيَهُمَا الْآءُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِيَهُمَا الْآءُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) أى فوارتان بالماء ؛ عن ابن عباس . والنضخ
بالحاء أكثر من النضج بالحاء . وعنه أن المعنى نضاختان بالخير والبركة ؛ وقاله الحسن ومجاهد .
ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دوراهل
الجنة كما ينضخ رش المطر . وقال سعيد بن جبیر : بأنواع الفواكه والماء . الترمذى :
قالوا بأنواع الفواكه والنعم^(٢) والجوارى المزينات والدواب المسرجات والنياب الملونات . قال
الترمذى : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ) فيه مسألان .

الأولى — قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة ؛ لأن الشئ لا يعطف
على نفسه إنما يعطف على غيره . وهذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة
وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعالى :

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى . (٢) فى ب . « النعم » .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ^(١) » وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ^(٢) » وقد تقدم . وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا ؛ لأن النخل عاقمة قوتهم ، والرمان كالثمرات ^(٣) ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها ؛ وإنما ذكر الغاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حديثها . وقيل : أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وهي المسألة :

الثانية — إذا حاف أن لا يأكل فاكهة فاكل رماناً أو رطباً لم يحنث . وخالفه أصحابه والناس . قال ابن عباس : الرمان في الجنة مثل البعير المقتتب . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيقها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحلّهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ؛ أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ؛ ليس فيه عجم ^(٤) . قال : وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القلال كلما نزلت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإن ماءها ليجرى في غير أخدود ، والعنقود آثنا عشر ذراعا .

قوله تعالى : ﴿ فَمِنْ خَيْرَاتٍ حَسَنَاتٍ ﴾ ^(٧٠) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٧١)

قوله تعالى : ﴿ فَمِنْ خَيْرَاتٍ حَسَنَاتٍ ﴾ فيه مسألان :

الأولى — قوله تعالى : « فَمِنْ خَيْرَاتٍ حَسَنَاتٍ » يعني النساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيْرَاتٍ » بمعنى خيرات نخفف ؛ كهيئ ولين . ابن المبارك : حدثنا

(٢) راجع ج ٢ ص ٣٦

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠٨

(٣) في حاشية الجبل نقلا عن القرطبي : والرمان كالشراب الخ . (٤) العجم — بالتحريك — : النوى

الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خيرة من « خَيْرَاتِ حَسَانٍ » أطاعت من السماء لأضاءت لها ، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر ، ولنصف^(١) كسائه خيرة خير من الدنيا وما فيها . « حَسَان » أى حَسَانُ الخلق ، وإذا قال الله تعالى : « حَسَانٌ » فن ذا الذى يقدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهرى وقسادة : « خَيْرَاتُ » الأخلاق « حَسَان » الوجوه . وروى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أم سلمة . وقال أبو صالح : لأنهن عذارى أبكار .

وقرأ قسادة وابن السَّمِيقِ وَأَبُو رَجَاءِ الْعُطَارْدِيُّ وَبُكَرُ بْنُ حَبِيبٍ الْمُهَمِّمِيُّ « خَيْرَاتُ » بالتشديد على الأصل . وقد قيل : إنَّ خَيْرَاتٍ جمع خَيْرٍ والمعنى ذوات خير . وقيل : مختارات . قال الترمذى : فالخيرات ما أختارهن الله فأبدع خلقهن بأختياره ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . ثم قال : « حَسَانٌ » فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك . وفى الأوليين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » و « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فانظر كم بين الخيرة وهى مختارة الله ، وبين قاصرات الطرف . وفى الحديث : « إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدى بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نطمعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ونحن خَيْرَاتُ حَسَانِ حَبِيبَاتٍ لأزواج كرام » . نخرجه الترمذى بمعناه من حديث على رضى الله عنه . وقالت عائشة رضى الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصليات وما صليتن ، ونحن العصائم وما صُممتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقتن . فقالت عائشة رضى الله عنها : فغلبن والله .

الثانية — وأختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات ؟ فقيل : الحور لما ذكر من وصفهن فى القرآن والسنة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام فى دعائه على الميت

(١) هو الخار وقيل المعجر . النهاية .

في الجنة : «وأبدله زوجاً خيراً من زوجه». وقيل : الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف ؛ وروى مرفوعاً . وذكر ابن المبارك : وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم^(١) عن حبان ابن أبي جبهة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقْنَ في الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصري . والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا وإنما هن مخلوقات في الجنة ؛ لأن الله تعالى قال : «لَمْ يَطْمِئُنْ^(٢) إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطمونات ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِنْ أَقْلٌ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النَّسَاءُ» فلا يصيب كل واحد منهم امرأة ، ووعد الحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهم من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ مِنْ رَبِّكَ تَكْذِيبَانَ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئُنْ^(٣) إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ مِنْ رَبِّكَ تَكْذِيبَانَ ﴿٧٥﴾»

قوله تعالى : «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ» «حُورٌ» جمع حوراء ، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم . «مَّقْصُورَاتٌ»^(٢) محبوسات مستورات «فِي الْحَيَّامِ» في الجبال لسن بالطوافات في الطرق ؛ قاله ابن عباس . وقال عمر رضي الله عنه : الخيمة دُرَّةٌ مجوفة . وقاله ابن عباس . وقال : هي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذي - الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ» : بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش نخلت الحور من قَطَرَاتِ الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلاً وليس لها باب ، حتى إذا دخل^(٣) ولي الله الجنة

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (يفتح أوله وسكون النون وضم المهملة) .

(٢) راجع ج ١ ص ٨٠

(٣) في ب : «حتى إذا أحل ولي الله بالجنة» .

أنصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها ، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال في الأولين : « فيهن قاصرات الطرف » فصرن طرفهن على الأزواج ولم يذكر أنهن مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مقصورات » قد قُصرن على أزواجهن فلا يردن بدلاً منهم . وفي الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصرًا حبسته ، ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وأمرأة قصيرة وقصورة أى مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج ، قال كثير :

وَأَنْتِ السَّيِّ حَبَيْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ * إِلَى مَا تَذِرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرُ
عَيَّتُ قَصِيرَاتِ الْجَمَالِ وَلَمْ أَرِدْ * قِصَارَ الْخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَائِرُ^(١)

وأنشده الفراء قصورة ، ذكره ابن السكيت . وروى أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "مررت ليلة أُسرى بي في الجنة بنهر حافاه قباب المرجان فنوديت منه السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوار من الحور العين استأذن ربهن في أن يسلمن عليك فأذن لهن فسلمن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ونحن الراضيات فلا نخطئ أبداً أزواج رجال كرام " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ » أى محبوسات حبس صيانة وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم ، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " نعم إذا أحسنتم تبعل أزواجكن وطلبن مرضاتهن " .

قوله تعالى : (لَمْ يَطْمِئُنْ) أى لم يمسكن على ما تقدم قبل . وقراءة العامة « يَطْمِئُنْ » بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مصرف والأعرج والشيرازي عن الكسائي

(١) البحائر : جمع بحيرة يضم الياء القصيدة المخصصة للخلق .

(٢) في نسخ الأصل بنت عيلة والنصح من التهذيب . (٣) مصاحبتهم في الزوجية والعشرة .

بضم الميم في الحرفين . وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّرُ في ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية . وهي قراءة أبي إسحق السبعمي . قال أبو إسحق : كنت أصلي خلف أصحاب علي^(١) فيرفعون الميم ، وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها ، فأستعمل الكسائي الأثرين . وهما لغتان طمُت وطَمِث مثل يَعْرِشُونَ وَيَمَكِّفُونَ ؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنما أعاد قوله : « لَمْ يَطْمِثْنِ » ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور الفاصرات الطرف . يقول : إذا [قصرن] كانت لهنّ الخيام في تلك الحال .

قوله تعالى : مُتَكَيِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ قوله تعالى : (مُتَكَيِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ) الرفرف المحابس^(٢) . وقال ابن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها ؛ وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظي : هي البسط . وقال ابن عيينة : هي الزرابي . وقال ابن كيسان : هي المرافق ؛ وقوله الحسن أيضا . وقال أبو عبيدة : هي حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضمر تبسط . وقيل : الفُرُش المرتفعة . وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرِف . قال ابن مقبل :

وإِنَّا لَنَرَاوَن تَغْشَى نِعَاؤَنَا * سَوَاقِطَ مِنْ أَصْنَافِ رِيْطٍ وَرَفْرِفٍ

وهذه أفعال متقاربة . وفي الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس ، الواحدة رَفْرَفَةٌ . وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنة ؛ وأشتقاق الرفرف

(١) في الأصول كلها : إذا ضجرت الخ والضجر لا يجوز في الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرت قصرن .

(٢) المحابس : جمع محبس كقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفي ل : المحابس وكلتا المعنيين صحيح

كما في اللغة .

من رَفَّ يَرَفْ إذا ارتفع ، ومنه رَفْرَفَةُ الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء . وربما سموا الظالم رَفْرَافًا بذلك ؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو . ورفرف الطائر أيضًا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . والرفرف أيضا كسر الجباء وجوانب الدرع وما تدلى منها ؛ الواحدة رَفْرَفَةٌ . وفي الخبر في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : فَرَفَعَ الرَّفْرَفَ فَرَأَيْنَا وَجْهَهُ كَأَنَّهُ وَرَقَةٌ ^(١) [تُخَشِخَشُ] أي رفع طرف الفسطاط . وقيل : أصل الرفرف من رَفَّ النَّبْتُ يَرَفُّ إذا صار غضًا نضيرًا ؛ حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثرت مائه من النعمة والغضاضة حتى كاد يهتز : رَفَّ يَرَفُّ رَفْفًا ؛ حكاه الهروي . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرِف به وأهوى به كالمرجاح يمينًا وشمالًا ورفعًا وخفضًا يتلذذ به مع أنيسته ؛ قاله الترمذی الحكيم في (نوادر الأصول) وقد ذكرناه في « التذكرة » . قال الترمذی : فالرفرف أعظم خطرًا من الفرش فذكره في الأولين « مُتَكَيِّمِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَكَيِّمِينَ عَلَى رَفْرِفٍ خُضِرٍ » فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الولي رفرِف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمرجاح ؛ وأصله من رفرِف بين يدي الله عز وجل ، روى لنا في حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، فذكر أنه قال : « طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربي » ثم لما حان الانصراف تناوله فطار به خفضًا ورفعًا يهوى به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد ؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذي منحره الله لأهل الجنة الدانيتين هو متكأهما وفرشهما ، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبَقْرِيُّ حَسَانٌ ﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضي الله عنه والمجذرى والحسن وغيرهم « مُتَكَيِّمِينَ عَلَى رَفَارِفٍ » بالجمع غير مصروف كذلك

« وَعَبَقِيرِيَّ حِسَانٍ » جمع رَفَرَفَ وَعَبَقِرَى . و « رَفَرَفَ » اسم للجمع و « عَبَقِرَى » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبَقَر . وقد قيل : إن واحد رَفَرَفَ وَعَبَقِرَى رَفَرَفَةٌ وَعَبَقِرِيَّةٌ ، والرَّفَارِفُ والعَبَاقِرُ جمع الجمع . والعَبَقِرَى الطَّنَافِسُ النِّخَانُ منها ؛ قاله الفراء . وقيل : الزَّرَابِيُّ ؛ عن ابن عباس وغيره . الحسن : هِيَ البُسْطُ . مجاهد : الدِّيَابَجُ . القَتَبِيُّ : كل ثوب وشي عند العرب عَبَقِرَى . قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وشى حِك . قال ذو الرِّمَّة :

حتى كَأَنَّ رِيَابُضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا * مِنْ وَشِي عِبَقَرٍ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ

ويقال : عَبَقِرِيَّةٌ بناحية اليمن تنسج فيها بُسْطٌ منقوشة . وقال ابن الأنباري : إن الأصل فيه أن عَبَقِرِيَّةً يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل . وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاجر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عَبَقِرَى . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضى الله عنه : “ فلم أر عَبَقِرِيًّا من الناس يَقْرِى فَرِيَّةً ” وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم “ فلم أر عَبَقِرِيًّا يَقْرِى فَرِيَّةً ” فقال : رئيس قوم وجلباهم . وقال زهير :

تَجْلِيلٌ عَلَيْهَا حِنَّةٌ عَبَقَرِيَّةٌ * جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا

وقال الجوهري : العَبَقِرَى موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن .

قال لييد :

* كُھُولٌ وَشُبَّانٌ كِحْنَةُ عَبَقَرٍ ^(١) *

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا : عَبَقِرَى وهو واحد وجمع . وفي الحديث : “ إنه كان يسجد على عبقرى ” وهو هذه البسطة التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظلم عبقرى وهذا عبقرى قوم للرجل القوى . وفي الحديث : “ فلم أر عَبَقِرِيًّا يَقْرِى فَرِيَّةً ” ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وَعَبَقِرِيَّ حِسَانٍ » وقرأه بعضهم

«عَبَاقِرِيَّ» وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِيٍّ وَكَرَامِيٍّ وَبُخْتِيٍّ وَبُخَاتِيٍّ . وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ «مُتَكِيْمِيْنَ عَلَى رَقَارِفِ خُضِرٍ وَعَبَاقِرِ حِسَانٍ» ذكره الثعلبي . وضم الضاد من «خضر» قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ «تَبَارَكَ» تفاعل من البركة وقد تقدم^(١) . «ذِي الْجَلَالِ» أى العظمة . وقد تقدم «وَالْإِكْرَامِ»^(٢) . وقرأ عامر «ذُو الْجَلَالِ» بالواو وجعله وصفاً للاسم ، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون «ذِي الْجَلَالِ» جعلوا «ذِي» صفة لـ «رَبِّكَ» . وكأنه يريد به الاسم الذى آففتح به السورة ؛ فقال : «الرَّحْمَنُ» فافتتح بهذا الاسم ، فوصف خلق الإنسان والجن ، وخلق السموات والأرض وصنعه ، وأنه «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» ووصف تدبيره فيهم ، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أى هذا الاسم الذى آففتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله نخرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقتم لكم السماء والأرض والخلق والخلقة والجنة والنار ؛ فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال : «ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» جليل فى ذاته ، كريم فى أفعاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أول السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

(١) راجع ج ١٣ ص ١

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

(٣) فى ب : «والشياطين» .

سورة الواقعة

مكية ، وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ » . وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات ، منها آيتان « أَفَهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ » نزلنا في سفره إلى مكة ، وقوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » نزلنا في سفره إلى المدينة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبا الأولين والآخرين ، ونبا أهل الجنة ، ونبا أهل النار ، ونبا أهل الدنيا ، ونبا أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر في « التمهيد » و « التعليق » والشعلبي أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعودده في مرضه الذي مات فيه فقال : ما تشكى ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفلا ندعوك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، حبسته عني في حياتي ، وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أنتحشى على بناتي الفاقة من بعدى ؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِمَنْ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ
هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار ، أى أذكروا

إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: «إذا» صلة؛ أى وقعت الواقعة؛ كقوله: «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ» و«أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» وهو كما يقال: قد جاء الصوم أى دنا وأقرب. وعلى الأول «إذا» للوقت، والجواب قوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ». (لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) الكاذبة مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر؛ كقوله تعالى: «لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ» أى لغوى، والمعنى لا يسمع لها كذب؛ قاله الكسائي. ومنه قول العسامة: عائدًا بالله أى معاذ الله، وقم قائمًا أى قم قيامًا. وابعض نساء العرب ترقصُ آبها:

قُمُ قائمًا قُمُ قائمًا * أصبت عبداً نائمًا

وقيل: الكاذبة صفة والموصوف محذوف، أى ليس لوقعتها حال كاذبة؛ أو نفس كاذبة؛ أى كل من يخبر عن وقعته صادق. وقال الزجاج: «لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» أى لا يردّها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة: وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها. وقال الكسائي^(٥) أيضا: ليس لها تكذيب؛ أى ينبغي ألا يكذب بها أحد. وقيل: إن قيامها جد لا هزل فيه.

قوله تعالى: (خَافِضَةً رَافِعَةً) قال عكرمة ومقاتل والسدي: خفضت الصوت فاستمعت من دنا ورفعت من نأى؛ يعنى استمعت القريب والبعيد. وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال ابن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيام

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.

(٤) في ب: «ليس لها كذب».

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٥

(٣) راجع ج ٢٠ ص ٣٣

(٥) في ب: «الحسن».

توسعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : لَيْلٌ نَائِمٌ ونهار صَائِمٌ . وفي التنزيل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ »^(١) والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ؛ فرفع أواباءه في أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه في أسفل الدرجات . وقرأ الحسن وعيسى الثقفي « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقيون بالرفع على إضمار مبتدأ ، ومن نصب فعله الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَذِبَةٌ — وقعت : خَافِضَةً رَافِعَةً . والقيامة لا شك في وقوعها ، وأنها ترفع أقواماً وتضع آخرين على ما بيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رَجَّه يَرْجِّه رَجًّا أي حركه وزلزله . وناقة رَجَاءُ أي عظيمة السَّعَام . وفي الحديث : « مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ حِينَ يَرْتَجُّ فَلَا ذِمَّةَ لَهُ » يعني إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبي : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً من الله تعالى . قال المفسرون : تَرْتَجُّ كما يَرْتَجُّ الصَّبِيّ في المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرِّجَّةُ الحركة الشديدة يسمع لها صوت . وموضع « إِذَا » نصب على البَدَل من « إِذَا وَقَعَتِ » . ويجوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةً رَافِعَةً » أي تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال ؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أي وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجاني . وقيل : أي أذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فتت ؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يبسّ الدقيق أي يُلْت . والبسيصة السويق أو الدقيق يُلْت بالسَّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الرازي :

لَا تُخْبِرَا خُبْرًا وَبُسًّا بَسًّا * وَلَا تُطَيِّلَا بِمُنَايَا حَبَسًا

وذكر أبو عبيدة : أنه لَصَّ من غَطَفَان أراد أن يخبر بخاف أن يُعَجَّل عن ذلك فأكله عَجِينًا .
 والمعنى أنها خُلِطَت فصارت كاللدفيق المشتوي بشيء من الماء . أى تصير الجبال تراباً فيختلط
 البعض ببعض . وقال الحسن : وَبُسَّتْ قَلَمَت من أصلها فذهبت ؛ نظيره : « يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا »^(١) . وقال عطية : بُسِطَت كالرمل والتراب . وقيل : البَسُّ السَّوْق أى سبقت الجبال .
 قال أبو زيد : البَسُّ السَّوْق ؛ وقد بسست الإبل أُنْسَهَا بالضم بسًا . وقال أبو عبيد : بسست
 الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بَسْ بَسْ . وفى الحديث : « يخرج قوم من المدينة
 إلى اليمن والشام والعراق يَبْسُون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ومنه الحديث الآخر :
 « جاءكم أهل اليمن يَبْسُون عِبَاهُمْ »^(٢) والعرب تقول : حَيُّ بِهِ من حَسَّك وبَسَّك . ورواهما
 أبو زيد بالكسر ؛ فمعنى من حَسَّك من حيث أحسسته ، وبَسَّك من حيث بلغه مسيرك . وقال
 مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدَّتْ هَذَا . محمد بن كعب : سِيرَتْ سِيرًا ؛ ومنه قول
 الأغلب العجلي^(٣) :

وقال الحسن : قطعت قطعًا . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ قال على رضى الله عنه : الهباء المنبث الزهج الذى
 يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، بفعل الله أعمالههم كذلك . وقال مجاهد : الهباء
 هو الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا :
 هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئًا . وقاله عطية . وقد
 مضى فى « الفرقان » عند قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُنثُورًا »^(٤)
 وقراءة العامة « مُنْبَثًا » بالناء المثلثة أى متفرقا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ »^(٥)
 أى فزق ونشر . وقرا مسروق والنخعي وأبو حيوة « مُنْبَثًا » بالناء المثناة أى منقطعًا من قولهم :
 بَثَّ الله أى قطعه ؛ ومنه البتات .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٤٥ (٢) أى يسوفون عباهم .

(٣) بياض بالأصول فى موضع الشاهد من قول الأغلب العجلي الراجز لم نعثر عليه .

(٤) الزهج بالفتح وبالإسكان الغبار . (٥) راجع ج ١٣ ص ٢٢ (٦) راجع ج ٢ ص ١٩٦

قوله تعالى : وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ما هو منه ، كما يشا كل الزوج الزوجة ، ثم بين من هم فقال : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و«السَّابِقُونَ» ؛ فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ؛ قاله السدى . والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة . يقال : فقد فلان شأمة . ويقال : يافلان شائم بأصحابك ؛ أى خذ بهم شأمة أى ذات الشمال . والعرب تقول لزيد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليمئن ، ولما جاء عن الشمال الشؤم . وقال ابن عباس والسدى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه يمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه شماله . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة — قال — فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح — قال — قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة التى عن يمينه وعن شماله تسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار» وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة

أصحاب التأخر . والعرب تقول : آجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك ؛ أى آجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير فى « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » . و« مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » و« الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » كما يقال : زيد ما زيد ! وفى حديث أم زرع رضى الله عنها : ^(١) مَا لَكَ وَمَا لَكَ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : « أَصْحَابُ » رفع بالابتداء والخبر « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » كأنه قال : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » ما هم ؛ المعنى : أى شئ هم . وقيل : يجوز أن تكون « ما » تأكيداً ، والمعنى فالذين يعطون كتابهم بإيمانهم هم أصحاب التقدم وعلو المنزلة .

قوله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السابِقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكوا للناس حكمهم لأنفسهم » ذكره المهدوى . وقال محمد بن كعب القرظى : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صَلُّوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » . وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحا إلى الصلاة . وقال على رضى الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ثم أثنى عليهم فقال : « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْحَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . وقيل : إنهم أربعة ؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ قاله ابن عباس ؛ حكاه الماوردى . وقال شبيب بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل أبى بكر للخير فى حدائنه سنة

(١) حديث أم زرع رواه مسلم فى فضائل الصحابة عن عائشة رضى الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة امرأة

تعاذهن وتعاقدن ألا يكن من أخبار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجى مالك وما مالك ! مالك خير

من ذلك ... الخ . الحديث . (٢) فى ب ، ز ، ح ، س ، ل ، هـ : « يوتون كتابهم » .

(٣) راجع ج ٨ ص ٢٣٥ (٤) راجع ج ٤ ص ٢٠٣ (٥) راجع ج ١٢ ص ١٢٣

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ، ورجل آبتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل آبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال . وقيل : هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح . ثم قيل : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبر ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقال الزجاج : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثاني خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله « أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » من صفتهم . وقيل : إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعالى : ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) أى جماعة من الأمم الماضية . (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) أى من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال الحسن : ثَلَاثَةٌ ممن قدمضى قبل هذه الأمة ، وقيل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم أجعلنا منهم بكرمك . وُسُّمُوا قَلِيلًا بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثير السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا . وقيل : لما نزل هذا شقَّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزات : « ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونيهم في النصف الثاني " رواه أبو هريرة ، ذكره الماوردى وغيره . ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر ؛ ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) وقل في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين : ه ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ » ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو

أن تكون أمتي شطر أهل الجنة“ ثم تلا قوله تعالى : « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » [قال مجاهد : كل من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبيان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الثَّلاثَانِ جَمِيعًا مِنْ أُمَّتِي » يعنى « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . قال أبو بكر رضى الله عنه : كِلَا الثَّلاثَيْنِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي أَوَّلِ أُمَّتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي آخِرِهَا ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ » . وقيل : « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أى من أول هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع فى الطاعات حتى يلحق درجة الأولين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي » ثم سوى فى أصحاب اليمين بين الأولين والآخين . والثَلَاثَةُ من ثَلَاثِ الشَّيْءِ أى قطعته ، فعنى ثَلَاثَةٌ كَمَعْنَى فَرْقَةٍ ؛ قَالَه الزَّجَّاجُ .

قوله تعالى : (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ) أى السابقون فى الجنة « عَلَى سُرُرٍ » ؛ أى مجالسهم على سرر جمع سرير . « مَوْضُونَةٍ » قال ابن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالذر والياقوت . وعن ابن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال فى موضع آخر : « عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ » . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمُولَةٌ بالذهب . وفى التفسير : « مَوْضُونَةٍ » أى منسوجة بتضبان الذهب مشبكة بالذر والياقوت والزبرجد . والوَضْنُ النسيج المضاعف والتضد ؛ يقال : وَضَنَ فُلَانٌ الْحَجَرَ وَالْأَجْرَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فَهُوَ مَوْضُونٌ ، وَدَرَعٌ مَوْضُونَةٌ أى محمكة فى النسيج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

وَمِنْ نَسِجٍ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ * نَسِيقٌ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعِيرًا

وقال أيضا :

وَبَيْضَاءُ كَالنَّهْيِ مَوْضُونَةٍ * لَهَا قَوَائِسُ فَوْقَ جَنِبِ الْبَدَنِ

(١) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، ل ، هـ . (٢) راجع ج ١٤ آية ٢٢

(٢) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٣) مرمولة : منسوجة .

والسرير الموضون : الذى سطحه بمنزلة المنسوج ؛ ومنه الوضين : بطآن من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض ؛ ومنه قوله :

* إِلَيْكَ تَعْدُو قَالِقًا وَضِيئًا ^(١) *

(مُتَكَيِّئِينَ عَلَيْهَا) أى على السرر (مُتَقَابِلِينَ) أى لا يرى بعضهم قفًا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ؛ أى يتكئون متقابلين . قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبي : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها آرتفعت .

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَنْوَاصٍ وَابَّارٍ يَاقُوتَ كَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهَاتٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) أى غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد . الحسن والكلبي : لا يهرمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وَهَلْ يَنْعَمَنَّ إِلَّا سَعِيدٌ مُّخَلَّدٌ * قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا بَيْتُ بِأَوْجَالٍ

وقال سعيد بن جبیر : مُّخَلَّدُونَ مُقَرَّبُونَ ؛ يقال للقرط الخلدّة ولجماعة الحسبي الخلدّة .

وقيل : مسؤرون ونحوه عن الفراء ؛ قال الشاعر :

وَمُخَلَّدَاتٌ بِالْبُجَيْنِ كَأَمَّا * أُنْجَازُهُنَّ أَقَاوِزُ الْكُتُبَانِ ^(٢)

(١) الضمير يعود على النافذة ؛ أراد أنها قد هزلت وودعت للسير عليها .

(٢) الأقاوير جمع فوز وهو كتيب من الرمل صغير ؛ شبه به أرداف النساء ، بالإضافة لليان ،

وقيل : مقرطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : « مُخَلَّدُونَ » منعمون . وقيل : على سن واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة . وقال عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسيّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يماقبون عليها ، فوضعوا في هذا الموضع . والمقصود : أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم بأحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . (يَأْكُوبُ وَأَبَارِيقُ) أكواب جمع كوب وقد مضى في « الزخرف » وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سُمي بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . (وَكُلُّسٌ مِنْ مَّعِينٍ) مضى في « والصفات » القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو نحر ؛ غير أن المراد فى هذا الموضع النحر الجارية من العيون . وقيل : الظاهرة للعيون فيكون « معين » مفعولاً من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المعن وهو الكثرة . وبين أنها ليست نحمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلف ومعالجة .

قوله تعالى : (لَا يُصَدِّعُونَ عَمَّا) أى لا تنصدع رؤوسهم من شربها ؛ أى لأنها لذة بلا أدنى بخلاف شراب الدنيا . (وَلَا يَنْزِفُونَ) تقدم فى « والصفات » أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : « لَا يُصَدِّعُونَ » بمعنى لا يتصدعون أى لا يتفرقون ؛ كقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ » . وقرأ أهل الكوفة « يَنْزِفُونَ » بكسر الزاى ؛ أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى نحرهم ؛ ومنه قول الشاعر :^(١)

لَعَمْرِي لَسُنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ * لَيْسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ الْبُحْرَا

(١) راجع ج ١٦ ص ١١٢

(٢) راجع ج ١٥ ص ٧٧

(٣) راجع ج ١٤ ص ٤٢

(٤) هو الخطيئة وقد تقدم البيت فى ج ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : في الحجر أربع خصال : الشُّكْر والصدَّاع والقيء والبول ، وقد ذكر الله تعالى نحر الجنة فترها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية ، والتخير الاختيار . ﴿ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر ؟ قال : ” ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعني في الجنة — أشد بياضاً من اللبن . أحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر “ قال عمر : إن هذه لناعمة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أَكَلْتُهَا أَحْسَنُ مِنْهَا “^(١) قال : حديث حسن . وخرجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن في الجنة طيراً مثل أعناق البُحْت تصطقف على يد ولي الله فيقول أحدها يا ولي الله رَعَيْتُ في مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسْنِيم فكلُّ مَنِّي فلا يزالان يفتخران بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتختار بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرمي في الجنة حيث شاء “ فقال عمر : يا نبي الله إنها لناعمة . فقال : ” أَكَلْتُهَا أَتَعْمُ مِنْهَا “ . وروى عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن في الجنة طيراً في الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صفحة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير “ .

قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجرب فمن جرو هو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفاً على « بَاكُوبٍ » وهو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور ؛ قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفاً على « جَنَّاتٍ » أي هم في « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفي حور على تقدير حذف المضاف ؛ كأنه قال : وفي معاشر

(١) في نسخ الأصل : أَكَلْتُهَا أَتَعْمُ مِنْهَا . وما أثبتناه هو ما في صحيح الترمذي .

حور . الفراء : الجر على الإتيان في اللفظ وإن اختلفا في المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهن ؛ قال الشاعر :

إذا ما الغايات برزت يوماً * وزجج الحواجب والعيونا
والعين لا ترجع وإنما تكمل . وقال آخر :

ورأيت زوجك في الوغى * متقلداً سيفاً ورُمحاً

وقال قُطْرِب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة . ومن نصب وهو الأنثى العقبيل والتخمي وعيسى بن عمر النخعي وكذلك هو في مصحف أبي ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوجون حوراً عينا . والحمل في النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يعطونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم — فعلى معنى وعندهم حور هن ؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائي : ومن قال : « وحور عين » بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهن يلزمه ذلك في فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالجر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثلثة » و « ثلثة » ابتداء وخبره « على سرير موضوعة » وكذلك « وحور عين » وأبتداء بالكرة لتخصيصها بالصفة . (كأمثال) أى مثل أمثال (اللؤلؤ المكنون) أى الذى لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاء وتألوا ؛ أى هن فى تشا كل أجسادهن فى الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر :

كأنما خلقت فى قشير لؤلؤة * فكل أكنافها وجه لمرصاد

(جزاء بما كانوا يعملون) أى ثواباً ونصبه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى « يطوف عليهم ولدان مخلدون » يجازون . وقد مضى الكلام فى الحور العين فى « والطور »^(١) وغيرها . وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الحور العين

من الزعفران“ وقال خالد بن الوايد: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ”إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء أو نظرت للشمس لا تخرجت الشمس من حسننها من غير أن ينقص من التفاحة“ فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجب ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجلها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى نديها من المسك الأذفر، ومن نديها إلى عنقها من العنبر الأثهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان^(١)، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقعة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادى: هذا ثواب الأولياء « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ قال ابن عباس: باطلا ولا كذبا . واللغو ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثمته أى قات له أثمت . محمد بن كعب: « وَلَا تَأْثِيمًا » أى لا يؤثم بعضهم بعضاً . مجاهد: « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا » شتاً ولا مائماً . ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ « قِيلًا » منصوب بـ « يَسْمَعُونَ » أو استثناء منقطع أى لكن يقولون قِيلًا أو يسمعون . و « سَلَامًا سَلَامًا » منصوبان بالقول؛ أى إلا أنهم يقولون الخير . أو على المصدر أى إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً . أو يكون وصفاً لـ « قِيلًا » ، والسلام الثانى بدل من الأول ، والمعنى إلا قِيلًا يسلم فيه من اللغو . ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم . قال ابن عباس: أى يحیی بعضهم بعضاً . وقيل: تحييمهم الملائكة أو يحييمهم ربهم عز وجل .

(١) شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر . الواحدة شقيقة النعمان .

قوله تعالى : وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٣٠﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣١﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣٢﴾
وَفَلَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٣﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٥﴾
إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٦﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٧﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾
لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولِينَ ﴿٤٠﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب
الميمنة وهم السابقون على ما تقدم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه . ﴿ فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ ﴾ أى فى نبق قد خُضد شوكة أى قطع ؛ قاله ابن عباس وغيره . وذكر ابن المبارك :
حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه
لينفعنا الأعراب ومساؤلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً ، فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر
الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ” وماهى ” قال : السدر فإن له شوكة مؤذية ؛ فقال صلى الله عليه وسلم :
” أو ليس يقول « فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خُضد الله شوكة بفعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت
ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام مافيه لون يشبه الآخر ” . وقال
أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (وهو وادٍ بالطائف مخصب) ^(١) فاعجبهم سدره ،
فقالوا : ياليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة :

إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَّةِ ظِلِيلَةٌ * فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : « فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملاً . وهو
قريب مما ذكرنا فى الخبر . سعيد بن جبير : ثمرة أعظم من القلال . وقد مضى هذا فى سورة

(١) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف ، وقيل هى الطائف .

« النجم » عند قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » وأن ثمرها مثل قلال هجر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ) الطَّلَح شجر الموز واحده طلحة . قاله أكثر المفسرين على وابن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك ؛ قال بعض الحداة وهو الجعدى :
بَثْرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَآ * غَدَا تَرَيْنَ الطَّلَحَ وَالْأَحْبَالَ^(٢)

فالطَّلَح كل شجر عظيم كثير الشوك . الزجاج : يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له] نور طيب جدا نحو طهوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا . وقال السدي : طلع الجنة يشبه طلع الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علي بن أبي طالب رضي عنه الله : « وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ^(٥) » وهو خلاف المصحف . في رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو « وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » ف قيل له : أفلا نحولها ؟ فقال : لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحول . فقد أختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رسمه مجمع عليه . قاله القشيري . وأسند أبو بكر الأنباري قال : حدثني أبي قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عباد قال : قرأت عند عليّ أوقرئت عند عليّ — شك مجالد — « وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » فقال عليّ رضي الله عنه : ما بال الطلح ؟ أما تقرأ « وَطَلَحٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكها من المصحف ؟

(١) راجع ص ٩٤ وص ٥ من هذا الجزء .

(٢) كذا في الأصول « الحداة » بالخاء المهملة والذي في تفسير الطبري « الحداة » بالميم .

(٣) الأحبال جمع حبل بالضم : ثمر السلم والبال والسمرا وثمر الغضاء عامة .

(٤) زيادة يقتضها السياق . (٥) راجع ج ١٣ ص ١٢٧

فقال : [لا] لا يهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذي كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذي [قد] ^(١) نُضِدَ أوله وآخره بالحمـل ، ليست له سُوْقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنضد هو الرص والمنضد المرصوص ، قال النابغة :

خَافَتْ سَبِيلَ أَتَى كَانَ يَحْبِسُهُ * وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالنَّضْدِ

وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمركه ، كلما أكل ثمرة عاد مكانها أحسن منها .

قوله تعالى : ﴿ وَظِلٌّ مُمْدُودٌ ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ، كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَائِكًا » وذلك بالغداة وهى ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدم بيانه هناك . والجنة كلها ظل لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والثمى الذى لا ينقطع ممدود ؛ وقال لبيد :

غَلَبَ الْعَزَاءُ وَكَنتُ غَيْرَ مُغَلَّبٍ * دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودٌ

وفى صحيح الترمذى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : " وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها وأقرءوا إن شئتم « وَظِلٌّ مُمْدُودٌ » . (وماء مَسْكُوبٌ) أى جارٍ لا ينقطع وأصل السكب الصب ؛ يقال : سكب سَكَبًا ، والسُّكُوبُ أنصبابه ؛ يقال : سَكَبَ سَكُوبًا ، وَأَنْسَكَبَ أَنْسَكَابًا ؛ أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أحواد لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوجدوا فى الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب التزهة المعروفة فى الدنيا ، وهى الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار وأطرافها .

(١) زيادة من ب . (٢) راجع ج ١٢ ص ٣٧ .

قوله تعالى : « وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ » أى ليست بالقليلة العريضة كما كانت فى بلادهم
 « لَا مَقْطُوعَةٍ » أى فى وقت من الأوقات كإقطاع فواكه الصيف فى الشتاء « وَلَا مَمْنُوعَةٍ »
 أى لا يحظر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا يمنع من أرواحها بشوك ولا بعد
 [ولا] حائط ، بل إذا أشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذَلَّلْتَ قُطُوفَهَا ^(١)
 تَذِيلًا » . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالآثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » روى الترمذى [عن أبى سعيد] عن النبى صلى الله عليه وسلم
 فى قوله تعالى : « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » قال : « أرتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة
 سنة » قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد . وقال بعض أهل العلم
 فى تفسير هذا الحديث : الفُرش فى الدرجات ، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض .
 وقيل : إن الفُرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ولم يتقدم لهن ذكر ، ولكن قوله
 عز وجل : « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » دال ؛ لأنها محل النساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار
 فى حسنهن وكما لهن ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً » أى خلقناهن خلقاً وأبدعناهن
 إبداعاً . والعرب تسمى المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً ؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » .
 ثم قيل : على هذا هن الحصور العين ؛ أى خلقناهن من غير ولادة . وقيل : المراد نساء
 بنى آدم ؛ أى خلقناهن خلقاً جديداً وهو الإعادة ؛ أى أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال .
 والمعنى أنشأنا العجوز والصبيبة إنشأً واحداً ، وأضمرن ولم يتقدم ذكرهن ؛ لأنهن قد دخلن
 فى أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرش كناية عن النساء كما تقدم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم
 فى قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً » قال : « منهن البكر والثيب » . وقالت أم سلمة
 رضى الله تعالى عنها : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً
 بِفَعْلَتْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : « يا أم سلمة هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز
 شُطَطاً عُمُشاً رُمِعْنَ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد فى الأستواء » أسنده النحاس
 عن أنس قال : حدثنا أحمد بن عمرو قال : حدثنا عمرو بن على قال : حدثنا أبو عاصم عن

(١) زيادة من ب . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٣٧ . (٣) راجع ج ٢ ص ٣١٦ .

موسى بن عبيدة ، عن يزيد الرفاعي ، عن أنس بن مالك رفعه « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال :
 « هُنَّ الْعَجَائِزُ الْعُمَشُ الرُّمَصُ كُنَّ فِي الدُّنْيَا عُمَشًا رُمَصًا » . وقال المسيب بن شريك :
 قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » [الآية ^(١)] قال : « هُنَّ عَجَائِزُ الدُّنْيَا
 أَنْشَأَهُنَّ اللَّهُ خَلْقًا جَدِيدًا كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ أَبْكَارًا » فلما سمعت عائشة ذلك
 قالت : واوجمها ! فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ هُنَاكَ وَجَعٌ » . (عُرْبًا)
 جمع عُرُوب . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : الْعُرْبُ الْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ . وعن
 ابن عباس أيضا : إنها العرُوب الملقبة . عكرمة : الغنجة . ابن زيد : بلغة أهل المدينة .
 ومنه قول لبيد :

وَفِي الْجَبَاءِ عُرُوبٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ * رِيًّا الرُّوَادِفِ يَغْتَنِي دُونَهَا الْبَصْرُ ^(٢)

وهي الشَّكْلَةُ بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أحلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة
 أيضا وقنادة : الْعُرْبُ الْمُتَحَبِّبَاتُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، وَاشْتِفَاقُهُنَّ مِنْ أَعْرَبِ إِذَا بَيْنَ ، فَالْعُرُوبُ تَبَيَّنَ
 مَحَبَّتُهَا لَزَوْجِهَا بِشَكْلِ وَغُنْجٍ وَحَسَنِ كَلَامٍ . وقيل : إنها الحسنة التَّبَعْلُ لَتَكُونَ الَّذِ اسْتِمَاعًا .
 وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرْبًا »
 قال : « كَلَامُهُنَّ عَرَبِيٌّ » . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم « عُرْبًا » بإسكان الراء . وضم
 الباقرن وهما جائزان في جمع فَعُول . « أَتْرَابًا » على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة
 ثلاث وثلاثين سنة . يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من
 جاوزت حد الصَّبَا من النساء وَانْحَطَّتْ عَنْ الْكِبَرِ . وقيل : « أَتْرَابًا » أمثالا وأشكالاً ؛
 قاله مجاهد . السُّدَى : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهم ولا تحاسد . (لَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)
 قيل : الخور العين للسابقين ، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) رجع الكلام إلى قوله تعالى :
 « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أي هم « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ »
 وقد مضى الكلام في معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك :

(١) زيادة من ب . (٢) في الديوان : « وفي الحروج » جمع الحرج ، وهو المودج .

(٣) الشَّكْلَةُ (بفتح الشين وكسر الكاف) : ذات الدل . (٤) أي مطاوعة لزوجها محبة له .

« ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعنى من سابق هذه الأمة « وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها ، يدل عليه ما روى عن ابن عباس فى هذه الآية « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هم جميعاً من أمتى » . وقال الواحدى : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هذه الأمة . وهذا يردّه ما رواه ابن ماجه فى سننه والترمذى فى جامعه عن بريدة بن حصيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثَلَاثَةٌ » رفع على الابتداء ، أو على حذف خبر حرف الصفة ، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلثان : ثلثة من هؤلاء وثلثة من هؤلاء . والأولون الأمم الماضية ، والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعالى : وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمُكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَتَكُونُ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ آهِيمٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَّاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ النَّارِ مَا أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم، ثم عظم ذكركم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في سُمُومٍ والسُمُومُ الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن . والمراد هنا حر النار ولفحها . ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أى ماء حار قد انتهى حره، إذا أحرقته النار أبكادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذى يفرع من النار إلى الماء ليطفئ به الحرق فيجده حميماً حاراً في نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى في « القتال » « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . ﴿وِظَلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أى يفرعون من السُمُوم إلى الظل كما يفرع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يحوم ، أى من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليعموم في اللغة : الشديد السواد وهو يفعل من الحَمِّ وهو الشَّحْمُ المسود بأحترق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحَمِّ وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود . وعن ابن عباس أيضاً : النار سوداء . وقال ابن زيد : اليعموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . ﴿لَا يَأْرِيهِ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم . ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذب ؛ عن الضحاك . وقال سعيد بن المسيب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَِظَلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أى من النار يعدَّبون بها ، كقوله تعالى : « لَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ » . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام . والمترف المنعم ؛ عن ابن عباس وفضيره . وقال السدي : « مُتْرَفِينَ » أى مشركين . ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ أى يقيمون على الشرك ؛ عن الحسن والضحاك وابن زيد . وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه . الشعبي : هو اليمين الغموس وهى من الكجائر؛ يقال : خِث في يمينه أى لم يبرها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حشمتهم ؛ قال الله تعالى مخبراً عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » . وفى الخبر:

كَانَ يَتَخَنَّتْ فِي حِرَاءٍ ، أَيْ يَفْعَلُ مَا يَسْقُطُ عَنْ نَفْسِهِ الْحَنْثَ وَهُوَ الذَّنْبُ . (وَكَأَنُوهَا يَقُولُونَ
 إِذَا مِتْنَا) هَذَا اسْتِعْجَالٌ مِنْهُمْ لِأَمْرِ الْبَعْثِ وَتَكْذِيبٌ لَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (قُلْ) لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ
 (إِنَّ الْأَوَّلِينَ) مِنْ آبَائِكُمْ (وَالْآخِرِينَ) مِنْكُمْ (لَجَمْعُهُمْ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْتُومٍ) يَرِيدُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَمَعْنَى الْكَلَامِ الْقَسَمَ وَدُخُولَ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « لَجَمْعُهُمْ » هُوَ دَلِيلُ
 الْقَسَمِ فِي الْمَعْنَى ؛ أَيْ إِنَّكُمْ لَجَمْعُهُمْ قَسَمًا حَقًّا خِلَافَ قَسَمِكُمُ الْبَاطِلِ (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمْ الْضَّالُّونَ)
 عَنْ الْهَدْيِ (الْمُكْذَّبُونَ) بِالْبَعْثِ (لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ) وَهُوَ شَجَرٌ كَرِهَ الْمَنْظَرَ ،
 كَرِهَ الطَّعْمَ ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي سُورَةِ « وَالصَّافَّاتِ » . (قَالَتِ الْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ) أَيْ مِنْ
 الشَّجَرَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ . وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ « مِنْ » الْأَوَّلَى زَائِدَةً ، وَيَجُوزُ
 أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا كَأَنَّهُ قَالَ : « لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ » طَعَامًا . وَقَوْلُهُ :
 « مِنْ زَقُومٍ » صِفَةٌ لِشَجَرٍ ، وَالصِّفَةُ إِذَا قُدِّرَتْ الْجَارُ زَائِدًا نَصَبَتْ عَلَى الْمَعْنَى ، أَوْ جَرَتْ
 عَلَى اللَّفْظِ ، فَإِنْ قُدِّرَتْ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا لَمْ تَكُنِ الصِّفَةُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ جَرٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ) أَيْ عَلَى الزَّقُومِ أَوْ عَلَى الْأَكْلِ أَوْ عَلَى الشَّجَرِ ؛ لِأَنَّهُ
 يَذْكُرُ وَيُؤْنِتُ . (مِنَ الْحَمِيمِ) وَهُوَ الْمَاءُ الْمَغْلَى الَّذِي قَدْ أَشْتَدَّ غَلِيَانُهُ وَهُوَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ .
 أَيْ يُوْرِهِمْ حَرْمًا يَأْكُلُونَ مِنَ الزَّقُومِ مَعَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ عَطْشًا فَيَشْرَبُونَ مَاءً يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَزِيلُ
 الْعَطْشَ فَيَجِدُونَهُ حَمِيمًا مَغْلَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ) قِرَاءَةٌ نَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ « شُرْبٌ » بِضَمِّ الشَّيْنِ .
 الْبَاقُونَ بَفَتْحِهَا لِفَتْحَانِ جَيِّدَتَانِ ؛ أَقُولُ الْعَرَبُ : شَرِبْتُ شُرْبًا وَشَرَبًا وَشُرْبًا بِضَمَّتَيْنِ .
 قَالَ أَبُو زَيْدٍ : سَمِعْتُ الْعَرَبَ يَقُولُ بِضَمِّ الشَّيْنِ وَفَتْحِهَا وَكُسْرُهَا ، وَالْفَتْحُ هُوَ الْمَصْدَرُ الصَّحِيحُ ؛
 لِأَنَّ كُلَّ مَصْدَرٍ مِنْ ذَوَاتِ الثَّلَاثَةِ فَاصِلُهُ فَعْلٌ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَرُدُّهُ إِلَى الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ ؛ فَتَقُولُ :
 فَعْلَةٌ نَحْوُ شُرْبَةٍ وَبِالضَّمِّ الْأَسْمُ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمَفْتُوحَ وَالْأَسْمَ مَصْدَرَانِ ، فَالشُّرْبُ كَالْأَكْلِ ،
 وَالشُّرْبُ كَالَّذِكْرِ ، وَالشُّرْبُ بِالْكَسْرِ الْمَشْرُوبُ كَالطَّعْنِ الْمَطْحُونِ . وَالْهَيْمُ الْإِبِلُ الْعِطَاشُ الَّتِي

لا تروى لداء بصيبيها، عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم؛ وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً، واحداً أهيم والأثنى هيأ. ويقال لذلك الداء الهيام؛ قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيام أصابه * وقد عليت نفسي مكان شفاها

وقوم هيم أيضاً أى عطاش، وقد هاموا هيأماً. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهامة والجمع هيم؛ قال لبيد:

أَجَزْتُ إِلَى مَعَارِفِهَا بِشُعَيْثٍ^(١) * وَأَطْلَاجٍ مِنَ الْعَيْدِيِّ هِيمٍ^(٢)

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل. وروى أيضاً عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء. المهدوى: ويقال لكل مالا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيأ. وفي الصحاح: والهيام بالضم أشد العطش. والهيام كالجنون من العشق. والهيام داء يأخذ الإبل فتهم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هيأ. وهيأ أيضاً المفازة لا ماء بها. والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتأسك أن يسيل من اليد لئيمه والجمع هيم مثل قذال وقذيل. والهيام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيأ، وناقة هيأ مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى رزقهم الذى بعد لهم، كالنزل الذى بعد للأضياف تركة لهم، وفيه نهكم؛ كما فى قوله تعالى: « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^(٣) » وكقول أبى السعد الضبى:

وَكَمَا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا * جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمَرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبى عمرو « هَذَا نُزُلُهُمْ » بإسكان الزاى؛ وقد مضى فى آخر « آل عمران » القول فيه. « يَوْمَ الدِّينِ » يوم الجزاء، يعنى فى جهنم.

(١) شعيت: رجال ساءت حالهم من الجهد والسكر. وأطلاج: إبل مهازيل والواحد طليح. والعيدى: إبل

منسوبة إلى لخل، ويقال منسوبة إلى قوم يقال لهم العيد. (٢) أى خففت وكسرت لها. لأجل الياء.

(٣) راجع ج ٨ ص ١٢٨ (٤) راجع ج ٤ ص ٣٢١

قوله تعالى : نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾
 ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ
 وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ وَتُتَشَكَّرَ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
 وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلا تصدقون بالبعث ؟ لأن الإعادة
 كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟
 قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبونه من المني في أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ
 تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصورون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقصدون المصورون . وهذا
 احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأننا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث .
 وقرأ أبو السَّمال ومحمد بن السَّمِيع وأشهب العقيلي : « تَمْنُونَ » بفتح التاء وهما لغتان أمّتي
 ومَنى ؛ وأمدى ومَدَى ، يُمْنِي وَيُمْنِي وَيُمْدِي وَيُمْدِي . الماوردي : ويحتمل أن يختلف معناهما
 عندي ؛ فيكون أمّتي إذا أنزل عن جماع ، ومَنى إذا أنزل عن الاحتلام . وفي تسمية المني
 مَنِيًّا وجهان : أحدهما لإمناؤه وهو إراقته . الثاني لتقديره ، ومنه المنى الذى يوزن به لأنه
 مقدار لذلك ، كذلك المني مقدار صحيح لتصوير الحلقة .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ احتجاج أيضاً ، أى الذى يقدر على الإمانة
 يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحيد وابن محيَّصن
 وابن كثير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد ، قال الضحاك : أى سويننا بين أهل
 السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبق
 غيره عز وجل . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكُم
 لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » معناه بملوئين . وقال الطبري : المعنى
 نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكُم بعد موتكم بأخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين

في آجالكم ؛ أى لا يتقدم متأخرو ولا يتأخر متقدم . ﴿ وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والحيثات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا ، فيجعل المؤمن بيضاء وجهه ، ويقبح الكافر بسواد وجهه . سعيد بن جبير ^(١) : قوله تعالى : « فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون يبرهوت كأنها الخطاطيف ، وبرهوت وادٍ فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أى إذ خلقتكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ولم تكونوا شيئاً ؛ عن مجاهد وغيره . قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كل العجب للكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو لا يسمي لدار القرار . وقراءة العامة « النَّشْأَةَ » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو : « النَّشْأَةَ » بالمد ؛ وقد مضى فى « العنكبوت » ^(٢) بيانه .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزْرَعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمَاً فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أى أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويمر على اختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

(١) فى ب : « سعيد بن المسيب » .

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٣٧

وينبت على اختياره لا على اختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقوان أحدكم زرعاً وليقل حرثاً فإن الزارع هو الله " قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ . والمستحب لكل من يلقى البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة « أَفَوَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » الآية ، ثم يقول : بل الله الزارع والمذنب والمبلغ ، اللهم صل على محمد ، وآرزقنا ثمره ، وجنبنا ضرره ، وأجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يارب العالمين . ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات : الدود والجراد وغير ذلك ؛ سمعناه من ثقة وجرب فوجد كذلك . ومعنى « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تجعلونه [زرعاً] . وقد يقال : فلان زراع كما يقال حراث ، أى يفعل ما يشول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزراع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريها تجوُّزاً .

قلت : فهو نهى [إرشاد] [وأدب] لانهى حظرو وإيجاب ؛ ومنه قوله عليه السلام : " لا يقوان^(١) أحدكم عبدى وأمتى وليقل غلامى وجارىتى وقتاى وقتاى " وقد مضى فى « يوسف » القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرث فأصبت ، بل يقل : أعانى الله حرثى ، وأعطانى بفضلله ما أصبت . قال الماوردى : وتتضمن هذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الأمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثانى — البرهان الموجب الاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد ثلاثى بذره ، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتريب حتى صار زرعاً أخضر ، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه ؛ فهو بإعادة من أمارت أخف عليه وأقدر ؛ وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطر السليمة . ثم قال ﴿ أَوْ نَسَاءُ لِحَمَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى متكسراً يعنى الزرع . والحطام الحشيم الهالك الذى لا ينتفع به فى مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضاً على أمرين : أحدهما — ما أولاهم به من النعم فى زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه . الثانى — ليعتبروا بذلك فى أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) الزيادة : من ب ، ز ، ح ، س ، ل ، هـ .

(٣) راجع ج ٩ ص ١٩٤

الزرع حطاماً إذا شاء ، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فيتزجروا . (فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ)
 أى تمجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما . وفى الصحاح : وتفكّه
 أى تعجب ، ويقال : تندم ، قال الله تعالى : « فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ » أى تندمون . وتفكّمت بالشيء
 تمتعت به . وقال يمان : تندمون على نفقاتكم ؛ دليله : « فَأَصْبَحَ يُلْقِي كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا » .
 وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما ساف منكم من معصية الله التى أوجبت عقوبتكم
 حتى نالكم فى زرعكم . ابن كيسان : تحزنون ؛ والمعنى متقارب . وفيه لغتان : تَفَكُّهُونَ
 وَتَفَكَّكُنُونَ : قال الفراء : والنون لغة عُكُل . وفى الصحاح : التفكّن التندّم على ما فات .
 وقيل : التفكّه التكلم فيما لا يعنيك ، ومنه قيل لازاح فُكَّاهة بالضم ؛ فأما الفُكَّاهة بالفتح فصدر
 فِكِه الرجل بالكسر فهو فِكِه إذا كان طيب النفس مزاحاً . وقراءة العامة « فَظَلَّمْتُمْ » بفتح
 الظاء . وقرأ عبد الله « فَظَلَّمْتُمْ » بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبى بكر . فمن فتح
 فعلى الأصل ، والأصل ظَلَلْتُمْ فحذف اللام الأولى تخفيفاً ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى
 إلى الظاء ثم حذفها . (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) وقرأ أبو بكر والمفضل « إِنَّا » بهمزتين على الاستفهام ،
 ورواه عاصم عن زَرِّ بْنِ حُبَيْش . الباقر بن همزة واحدة على الخبر ؛ أى يقولون « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ »
 أى معذبون ؛ عن ابن عباس وقتادة قالوا : والغرام العذاب ؛ ومنه قول ابن المحمّل :

ونقت بأن الحفظ منى سجيّة * وأن فؤادى مُبَيِّل بك مغرُم

وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ؛ ومنه قول النّير بن تَوَّاب :

سَلَا عَنْ تَذْكُرِهِ تُكْتَمُ * وَكَانَ رَهِيناً بِهَا مُغْرَمًا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم . وقال مجاهد أيضاً :
 لماقون شراً . وقال مقاتل بن حيان : مهلكون . النحاس : « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مأخوذ من الغرام
 وهو الهلاك ؛ كما قال :

يَوْمُ النَّسَارِ وَيَوْمُ الْحَفَا * رِكَانَا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامًا

(١) راجع ج ١٠ ص ٤٠٩ (٢) تكتم : أستم من يشبب بها . (٣) قاله بشر بن أبى خازم . النّسار موضع
 وقيل : هو ما لبى عامر . والحفار : موضع وقيل : هو ما لبى نعيم . ويوم النّسار ويوم الحفار : يومان من أيام العرب ، مشهوران .

الضحاك وابن كيسان : هو من الغرم ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غير منا الحَبّ الذى بذرناه . وقال مرة الهمداني : محاسبون . (بَلْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ) أى حرمانا ما طلبنا من الربيع . والمحروم المنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو المحاريف فى قول قتادة . وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مرة بأرض الأنصار فقال : " ما يمنعكم من الحرث " قالوا : الجدوبة ؛ فقال : " لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر " ثم تلا « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قوله تعالى : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِعُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ) لتحيوا به أنفسهم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعاً للطعموم ، ولهذا جاء الطعام مقدماً فى الآية قبل ، ألا ترى أنك تسقى ضيفك بعد أن تطعمه . الرغشرى : واو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إِذَا سُقِيتَ ضُيُوفُ النَّاسِ مُحَضًّا * سَقَوْا أَضْيَافَهُمْ شَبَابًا زُلَالًا^(١)

وسقى بعض العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على قميصة . (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ) أى السحاب ، الواحدة مُزْنَةٌ ؛ فقال الشاعر :

فَنَحْنُ كَمَا الْمُزْنِ مَا فِي نَصَابِنَا * كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلٍ^(٢)

(١) المحض : اللبن الخالص : والماء الشيم : البارد . (٢) نصاب كل شيء : أصله . ورجل كهام وكهيم : ثقيل ، لا غناء عنده .

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُرْن السحاب . وعن ابن عباس أيضا والثوري :
المُرْن السماء والسحاب . وفي الصحاح : أبو زيد : المُرْن السحابة البيضاء والجمع مُرْن ، والمُرْن
المطرَة ؛ قال :

ألم تَرَ أَن الله أَنزَلَ مُرْنَةً * وَنَفَرَ الظَّبَاءَ فِي الْكِنَاسِ تَقَمُّعٌ^(١)

﴿ أَمْ تَحْنُ الْمُرْتُلُونَ ﴾ أى فإذا عرفتم باني أنزلته فلم لا تشكرونى بإخلاص العبادة لى ؟
ولم تشكرون قدرتى على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى ملأنا شديد الملوحة ؛ قاله
ابن عباس . الحسن : مرأ قعأما لا تنتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَأَوَّلًا ﴾^(٢)
أى فهلا تشكرون الذى صنع ذلك بكم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقدح
من الشجر الرطب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا ﴾ يعنى التى تكون منها الزناد وهى المَرْخُ والعَفَار ؛
ومنه قولهم : فى كل شجر نار ، وأستمجد المَرْخُ والعَفَار ؛ أى أستكثر منها ، كأنهما أخذتا من
النار ما هو حسبهما . ويقال : لأنهما يُسرعان الورى . يقال : أَوْرَيْت النار إذا قدحتها .
وَوَرَى الزُّنْدُ يرى إذا أُنقِذ منه النار . وفيه لغة أخرى : وَوَرَى الزُّنْدُ يرى بالكسر فيهما .
﴿ أَمْ تَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى المخترعون الخالقون ؛ أى فإذا عرفتم قدرتى فأشكرونى ولا تشكروا
قدرتى على البعث .

قوله تعالى : ﴿ تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعنى نار الدنيا موعظة للنار الكبرى ؛ قاله قتادة .
ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إن ناركم
هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ” فقالوا يا رسول الله : أن كانت
لكافية ؛ قال : ” فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها ” . ﴿ وَمَتَاعًا لِلْقَوِينَ ﴾
قال الضحالك : أى منفعة للمسافرين ؛ سموا بذلك لزولهم القوى وهو الفقر . الفراء : إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر . وتقمع : تحرك ، وهما الطرد القمعة وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب .

(٢) فى ل : « زعافا » ومعناها واحد ، وهو الماء الشديد المارة والملوحة .

للسافرين : مُقَوِّين إِذَا نَزَلُوا الْقِيَّ وَهِيَ الْأَرْضُ الْقَفْرُ الَّتِي لَا شَيْءَ فِيهَا . وكذلك الْقَوَى وَالْقَوَاءُ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ ، وَمَنْزِلُ قَوَاءٍ لَا أَنْيَسَ بِهِ ؛ يُقَالُ : أَقْوَتُ الدَّارُ وَقَوِيْتُ أَيْ خَلْتُ مِنْ سَكَانِهَا ؛ قَالَ النَّابِغَةُ :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالْسِّنْدِ * أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

وقال عنترة :

حَيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * أَقْوَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

ويقال : أَقْوَى أَيْ قَوَى وَقَوَى أَصْحَابُهُ ، وَأَقْوَى إِذَا سَافَرَ أَيْ نَزَلَ الْقَوَاءَ وَالْقِيَّ . وقال مجاهد : « الْمُقَوِّينَ » الْمُسْتَمْتَعِينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ فِي الطَّبِخِ وَالْخَبْزِ وَالْأَصْطِلَاءِ وَالْأَسْتِضَاءِ ، وَيَتَذَكَّرُ بِهَا نَارُ جَهَنَّمَ فَيَسْتَجَارُ بِاللَّهِ مِنْهَا . وقال ابن زيد : لِلْجَائِعِينَ فِي إِصْلَاحِ طَعَامِهِمْ . يقال : أَقْوَيْتُ مَنْذُكَذَا وَكَذَا ، أَيْ مَا أَكَلْتُ شَيْئًا ، وَبَاتَ فُلَانُ الْقَوَاءَ وَبَاتَ الْقَفْرَ إِذَا بَاتَ جَائِعًا عَلَى غَيْرِ طَعْمٍ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ ^(١) :

وَأُنِي لِأَخْتَارِ الْقَوَى طَاوِي الْحَشَى * مُحَافَظَةً مِنْ أَنِّي يَقَالَ لَيْسِمُ

وقال الربيع والسدي : « الْمُقَوِّينَ » الْمُتَزَلِّينَ [الَّذِينَ] لَا زَادَ مَعَهُمْ ؛ يَعْنِي نَارًا يَوْقِدُونَ فَيَخْتَبِزُونَ بِهَا ؟ وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ . وَقَالَ قُطْرُبٌ : الْمُقَوَّى مِنَ الْأَضْدَادِ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَقِيرِ وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْغَنِيِّ ؛ يُقَالُ : أَقْوَى الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ زَادٌ ، وَأَقْوَى إِذَا قَوِيَتْ دَوَابُهُ وَكَثُرَ مَالُهُ . الْمَهْدُودَى : وَالْآيَةُ تَصْلُحُ لِلْجَمِيعِ ؛ لِأَنَّ النَّارَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمَسَافِرُ وَالْمَقِيمُ وَالْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ . وَحَكَى الثَّعَالِيُّ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ . الْقَشِيرَى : وَخَصَّ الْمَسَافِرَ بِالْإِسْتِفَاعِ بِهَا لِأَنَّ أَنْتِفَاعَهُ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ مَنْفَعَةِ الْمَقِيمِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنَ النَّارِ يَوْقِدُونَهَا لَيْلًا لِيَهْرَبَ مِنْهُمْ السَّبَاعُ ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ حَوَائِجِهِمْ .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أَيْ فَتَزِدْ اللَّهَ عَمَّا أَضَافَهُ إِلَيْهِ الْمَشْرُكُونَ مِنَ الْإِنْدَادِ ، وَالْعِجْزُ عَنِ الْبَعْثِ .

(٢) زيادة من ب .

(١) موحاتم طي .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلُّونَ
عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ
إِلَّا الْأَمْطَهُرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ) « لا » صلة في قول أكثر المفسرين ، والمعنى
فأقسم ، بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هي نفى ، والمعنى ليس الأمر كما تقولون ،
ثم استأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفى اليمين ، بل يريد
به نفى كلام تقدم . أى ليس الأمر كما ذكرت ، بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى ألا للتنبيه
كما قال^(١) :

* أَلَا عِمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ
الحسن وحبيد وعيسى بن عمر « فَلَا أُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال
ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلاننا أقسم بذلك . ولو أريد به الاستقبال للزمت النون ،
وقد جاء حذف النون مع الفعل الذى يراد به الاستقبال وهو شاذ .

الثانية - قوله تعالى : (بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) مواقع النجوم مساقطها وهاربها في قول
قتادة وغيره . عطاء بن أبي رباح : منازلها . الحسن : أنكدارها وأنثارها يوم القيامة ،
الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مَطَرُوا قالوا مَطَرْنَا بَنُو كَذَا ،
الماوردي : ويكون قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقة من نفى القسم . القشيري :
هو قسم ، والله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

(١) قاله امرؤ القيس ، وتمامه :

* وهل ينعم من كان في العصر الخالي *

قلت : يدل على هذا قراءة الحسن « فَلَا أُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه . وقال ابن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السفرة الكتابية ، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ولجّمه جبريل على عهد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه الماوردي عن ابن عباس والسدي . وقال أبو بكر الأنباري : حدثنا إسماعيل ابن إسحق القاضي حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا همام عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » . وإنه لقرآن كريم . وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائي « بِمَوَاقِعِ » على التوحيد ، وهى قراءة عبد الله ابن مسعود والنخعي والأعمش وابن محيصن ورؤيس عن يعقوب . الباقيون على الجمع ؛ فمن أفرد فلائنه أسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثة — قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » قيل : إن الهاء تعود على القرآن ؛ أى إن القرآن لقسم عظيم ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور . وقيل : لأنه يُكْرَمُ حافظه ، ويُعْظَمُ قارئه .

الرابعة — قوله تعالى : « فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ » مصون عند الله تعالى . وقيل : مكنون محفوظ عن الباطل . والكتاب هنا كتاب فى السماء ؛ قاله ابن عباس . وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السدى : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (١) اختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى ؟ وكذلك اختلف فى « الْمُطَهَّرُونَ » من هم ؟ فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وابن زيد : إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم ؛ بغيريل النازل به مطهر ، والرسل الذين يحييهم بذلك طهرون . الكاظمي : هم السفرة الكرام البررة . وهذا كله قول واحد ، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى « عبس وتولى » : « مَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ » يريد أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة « عبس » . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكل بذلك ؛ حكاه القشيري . ابن العربي : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدي الملائكة فى المصحف فهو قول محتمل ؛ وهو اختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا ؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال والحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذى رعين ومعافروهمدان أما بعد) وكان فى كتابه : ألا يمس القرآن إلا طاهر . وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالمصحفة : « لَا يَمَسُّهُ »

(١) راجع ج ١٩ ص ٢١٢

(١) **إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** « فقام وأغتسل وأسلم . وقد مضى في أول سورة « طه » . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : « لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . السكبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمْسُهُ » لا يقرؤ « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبد . قال عكرمة : كان ابن عباس ينهى أن يمكن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجحد طعمه ونفعه وبركته إلا المطهرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . ابن العربى : وهو اختيار البخارى ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً » . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الوراق : لا يوفق للعمل به إلا السعداء . وقيل : المعنى لا يمس ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهرون شرعاً ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا اختيار القاضى أبى بكر بن العربى . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة » (٢) . المهدي : يجوز أن يكون أمراً وتكون ضمة السنين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمة السنين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة — وأختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب على وآبن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد أبى زيد وعطاء والزهرى والنخعى والحكم وحماد ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى . وأختلفت الرواية عن أبى حنيفة ؛ فروى عنه أنه يمسّه الحديث ، وقد روى هذا عن جماعة من السلف منهم أبى عباس والشعبي وغيرهما . وروى عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسّه إلا طاهر . أبى العربى : وهذا إن سلمه مما بقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم المنوع ممنوع . وفيما كتبه النبى صلى الله عليه وسلم لعمر

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٣

(٢) راجع ج ٣ ص ٩١

أبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بجائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسّه لاسلم والكافر طاهراً أو محدثاً ، إلا أن داود قال : لا يجوز للشرك حمله . واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلاحجة فيه . وفي مس الصبيان إيراد على وجهين : أحدهما المنع اعتباراً بالبالغ . والثاني الجواز ؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ؛ لأن تعلمه حال الصغر ، ولأن العصبية وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ؛ لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثاً .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨١) أى منزل ؛ كقولهم : ضرب الأُمير ونسج اليمين . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾ أى مكذبون ؛ قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما . والمُذْهِبُ الذى ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبه بالذهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُذْهِبُونَ كفرون ؛ نظيره : « وَدَّوْا لَوْ تَذَّهِنُ فَيُذْهِبُونَ » (٢) . وقال المؤرِّج : المدين المنافق أو الكافر الذى يلين جانبه ليخفى كفره ،

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسرّ خلاف ما يظهر ؛
وقال أبو قيس بن الأسلت :

الْحَزْمُ وَالْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْإِدْهَانِ وَالْفَهْمَةِ وَالْحَاجِ^(١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى وارىت وأدهنت بمعنى غَشَّشَتْ . وقال الضحاك : « مُدْهِنُونَ » معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ابن كيسان : المدهن الذى لا يعقل ما حق الله عليه ويدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم فى قبول القرآن .

قوله تعالى : (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ) قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضى الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم (أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ) بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً^(٢) » أى لم يكونوا يصلّون ولكنهم كانوا يصفّرون ويصفّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة ، أو صبر إن كان مكروها تعبدا له وتذلا . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء ، وهو قول العرب : مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كذا ؛ رواه على بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا

(١) الفهية : الى . والحاج هنا : سوء الحرص مع ضعف . (٢) راجع ج ٧ ص ٤٠٠

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ - حتى بلغ - « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فعطشوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أرايتم إن دعوت الله لكم فسقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بنوء كذا » فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء . فصلى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فسطروا ، فمر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عصاية من أصحابه برجل يغترف بقدرح له وهو يقول سقينا بنوء كذا ، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم الله على رزقه إياكم « أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سقينا بنوء كذا ؛ كقولك : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلى ، وجعلت إناعمى لديك أن آتخذتنى عدوا . وفي الموطأ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما آنصرف أقبل على الناس وقال : « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فذلك مؤمن بى وكافر بالكوكب وأما من قال مُطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى » . قال الشافعى رحمه الله : لا أحب أحدا أن يقول مُطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا ، وإن كان النوء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذي أحب أن يقول : مُطِرْنَا وقت كذا كما تقول مُطِرْنَا شهر كذا ، ومن قال : مُطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا ، وهو يريد أن النوء أنزل الماء ، كما غنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله سبحانه : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر » فعنائه عندى على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد بأن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنفى للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كقوله صريحا يجب استنابته عليه وقتله [إن أبى] ^(٢) لتبذه الإسلام وردده القرآن . والوجه الآخر أن

(١) على إثر سماء : أى بعد مطر . وفى « إثر » لفتان : كدرا الهمة وسكون الناء وفتحهما .

(٢) فى ب : « صراحا » . (٣) زيادة يقتضها السياق .

يعتقد أن النَّوَّ يُنَزِّلُ الله به الماء ، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في علمه ؛ وهذا وإن كان وجهًا مباحًا ، فإن فيه أيضًا كفرًا بنعمة الله عز وجل ، وجهلاً بلطف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنوء كذا ، ومرة بنوء كذا ، وكثيرا ما ينوء النَّوَّ فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النَّوَّ . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِرَ : مُطِرْنَا بنوء الفتح ؛ ثم يتلو : « مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا »^(١) قال أبو عمر : وهذا عندي نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته » . ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آمنتسقى به : يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكان عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية ؟ . وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا في بعض أسفاره يقول : مُطِرْنَا ببعض عثانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذبت بل هو سُقْيَا الله عز وجل » قال سفيان : عثانين الأسد الذراع والجمبة . وقراءة العامة « تُكْذَّبُونَ » من التكذيب . وقرأ المفضل عن عاصم ويحيى بن وثاب « تُكْذَّبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مُطِرْنَا بنوء كذا ، وثبت من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لن يزلن في أمتي التفاحر في الأحساب والنياحة والأنواء » ولفظ مسلم في هذا « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونه في الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة » .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلُقُوم .

ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف ؛ قال حاتم .

أَمْأَوِي مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَسْتَى * إِذَا حَشَرَ جَتَّ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وفي حديث : « إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَهُ أَعْوَانُ يَقْطَعُونَ الْعُرُوقَ وَيَجْمَعُونَ الرُّوحَ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى الْخَلْقِومِ فَيَنْوَفَاها مَلَكُ الْمَوْتِ » . (١) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) أمرى وسلطاني . وقيل : تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء . وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو ردُّ عليهم في قولهم لإخوانهم « أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » (٢) أى فهل ردوا روح الواحد منهم إذا بلغت الخلقوم . وقيل : المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الخلقوم عند النزاع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده ، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه . وهذا ردُّ لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » . (٣) وقيل : هو خطاب لمن هو في النزاع ، أى إن لم يك ما بك من الله فهلا حفظت على نفسك الروح . (٤) وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) أى بالقدرة والعلم والرؤية . قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلى منه . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه « أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ » (٥) وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) أى لا تروهم . قوله تعالى : (قُلْ لَّوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أى فهلا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ » أى مجزيون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دِنْتُهُ ملكته ؛ وأنشد للخطيب :

لَقَدْ دِينْتُ أَمْرَ بَنِيكَ حَتَّى * تَرَكَتَهُمْ أَدَقَّ مِنَ الطَّيِّينِ

(٦) يعنى مُلْكْتِ . ودانه أى أذله وأستعبده ؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى في « الفاتحة » القول في هذا عند قوله تعالى : « يَوْمَ الدِّينِ » . (٧) تَرْجِعُونَهَا) ترجعون الروح إلى الجسد . (٨) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و« تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « قُلْ لَّوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ » ولقوله : « قُلْ لَّوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

(٢) راجع ج ١٦ ص ١٧٠

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٦

(٤) ويرى : سوست ؛ يخاطب الله .

(٣) راجع ج ١٥ ص ٨٢

(٥) راجع ج ١ ص ١٤٣

أجيبا بجواب واحد؛ قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناها واحد، ومنه قوله تعالى : « فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حُذًى فَهُمْ يُخْشَوْنَ » (١) .
أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير، مجازها : فلولا وهلا إن كنتم غير مدينين ترجعونها؛ تردون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم فقال : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » هذا المتوفى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون . (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ) وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره : فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرُّوح الرحمة . الضحاك : الرُّوح الأسترحة . القُتَيْبِيُّ : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرُّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه ، « وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ » هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والبخاري ورويس وزيد عن يعقوب « فَرَوْحٌ » بضم الراء، ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للرحوم . وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « فَرَوْحٌ » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

في الجنة وهذا هو الرحمة . «وَرَيَحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل : هو الرزق باغة حمير ؛ يقال : خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال الثمر بن تولب :
سَلَامُ الإِلَهِ وَرَيَحَانُهُ * وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دِرَرٍ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم .
قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خثيم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث .
أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلقى بضباثر الريحان . أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين في الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشتمهما ثم يقبض روحه فيهما ، وأصل ريحان وأشتقاقه تقدم في أول سورة «الرحمن» فتأمله . وقد سرد الشعبي في الرُّوح والريحان أقوالا كثيرة سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى «إِنْ كَانَ» هذا المتوفى « مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم ، لأنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الأغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلم . وقيل : المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين ؛ فحذف إنك . وقيل : إنه يُحيى بالسلام إكراما ؛ فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل : أحدها عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت ؛ قاله الضحاك . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقد مضى هذا في سورة «النحل» عند قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ .
الثانى عند مساءلته في القبر يسلم عليه منكر ونكير . الثالث عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

(١) راجع ص ١٥٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٠ ص ١٠١

قلت : وقد يحتمل أن تسلم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إِنْ » عند المبرد محذوف التقدير مهما يكن من شيء « فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين « فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » لحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدم عليه ، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت ؛ لدلالة ما تقدم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أَمَّا » و « إِنْ » ، ومعنى ذلك أن الفاء جواب « أَمَّا » وقد سدت مسدّ جواب « إِنْ » على التقدير المتقدم ، والفاء جواب لها على هذا الحد . ومعنى « أَمَّا » عند الزجاج : الخروج من شيء إلى شيء ؛ أى دع ما تكافيه وخذ في غيره .

قوله تعالى : (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ) بالبعث (الضَّالِّينَ) عن الهدى وطريق الحق (فَزُلْ مِنْ حَمِيمٍ) أى فلهم رزق من حميم ، كما قال : « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا تَكُونُونَ » وكما قال : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ » (وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ) لإدخال في النار . وقيل : إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها ؛ يقال : أصلاه النار وصلاه ؛ أى جعله يصلها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول ؛ كما يقال : لغلان إعطاء مالٍ أى يعطى المال . وقرئ « وَتَصْلِيَةٌ » بكسر التاء أى ونزل من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجحيم وهو بعيد . (إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) أى هذا الذى قصصناه محض اليقين وخالصه . وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما . قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ؛ فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين . وعند البصريين حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين . وقيل : هو تأكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتاً للحق فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » (٢) وقال قتادة في هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) أى نزه الله تعالى عن السوء . والباء زائدة أى سبِّح اسم ربك ، والاسم المسمى . وقيل :

(١) راجع ج ١٤ ص ٨٧

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٥

« فَسَبِّحْ » أى فصل بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذا ذكر اسم ربك العظيم وسبِّحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِأَنِّمِ رَبَّكَ الْعَظِيمِ » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ » ولما نزلت « سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ » خرجه أبو داود . والله أعلم .

سورة الحديد

مدنية في قول الجميع ، وهى تسع وعشرون آية

عن العرياض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : « إِنْ فِيهِنَّ آيَةٌ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ » يعنى بالمسبِّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصَّف » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

قوله تعالى : (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى مجد الله ونزهه عن السوء . وقال ابن عباس : صلى الله « مَا فِي السَّمَوَاتِ » ممن خلق من الملائكة « وَالْأَرْضِ » من شىء فيه روح أولا روح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلم قال : « وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (١) وإنما هو تسبيح مقال . وأستدل بقوله تعالى : « وَنَحْنُ نَعْلَمُ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحُنَا » (٢) فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ !

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان» عند قوله تعالى :
« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

قوله تعالى : (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى أنفرد بذلك . والملك عبارة عن
الملك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر . وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر
الرزق . (يُحْيِي وَيُمِيتُ) يميت الأحياء فى الدنيا ويحيى الأموات للبعث . وقيل : يحيى
النطف وهى موات ويميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيى
ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » محيا ومميتا على الحال
من المجرور فى « لَهُ » والجار عاملا فيها . (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى الله لا يعجزه شئ .
قوله تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) اختلف فى معانى هذه الأسماء
وقد بينها فى الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحاً يغنى عن
قول كل قائل ؛ فقال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : «اللهم أنت الأول فليس قبلك
شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك
شئ أقض عنا الدين وأغننا من الفقر» عنى بالظاهر الغالب ، وبالباطن العالم ؛ والله أعلم .
(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شئ .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا
وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾^(١)
تقدم في « الأعراف » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر وملك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعنى بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ إِنَّمَا كُنْتُمْ وَآلَهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شئ منها . وقد جمع في هذه الآية بين « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » وبين « وَهُوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بد من التأويل ، والإعراض عن التأويل أعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالى : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان فى بطن الحوت . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا التكرير للتأكيد أى هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى أمور الخلائق فى الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وآبن عامر وأبو حنيفة وآبن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائى وخلف « تُرْجَعُ » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم فى « آل عمران »^(٢) .
﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ .

(٢) راجع ج ٤ ص ٥٦ .

قوله تعالى : **ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾**

قوله تعالى : **(ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)** أى صدقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله **(وَأَنْفِقُوا)** تصدقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه **(مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)** دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . **(فَالَّذِينَ ءَامَنُوا)** وعملوا الصالحات **(مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا)** فى سبيل الله **(لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)** وهو الجنة .

قوله تعالى : **(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)** استفهام يراد به التوبيخ . أى أى عذر لكم فى ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟ ! **(وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ)** بين بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرا أبو عمرو : **(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ)** على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمى الفاعل ، أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأول الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول **(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)** أى إذ كنتم . وقيل :

أى إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام ؛ فالآن
أخرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت
براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب
لقوم آمنوا وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فارتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »
أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان .

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يريد القرآن . وقيل : المعجزات ؛
أى لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآن أكبرها
وأعظمها . (لِيُخْرِجَكُمْ) أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . (مِنَ الظُّلُمَاتِ)
وهو الشرك والكفر (إِلَى النُّورِ) وهو الإيمان . (وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى أى شئ يمنعكم من
الإنفاق في سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة
إلى الله تعالى . فعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)
أى إنهما راجعتان إليه بأقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانية — قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ) أكثر
المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشعبي والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك . وفي الكلام حذف ؛ أى « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ؛ لحذف لدلالة الكلام عليه . وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النصب . والله أعلم .

الثالثة - روى أشهب عن مالك قال : ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم ؛ وقد قال الله تعالى : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » وقال الكلبي : نزلت في أبي بكر رضى الله عنه ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضى الله عنه وتقديمه ؛ لأنه أول من أسلم . وعن ابن مسعود : أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ؛ ولأنه أول من أنفق على نبي الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال فتزل جبريل فقال : يا نبي الله ! ما أرى أبا بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال ؟ فقال : « قد أنفق على ماله قبل الفتح » قال : فإن الله يقول لك اقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراض أنت في ففرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراض أنت في ففرك هذا أم ساخط ؟ » فقال أبو بكر : أأخط على ربي ؟ إني عن ربي لراض ! إني عن ربي لراض ! إني عن ربي لراض ! قال : « فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عنى راض » فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام : والذي بعثك يا محمد بالحق ، لقد تخللت حملة العرش بالعباءة منذ تخلل صاحبك هذا بالعباءة ؛ ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم ، وأقرأوا له بالتقدم والسبق . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : سبق النبي صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلاث عمر ؛ فلا أوتى برجل فضلى على أبي بكر إلا جلده حدة المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة . فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

الرابعة - التّقدّم والتّأخّر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبة الصلاة . وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه : ” مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس “ الحديث . وقال : ” يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله “ وقال : ” وليؤمكما أكبركما “ من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدّم . وفهم منه البخارى وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ” الولاء للكبر “ ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقاً . وراعاه الشافعى وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ في خيرين قدّم العلم ، وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدّين ، فن قدّم في الدّين قدّم في الدنيا . وفي الآثار : ” ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعلمنا حقّه “ . ومن الحديث الثابت في الأفراد : ” ما أكرم شاب شيخاً ليسنه إلا قبض الله له عند سنّه من يكرمه “ . وأنشدوا :^(١)

يا عائباً للشيخوخ من أشير * دأخله في الصّبأ ومن بدّخ
أذكر إذا شدّت أن تُعيّرهم * جدك وأذكر أباك يا بن أخ
وأعلم بأن الشباب منسلخ * عنك وما وزره بمنسلخ
من لا يعزّ الشيخوخ لا بلغت * يوماً به سنّه إلى الشّيوخ

الخامسة - قوله تعالى : « وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » أى المتقدمون المتناهون السابقون ، والمتأخرون اللاحقون ، وعدّهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ ابن عامر « وَكُلُّ » بالرفع ، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام . الباقر « وَكَلَّا » بالنصب على ما فى مصاحفهم ؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أى وعد الله كلّاً الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل ، والهاء محذوفة من وعدّه .

(١) هو لآبى عبد الصمد المرقطى كما فى « أحكام القرآن » لابن العربى .

قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) ندب إلى الإنفاق في سبيل الله . وقد مضى في « البقرة » القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً : قد أقرض ؛ كما قال :^(١)

وَإِذَا جُوزِيَتْ قَرْضًا فَأَجْرُهُ * إِنَّمَا يَجْزِي الْفَقِي لَيْسَ الْجَمَلُ

وسمى قرضاً ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البذل . أى من ذا الذى ينفق في سبيل الله حتى يبذله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبي : « قَرْضًا » أى صدقة « حَسَنًا » أى محتسباً من قلبه بلا من ولا أذى . (فَيُضَاعِفُهُ لَهُ) ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ رواه سفيان عن أبي حيان . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صديق وقرض سوء . القشيري : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يلتفت به وجه الله دون الرياء والسُّمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردى فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنَفُّونَ »^(٢)

(١) راجع ج ٣ ص ٢٣٧

(٢) قاله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافى عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبي حيان والظاهر أن صوابه : آبن حيان .

(٤) راجع ج ٣ ص ٣٢٥

وأن يتصدق في حال يأمل الحياة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال : « أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا » وأن يخفى صدقته ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَُا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » ^(١) والآيَةُ ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وأن يستحقر كثير ما يعطى ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحب أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » ^(٢) وأن يكون كثيراً ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها » . « فَيُضَاعَفُهُ لَهُ » ^(٣) وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَاعَفُهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعَفُهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصمًا نصب الفاء . ورفع الباقون عطفاً على « يُقْرَضُ » . وبالنصب جواباً على الاستفهام . وقد مضى في « البقرة » ^(٤) القول في هذا مستوفى . (وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) بمعنى الجنة .

قوله تعالى : (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) العامل في « يَوْمَ » « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » ، وفي الكلام حذف أي « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » في « يَوْمَ تَرَى » فيه (الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) يَسْمَعُ نُورَهُمْ) أي يَمْضَى على الصراط في قول الحسن ، وهو الضياء الذي يَمْرُونَ فيه (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي قدامهم . (وَيَأْتِيَانِهِمْ) قال الفراء : الباء بمعنى في ؛ أي في إيمانهم . أو بمعنى عن أي عن إيمانهم . وقال الضحاك : « نُورُهُمْ » هدايتهم « وَيَأْتِيَانِهِمْ » كتبهم ؛ وأخاره الطبري . أي يسعى إيمانهم وعمالهم الصالح بين أيديهم ، وفي إيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى في . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدي وأبو حنيفة « وَيَأْتِيَانِهِمْ » بكسر الألف ، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٢٢ رص ٣١١

(٢) راجع ج ٤ ص ١٣٢

وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى يسعى كائناً « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائناً « بِيَمَانِهِمْ » ، وليس قوله : « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » متعلقاً بنفس « يَسْعَى » . وقيل : أراد بالنور القرآن . وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفا مرة ويوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن من المؤمنين من يضئ نوره كما بين المدينة وعدن أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضئ نوره إلا موضع قدميه “ قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم . وقال مقاتل : ليكون دليلاً لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقدير يقال لهم : « بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ . ولا بد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشري حدث ، والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون مما دل عليه البشري ، كأنه قال : تبشرون خالدين . ويجوز أن يكون الظرف الذى هو « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشِّرَاكُمُ » و « جَنَّاتٌ » بدلاً من البشري على تقدير حذف المضاف كما تقدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقدم . وأجاز الفراء نصب « جَنَّاتٌ » على الحال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشِّرَاكُمُ » وهو بعيد ؛ إذ ليس فى « جَنَّاتٌ » معنى الفعل . وأجاز أن يكون « بُشِّرَاكُمُ » منصوباً على معنى يبشرونهم بشري وينصب « جنات » بالبشري وفيه تفرقة بين الصلة والموصول .

قوله تعالى : يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
 فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
 الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
 أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ
 بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ» « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .
 وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة
 الظاء من نظروا والنظر الانتظار أى أنتظرونا . وقرأ الأعمش وحزرة ويحيى بن وثاب «انْظُرُونَا»
 بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أى أمهلونا وأحرونا ؛ أنظرته أخرته ، وأستنظرته
 أى استمهله . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرنى أنتظرنى ؛ وأنشد لعمر بن كثر :
 أبا هنيء فلا تعجل علينا * وأنظرنا تُخبرك اليقين

أى أنتظرونا . ﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أى نستضيء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة :
 يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال الماوردى : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون
 نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطى الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون
 به على الصراط ، ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ » .
 وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يلبس المنافق نوره
 لنفاقه ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور .
 وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون

إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلماً فأطفأ بذلك نور المنافقين ؛ فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا ^(١) » يقوله المؤمنون ؛ خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقى المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين : « أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسَ مِنْ نُورِكُمْ » . (قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ) أى قالت لهم الملائكة « أَرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذى أخذنا منه النور فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا فى طلب النور (ضُرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورٌ) . وقيل : أى هلاً طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا . « بُسُورٌ » أى سُورٌ ؛ والباء صلة . قاله الكسائى . والسُور حاجزين الجنة والنار . وروى أن ذلك السُور بيت المقدس عند موضع يعرف بوادى جهنم . (بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) يعنى ما يلى منه المؤمنون (وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) يعنى ما يلى المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذى بيت المقدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سُور بيت المقدس الشرق باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . ونحوه عن ابن عباس . وقال زياد بن أبى سواده : قام عبادة ابن الصامت على سُور بيت المقدس الشرق فبكى ، وقال : من ها هنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى الجنة « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . وقال مجاهد : إنه حجاب كما فى « الأعراف » وقد مضى القول فيه ^(١) . وقد قيل : إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : (يُنَادُونَهُمْ) أى ينادى المنافقون المؤمنين (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) فى الدنيا يعنى صلى مثل ما تصلون ، وتغزوا مثل ما تغزون ، ونفعل مثل ما تفعلون (قَالُوا بَلَى) أى يقول المؤمنون « بَلَى » قد كنتم معنا فى الظاهر (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) أى استعملتموها فى الفتنه . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصى ؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات والمذات ؛

رواه أبو نعيم الحمْدَانِي . (وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ) أى « تَرَبَّصْتُمْ » بالنبي صلى الله عليه وسلم الموت ، وبالمؤمنين الدوائر . وقيل : « تَرَبَّصْتُمْ » بالتوبة « وَارْتَبْتُمْ » أى شككتكم في التوحيد والنبوة (وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ) أى الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم . وقال قتادة : الأمانى هنا خدع الشيطان . وقيل : الدنيا ؛ قاله عبد الله بن عباس . وقال أبو سنان : هو قولهم سَيَغْفِرْنَا . وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرّة . (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) يعنى الموت . وقيل : نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : إلقاءهم في النار . (وَغَرَّكُمْ) أى خدعكم (بِاللَّهِ الْغُرُورُ) أى الشيطان ؛ قاله عكرمة . وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقي بالمأخى معتبراً ، وللاخر بالأول مزدجراً ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ، ومن ذكر المنية نسى الأمانة ، ومن أطال الأمل نسى العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء « الْغُرُورُ » على لفظ المبالغة للكثرة . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمِيعِ وَسِمَاك بن حرب « الْغُرُورُ » بضم الغين يعنى الأباطيل وهو مصدر . وعن ابن عباس : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خط لنا خطوطاً ، وخط منها خطاً ناحية فقال : " أتدرون ما هذا هذا مثل ابن آدم ومثل التمتنى وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " . وعن ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط وسطه خطاً وجعله خارجاً منه ، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال : " هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا " .

قوله تعالى : (قَالِ يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ) أيها المنافقون (وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أياسهم من النجاة . وقراءة العامة « يُؤْخَذُ » بالياء ؛ لأن التانيث غير حقيقى ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل . وقرأ ابن عامر ويعقوب « يُؤْخَذُ » بالتاء واختاره أبو حاتم لتانيث الفدية . والأول

اختيار أبى عبيد ، أى لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . (مَاوَاكُمْ النَّارُ) أى مقامكم ومنزلكم (هِيَ مَوْلَاكُمْ) أى أولى بكم ، والمولى من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء . وقيل : أى النار تملك أمرهم ، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يركب فيها الحياة والعقل فهى تميز غيظاً على الكفار ، ولهذا خوطبت فى قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » . (وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ) أى ساءت مرجعاً ومصيراً .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَغْلَوْا أَنَّ اللَّهَ يُلْجِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا) أى يقرب ويحين ، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتَرَكَ الْجَهْلَ * وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ الْمَيْنُ لَنَا عَقْلًا

وماضيه أنى بالقصر يأتى . ويقال : آن لك — بالمد — أن تفعل كذا يئين أيئاً أى حان ،

مثل أنى لك وهو مقلوب منه . وأنشد ابن السكيت :

الْمَائِنُ لِي أَنْ تَجَلَّى عَمَائِي * وَأَقْصُرُ عَنْ لَيْلِي بَلَى قَدْ آنَى لِيَا

بجمع بين اللتين . وقرأ الحسن « الْمَائَانِ » وأصلها « أَلَمْ » زيدت « ما » فهى نفى لقول

القاتل : قد كان كذا ، و « لم » نفى لقوله : كان كذا . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود

قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة ،

تقول عاتبته معاتبته (أَنْ تَخْشَعَ) أى تذلل وتلين (قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

روى أن المزاح والضحك كثير في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يستبطنكم بالخشوع» فقالوا عند ذلك: خشعنا. وقال ابن عباس: إن الله استبطن قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدّثهم بعجائب التوراة فنزلت: «الرَّتِلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»^(١) إلى قوله: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» الآية؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سلمان، ثم سأله مثل الأول فنزلت: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السدي وغيره: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر وأسرّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ». وقيل: نزلت في المؤمنين. قال سعد: قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان: لو حدثتنا فنزل: «اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»^(٢) فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطنهم وهم أحب خلقه إليه. وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تآين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمنقضى قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقصت قلوبهم.

قوله تعالى: «وَلَا يَكُونُوا» أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على «أَنْ تَخْشَعَ». وقيل: مجزوم على النهي؛ مجازه ولا يكونن؛ ودليل هذا التأويل رواية رويس عن يعقوب «لَا تَكُونُوا» بالياء؛ وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم. قال ابن مسعود: إن بني إسرائيل

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، فأخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : أعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل ، فإن تابوا وتركواهم وإلا فاقتلوهم . ثم أصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم ، وقالوا : إن هو تاب عننا لم يخالفنا أحد ، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد ، فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في [قَرْنٍ وَعَلَقَهُ فِي] ^(١) عنقه ثم لبس عليه ثيابه ، فاتاهم فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فضرب بيده على صدره ، وقال : آمنت بهذا يعني المعلق على صدره . فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِائَةً ، وخير ملهم أصحاب ذى القرن . قال عبد الله : ومن يعش منكم فسيرى منكراً ، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره . وقال مقاتل بن حيان ^(٢) : يعني مؤمنى أهل الكتاب طال عليهم الأمد وآسبطنوا بعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع . وقيل : من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم . وقيل : هم من لا يؤمن في علم الله تعالى . ثبت طائفة منهم على دين عيسى حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسقهم الله . وقال محمد بن كعب : كانت الصحابة بمكة مجدين ، فلما هاجروا أصابوا الرِّيفَ والنعمة ، ففتروا عما كانوا فيه ، فقسست قلوبهم ، فوعظهم الله فأفاقوا . وذكر ابن المبارك : أخبرنا مالك بن أنس ، قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه : لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتفسد قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وأنظروا فيها — أو قال في ذنوبكم — كأنكم عبيد ، فإنما الناس رِجلان معافٍ ومبتلى ، فأرحموا أهل البلاء ، وأحمدوا الله على العافية . وهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله

(١) الزيادة من تفسير الطبرى .

(٢) في بعض النسخ : مقاتل بن سليمان وهو المفسر .

تعالى . ذكر أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القلاني قال : حدثنا أبو محمد الحسن ابن رشيق ، قال حدثنا علي بن يعقوب الزيات ، قال حدثنا إبراهيم بن هشام ، قال حدثنا زكريا ابن أبي أبان ، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدثنا الحسن بن داهر ، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخواني في بستان لنا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا ، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور ، فقامت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السحر^(١) ، وأراد سنان يغنى ، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة ، والعود بيدى لا يجيبني إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود ، وصرفت من كان عندى ، فكان هذا أول زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد ابن المبارك أن يضرب به العود :

أَلَمْ يَأْنِ لِي مِنْكَ أَنْ تَرَحَّمَا * وَتَعِصَ الْعَوَازِلَ وَاللُّؤْمَا
وَتَرِنِي لَصَبِّ بَكُمْ مُغْرَمًا * أَقَامَ عَلَى هَجْرِكُمْ مَأْتَمًا
بَيْتٌ إِذَا جَنَّهُ لَيْلُهُ * يُرَاعِي الْكَوَاكِبَ وَالْأَنْجَمَا
وماذا على الظبي لو أنه * أحل من الوصل ما حرما

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلاً ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » فرجع الفهقرى وهو يقول : بلى والله قد آن ! فأواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلاً يقطع الطريق . فقال الفضيل : أواه ! أرانى بالليل أسمى في معاصي الله ، قوم من المسلمين يخافوننى ! اللهم إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

(١) هكذا في الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الْأَرْضَ » الجذبة « بَعْدَ مَوْتِهَا » بالمطر . وقال صالح المرى : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر ابن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، ويميز بين الخاشع قلبه وبين القاسى قلبه . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دلائل على قدرة الله ، وأنه لمحي الموتى .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِعَايُنِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى المصدقين بما أنزل الله تعالى . الباقر بالتشديد أى المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء فى الصاد ، وكذلك فى مصحف أبى . وهو حث على الصدقات ، ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً . وإنما عطف بالفعل على الاسم ، لأن ذلك الاسم فى تقدير الفعل ، أى إن الذين صدقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش « يُضَاعِفُهُ » بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يُضَعِّفُ » بفتح العين وتشديد هاء . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ اختلف في « الشهداء » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد بن أسلم : إن الشهداء والصديقين هم المؤمنون وأنه متصل ؛ وروى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله : « الصَّادِقُونَ » وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية . قال القشيري قال الله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ^(١) » فالصديقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصديقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدق بالرسول ؛ أعنى « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ » . ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صديق فوق صديق في الدرجات ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة العلاء ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماً ^(٢) » وروى عن ابن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصديقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : « الصَّادِقُونَ » حسن . والمعنى « وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أى لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان أحدهما — أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبي ؛ ودليله قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ^(٣) » . الثانى — أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ، وفيما يشهدون به قولان : أحدهما — أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثانى — يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبي . وقال مقاتل قولاً ثالثاً : إنهم القتل في سبيل الله تعالى . ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال : أراد شهداء المؤمنين . والواو واو الابتداء . والصديقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧١ . وص ١٩٧ .

(٢) « أنعماً » أى زادوا فضلاً . وقيل معناه : صاروا إلى النعم ودخلوا فيه .

وقد اختلف في تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر ؛ أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحزمة . وتابعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصديقون هم الذين آمنوا بالرسول ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبي بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسول والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجَبَ الْكُفَّارُ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿ ٢١ ﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ ٢١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل ، وخوفا من لزوم الموت ؛ فيبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : أعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل وهو فرج ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب وهو : أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من اسمه ؛ قال مجاهد : كل لعب هو . وقد مضى هذا المعنى

في « الأنعام » ^(١) وقيل : اللب ما رغب في الدنيا ، والله ما ألهى عن الآخرة ؛ أى شغل عنها . وقيل : اللب الاقتناء ، واللهو النساء . « وَزِينَةً » الزينة ما يتزين به ؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة ، وكذلك من تزين في غير طاعة الله . « وَتَفَاخُرًا بَيْنَكُمْ » أى يفخر بعضهم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل : بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفنى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد » وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب » الحديث . وقد تقدم جميع هذا . « وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لَيْبٌ » كلب الصبيان « وَلَهْوٌ » كلهو الفتيان « وَزِينَةٌ » كزينة النسوان « وَتَفَاخُرٌ » كتفاخر الأقربان « وَتَكَاثُرٌ » كتكاثر الدهقان ^(٢) . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء . وعن علي رضي الله عنه قال لعمار : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشغوم ومركوب ومنكوح ؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزة ذبابة ، وأكثر شربها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل المشغوم المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أفتحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلاً بالزرع في غيب فقال : « كَثِيلٌ غَيْبٌ » أى مطر ^(٣) « أَتَجِبُ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ » الكفار هنا : الزراع لأنهم يغطون البذر . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لحضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هذا المثل في « يونس » و « الكهف » ^(٤) . وقيل :

(١) راجع ج ٦ ص ٤١٤ (٢) الدهقان — بكسر الدال وضحا — : التأخر ؛ فارمى معزب .

(٣) مأخوذ من الكفر — بفتح الكاف — وهو التغطية . (٤) راجع ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٥) راجع ج ١٠ ص ٤١٢

الكفار هنا الكافرون بالله عز وجل ؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين . وهذا قول حسن ؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ، ومنهم يظهر ذلك ، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم ، وتتقلل عندهم وتديق إذا ذكروا الآخرة . وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهَيِّجُ ﴾ أى يحفّ بعد خضرته ﴿ فَقَرَأَهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى متغيراً عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَّامًا ﴾ أى فُتَّانًا وَتَبَّانًا فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى للكافرين . والوقف عليه حسن ، ويتبدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أى للمؤمنين . وقال الفراء : « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ » تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على « شَدِيدٌ » . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُسُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق ؛ أى تغر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تهديداً في العمل للدنيا ، وترغيباً في العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل : سارعوا بالتوبة ؛ لأنها تؤدى إلى المغفرة ؛ قاله الكلبي . وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام ؛ قاله مكحول . وقيل : الصف الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعنى جميع السموات والأرضين . بسوطتان كل واحدة إلى صاحبتهما . وقيل : يريد لرجل واحد أى لكل واحد جنة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنة . والعرض أقل من الطول ؛ ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشئ بعرضه دون طوله . قال :

كَانَ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ * عَلَى الْخَائِيفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلٍ

وقد مضى هذا كله فى « آل عمران^(١) » . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضى الله عنه : أرايت قول الله عز وجل : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرايتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزلت بما في التوراة مثله. ﴿أَعِدْتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء. وقد قيل: شرط الإيمان هنا وزاد عليه في «آل عمران» فقال: «أَعِدْتُ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ». ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله. وقد مضى هذا في «الأعراف» وغيرها. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القحط وفلة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع. ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود؛ قاله ابن حبان. وقيل: ضيق المعاش؛ وهذا معنى رواه ابن جريج. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعنى في اللوح المحفوظ. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يخلق المصيبة. وقال سعيد بن جبیر: من قبل أن يخلق الأرض والنفوس. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أى خلق ذلك وحفظ جميعه «عَلَى اللهِ يَسِيرٌ» هين. قال الربيع بن صالح: لما أخذ سعيد ابن جبیر رضي الله عنه بكتبت؛ فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكى لما أرى بك ولما تذهب

(١) راجع ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٩

إليه . قال : فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون ، ألم تسمع قوله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ » الآية . وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم قال له أكتب ، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . ولقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة برهم وتوكلاً عليه ، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل ، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح ، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران ، فالكل مكتوب مقدراً لا مدفع له ، وإنما على المرء أمثال الأمر ، ثم أدبهم فقال هذا : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ابن مسعود أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا ؛ قاله ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عكرمة عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمة شكرًا ، والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يعمد فيهما إلى ما لا يجوز ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) أى متكبر بما أوتي من الدنيا ، نفور به على الناس . وقراءة العامة « آتَاكُمْ » بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . وأختره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « آتَاكُمْ » بقصر الألف وأختره أبو عبيد . أى جاءكم ، وهو معادل لـ « فَاتَكُمْ » ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت . وقيل لبرز جمهور : أيها الحكيم ! مالك لا تحزن على ما فات ،

ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفاتئ لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة . وقال الفضيل بن عياض في هذا المعنى : الدنيا مُبِيدٌ ومُفِيدٌ ؛ فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار ، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار ، وكلاهما يشرك خفى . والفخور بمنزلة المصرة تشد أخلافها ليجتمع فيها اللبن ، فيتوهم المشتري أن ذلك معتاد وليس كذلك ؛ فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً وزينة وهو مع ذلك مدع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونُ ﴾ أى لا يحب المختالين « الَّذِينَ يَخْلُونُ » فـ « الَّذِينَ » في موضع خفض نعتاً للمختال . وقيل : رفع بابتداء أى الذين يخلون فالفعل غنى عنهم . قيل : أراد رؤساء اليهود الذين يخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب ما كلتهم ؛ قاله السدى والكافى . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَخْلُونُ » يعنى بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى بألا يعلموا الناس شيئاً . زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حق الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعري . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخل الذى يلتذ بالإمساك . والسخى الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — أن البخل الذى يعطى عند السؤال ، والسخى الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنى عنه . ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنى عنهم . وقراءة العامة « بِالْبُخْلِ » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحيد وآبن محيصن وحمزة والكسائى « بِالْبَخْلِ » بفتح الباء وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وآبن السميع « بِالْبُخْلِ » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم « الْبُخْلُ » بضممتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدم الفرق بين البخل والشح فى آخر « آل عمران » .

(١) يريد ما يكونه من الناس باسم الدين من الأموال .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٩٣

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بغير « هو » . والباقون « هُوَ الْغَنِيُّ » على أن يكون فصلاً . ويجوز أن يكون مبتدأ و « الْغَنِيُّ » خبره والجملة خبر إن . ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلاً ؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٠٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة . وقيل : الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ بذلك دعت الرسل : نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى الكتاب ؛ أى أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ قال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل فى معاملاتهم . وقوله : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ يدل على أنه أراد الميزان المعروف . وقال قوم : أراد به العدل . قال القشيري : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب :

* عَلَقَتْهَا تَيْبًا وَمَاءً بَارِدًا *

وبدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ وقد مضى القول فيه . ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(١) روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد

والنار والماء والملح . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام : الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج ، وعصا موسى وكانت من آس الجنة ، طولها عشرة أذرع مع طول موسى ، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء : السندان والكلبتان والميعة وهي المطرقة ؛ ذكره الماوردي . وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين : السندان ، والكلبتان ، والميعة ، والمطرقة ، والإبرة . وحكاه القشيري قال : والميعة ما يحد به ، يقال وقَعْتُ الحديدَ أقدما أي حددتها . وفي الصحاح : والميعة الموضع الذي يالفه البازي فيقع عليه ، وخشبة القصّار التي بدق عليها ، والمطرقة والمسنّ الطويل . وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء . « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » أي لإهراق الدماء . ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء ؛ لأنه يوم جرى فيه الدم . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم » . وقيل : « أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ » أي أنشأناه وخلقناه ؛ كقوله تعالى : « وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »^(١) وهذا قول الحسن . فيكون من الأرض غير منزل من السماء . وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه . « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » يعني السلاح والكراع والجنّة . وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شديد . « وَمَنْافِعُ لِلنَّاسِ » قال مجاهد : يعني جنة . وقيل : يعني آتفاع الناس بالمسا عون من الحديد ، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه . « وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره . وقيل : هو عطف على قوله تعالى : « لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب ، وهذه الأشياء ؛ ليتعامل الناس بالحق ، « وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » ويرى الله من ينصر دينه « وَ » ينصر « رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ » قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم ، ويؤمنون بهم « بِالْغَيْبِ » أي وهم لا يرونهم . « إِنْ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » « قَوِيٌّ » في أخذه « عَزِيزٌ » أي منيع غالب . وقد تقدم . وقيل : « بِالْغَيْبِ » بالإخلاص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ فصل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب ، وأخبر أنه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوة في نسلهما ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أى جعلنا بمض ذريتهما الأنبياء ، وبعضهم أمما يتلون الكتب المنزلة من السماء : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من أئمتهم بل إبراهيم ونوح ﴿ مُهْتَدٍ ﴾ . وقيل : « فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ » أى من ذريتهما مهتدون . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كفرون خارجون عن الطاعة .

قوله تعالى : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾ أى على آثار الذرية . وقيل : على آثار نوح وإبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدم اشتقاقه في أول سورة « آل عمران » .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعنى الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى مودة فكان يواد بعضهم بعضاً . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحزفوا الكلم عن مواضعه . والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة تخفيف الكل ، والرحمة تتحمل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو على : وابتدعوها رهبانية ابتدعوها . وقال الزجاج : أى ابتدعوها رهبانية ؛ كما تقول رأيت زيدا وعمرا كلمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وابتدعوا فيها . قال الماوردى : وفيها قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهى الخوف من الرهب . الثانية بضم الراء وهى منسوبة إلى الرهبان كالرضوانية من الرضوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوه ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناكم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فأعتزلوا الناس وأخذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التى ابتدعوها رفض النساء وأخذوا الصوامع . وفى خبر مرفوع : " هى لحوقهم بالبرارى والجهال " . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله ابن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضى الله ؛ قاله ابن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة . ويكون « ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » بدلا من الهاء والألف فى « كَتَبْنَاهَا » والمعنى : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . وقيل : « إِلَّا ابْتِغَاءَ » الاستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص ؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) » وهذا فى قوم أذاهم الترهب إلى طلب الرياسة فى آخر الأمر . وروى سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا » قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل ،

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم :
 لو قُتلت هذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : آبنوا لنا
 أسطوانة أرفعونا فيها ، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة :
 دعوانهم في الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية ، فإذا قدرتم علينا فأقتلونا .
 وطائفة قالت : آبنوا لنا دُوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وایس أحد
 من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، ففضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم
 ممن قد غيّر الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبّد كما تعبّد أولئك ، وهم على شركهم لا علم لهم
 بإيمان من تقدّم من الذين آفتدوا بهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
 عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » الآية . يقول : آبتدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا »
 المتأخرون « حَقَّ رِعَايَتِهَا » (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) يعنى الذين آبتدعوها أولاً ورَعَوْهَا
 (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) يعنى المتأخرين ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم
 إلا قليل ، جاءوا من الكهوف والصوامع والغيران فأمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغى لمن آبتدع خيراً أن يدوم
 عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية . وعن أبى أمامة الباهلى — وأسمه صدى بن
 عجلان — قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنما كتب عليكم الصيام ، فدوموا
 على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناساً من بنى إسرائيل آبتدعوا بدعاً لم يكتبها الله عليهم
 آبتغوا بها رضوان الله فما رَعَوْهَا حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا
 مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعة — وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب
 إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا في سورة « الكهف »
 مستوفى والحمد لله . وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال :

نخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سريّة من سراياه فقال : مرّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يا نبي الله ! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل ، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا . قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة " . وروى الكوفيون عن ابن مسعود ، قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدري أى الناس أعلم " قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على آسته هل تدري من أين آتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا ففترق في الأرض إلى أن بعث الله النبي الأمي الذي وعدنا عيسى — يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم — فنفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر — وتلا « وَرَهْبَانِيَّة » الآية — أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على الثلاث يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرهما واختلف من كان من قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرهما فرقة وأزت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليه السلام — حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرائي قومهم فدعواهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرائي قومهم فدعواهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا » — الآية — فن

آمن بي وأتبعني وصدقتني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون “
يعنى الذى تهودوا وتنصروا . وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به
فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى إن الأولين أصروا على
الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ **لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ**
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)** أى آمنوا بموسى وعيسى **(اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ)**
بمحمد صلى الله عليه وسلم **(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)** أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى
ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهذا مثل قوله تعالى : **« أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا »**
وقد تقدم القول^(١) فيه . والكفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء^(٢) » وهو فى الأصل
كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله ابن جريج . ونحوه قال الأزهري ،
قال : اشتقاقه من الكساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله
يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكفل الراكب . وقال أبو موسى
الأشعري : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن ابن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيا
والآخرة . وقيل : لما نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » افتخر مؤمنو أهل

الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية . وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مثل واحد ، فقال : الحسنة اسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، وينطلق على عمومها ، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد . وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين ؛ بدليل هذه الآية فإنه قال : « كَفَّالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » والكفل النصيب كالمثل ، بفعل لمن أتق الله وآمن برسوله نصيبين ؛ نصيباً لنقوى الله ونصيلاً لإيمانه برسوله . فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع ، لقوله تعالى : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » الآية بكاملها . فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مثل . وهذا تأويل فاسد ، لخروجه عن عموم الظاهر ، في قوله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍ هَذَا » بما لا يحتمله تخصيص العموم ، لأن ما جمع عشر حسنات فليس يُجزى عن كل حسنة إلا بمثلها . وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه . وقد تقدم ذكرها . ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق . ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا ﴾ أى بياناً وهدى ، عن مجاهد . وقال ابن عباس : هو القرآن . وقيل : ضياء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في الآخرة على الصراط ، وفي القيامة إلى الجنة . وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها . وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السلام . وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية في الدين . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى ليعلم ، و « أن لا » صلة زائدة . مؤكدة ؛ قاله الأخفش . وقال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة في كل كلام دخل عليه

تجحد . قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : «لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ» أى لأن يعلم أهل الكتاب أنهم (لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل . فلما خرج من العرب كفروا فنزلت : «لَيْلًا يَعْلَمُ» أى ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أى أنهم لا يقدرُونَ ؛ كقوله تعالى : «أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا» . وعن الحسن : «لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروى ذلك عن ابن مجاهد . وروى قُطْرُبُ بكسر اللام وإسكان الياء . وفتح لام الجر لغة معروفة . ووجه إسكان الياء أن همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام فصار «لَلَّ» فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء ؛ كما قالوا في أمّا : أيّما . وكذلك القول في قراءة من قرأ «لَيْلًا» بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة . وعن ابن مسعود «لَيْلًا يَعْلَمُ» وعن حطّان بن عبد الله «لَأَنَّ يَعْلَمُ» . وعن عكرمة «لِيَعْلَمُ» وهو خلاف المرسوم . «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» قيل : الإسلام . وقيل : الثواب . وقال الكلبي : من رزق الله . وقيل : نعم الله التي لا تحصى . «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون . وقيل : «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» أى هو له (يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) . وفي البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، قال حدثنا شعيب عن الزهري ، قال أخبرني سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى آتت نصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيت القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيت قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال هل

(١) راجع ج ١١ ص ٢٣٦ .

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضاً كما في السمين وغيره ، فتكون للحسن قراءة فان فتح اللام وكسرها مع إسكان

الياء فيها .

ظلمتكم من أكرم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشياء في رواية : "نفضت اليهود والنصارى وقالوا ربنا" الحديث (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) . [تم تفسير سورة «الحديد» والحمد لله^(١) .

تفسير سورة المجادلة

وهي اثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدني وبقية مكّي ، وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَآيَهُمْ » نزل بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
فيه مسائل ثلث :

الأولى قوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ)
التي أشكت إلى الله هي خولة بنت ثعلبة ، وقيل بنت حكيم ، وقيل اسمها جميلة ، وخولة
أصح ؛ وزوجها أوس بن الصّامت أخو عبادة بن الصّامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب
رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر
قد كنت تدعى عميراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فأتق الله يا عمر ؛ فإنه
من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ؛ وهو واقف يسمع
كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه المعجزة هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني
من أول النهار إلى آخره لأزات إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه المعجزة ؟ هي خولة

(١) ما بين المربعين ساقط من ح ، س ، ط ، هـ .

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه ، وهى تشكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سننى وأنقطع ولدى ظاهر منى ؛ اللهم إني أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » نخرجه ابن ماجه فى السنن . والذى فى البخارى من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردى : هى خولة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا يختلف ؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أوس بن الصّامت أخو عبادة بن الصّامت . وقال الثعلبى قال ابن عباس : هى خولة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بن الصّامت أخو عبادة بن الصّامت ، وكانت حسنة الجسم ؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجباً يزتها فأعجبه أمرها ، فلما أنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها — قال عروة ^(١) : وكان أمراً به لم فأصابه بعض لممه فقال لها : أنت على كظهر أمى . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية ، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : « حرمت عليه » فقالت : والله ما ذكر طلاقاً ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقبى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى وقد نفضت له بطنى ؛ فقال : « حرمت عليه » فما زالت تراجعها ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أوحى إلىّ فى هذا شيء » فقالت : يا رسول الله ، أوحى إليك فى كل شيء وطوى عنك هذا ؟ فقال : « هو ما قلت لك » فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

(١) عروة هو راوى حديث عائشة المتقدم . (٢) الم : طرف من الجنون يلم بالإنسان أى يعتريه .

فأنزل الله : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » الآية . وروى الدارقطني من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال : إن أَوْس بن الصّامت ظاهر من أمراته خُوَيْلَةَ بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبرت سني وورق عظمي . فأنزل الله تعالى آية الظهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : « أعتق رقبة » قال : مالي بذلك يدان . قال : « فصم شهرين متتابعين » قال : أما إني إذا أخطأتني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكلّ بصرى . قال : « فاطعم ستين مسكينا » قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له [والله غفور رحيم] . (١) (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكينا ، وفي الترمذي وسنن ابن ماجه : أن سلمة ابن صخر البياضي ظاهر من أمراته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أعتق رقبة » قال : فضربت صفقة عنقي بيدي . فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم شهرين » فقلت : يا رسول الله ! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام . قال : « فاطعم ستين مسكينا » الحديث . وذكر ابن العربي في أحكامه : روى أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قد حرمت عليه » فقالت : أشكو إلى الله حاجتي . [ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمت عليه » فقالت : إلى الله أشكو حاجتي إليه] وهائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : آسكتي فإنه قد نزل الوحي . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : « أعتق رقبة » قال : لا أجد . قال : « صم شهرين متتابعين » قال : إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصرى . قال : « فاطعم ستين مسكينا » . قال : فأعني . فأعانه بشيء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خولة

(٢) الزيادة من الأحكام لابن العربي .

(١) الزيادة من ح ، ز ، ل ، هـ .

وزوجها أوس بن الصامت ، وأختلفوا في نسبها ، قال بعضهم : هي أنصارية وهي بنت نعلبة ، وقال بعضهم : هي بنت دليج ، وقيل : هي بنت خويلد ، وقال بعضهم : هي بنت الصامت ، وقال بعضهم : هي أمة كانت لعبد الله بن أبي ، وهي التي أنزل الله فيها « وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » لأنه كان يُكرهها على الزنى . وقيل : هي بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمتناقض ، يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها ، ومرة إلى أمها ، ومرة إلى جدّها ، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبي فقل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين .

الثانية - قرئ « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » بالأدغام و « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » بالإظهار . والأصل في السماع إدراك المسموعات ، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن . وقال ابن فورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بأذانهم من غير أن يكون له أذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه ؛ وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما . وشكى وأشكى بمعنى واحد . وقرئ « تُحَاوِرُكَ » أي تراجعك الكلام و « تُجَادِلُكَ » أي تساءلك .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ
إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢٠﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ ^(١) ﴾ قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وخلف « يَظْهَرُونَ » بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظْهَرُونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم ويزيد ابن حبیش « يُظَاهِرُونَ » بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقد تقدم هذا في « الأحزاب » ^(٢) . وفي قراءة أبي « يَتَظَاهَرُونَ » وهي معنى قراءة ابن عامر وحزمة . وذكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنى عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات وإنما يركب ظهره ، فكنى بالظهر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أى طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت على كظهر أمي : أى أنت على محزمة لا يحل لي ركوبك .

الثانية — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب تلحم منه تشبيه ظهر بحال بظهر محرم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجه : أنت على كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثروا على أنه إن قال لها : أنت على كظهر أبتى أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبه امرأته بظهر محرم عليه مؤبد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأول قول الحسن والنخعي والزهرى والأوزاعي والثوري .

الثالثة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً . فإن قال : أنت على كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت على مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقاً البتة عند مالك ،

(١) نسخ الأصل على « يظهرون » وهي قراءة نافع التي يقرأ بها المؤلف فيما يأتي .

(٢) راجع ج ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئاً بل أحال الكلام على هذه السورة .

وإن لم تكن له نية في طلاق ولاظهار كان مظاهرا . ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكأيته المعروفة له إلى الظهار ، وكأية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق ألبت .

الرابعة — ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكأية ؛ فالصريح أنت على كظهر أمي ، وأنت عندي وأنت مني وأنت معي كظهر أمي . وكذلك أنت على كبطن أمي أو كراسها أو فرجها أو نحوه ، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك على كظهر أمي فهو مظاهر ؛ مثل قوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه . وقال الشافعي في أحد قوله : لا يكون ظهرا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافا لأبي حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل له بحال كالبنات والأخت والعمة والحالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا . والكأية أن يقول : أنت على كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهرا ، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا عند الشافعي وأبي حنيفة . وقد تقدم مذهب مالك رضي الله عنه في ذلك ؛ والدليل عليه أنه أطلق تشبيه أمراته بأمه فكان ظهرا . أصله إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود — واللفظ بمعناه — ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما ألزمه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله ابن العربي .

الخامسة — إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبي حنيفة في قوله : إنه إن شبهها بعضو يحل له النظر إليه لم يكن مظاهرا . وهذا لا يصح ؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل له ، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر ؛ وقد قال الإمام الشافعي في قول : إنه لا يكون ظهرا إلا في الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محرم ، فكان التشبيه به ظهرا كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى .

السادسة - إن شبه أمرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارة حلالاً على الأول، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماءنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهارة . ومنهم من قال : يكون طلاقاً . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يكون شيئاً . قال ابن العربي : وهذا فاسد ؛ لأنه شبه محلاً من المرأة بحرم فكان مقيداً بحكمه كالظهر ، والأسماء بمائها عندنا ، وعندهم بالفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوى عند مالك . وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن . ومنهم من لا يجعله شيئاً . ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً . وهو عند مالك إذا قال : كظهر أبي أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه . وقد روى عنه أيضاً : أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي . وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها . والله أعلم .

السابعة - إذا قال : أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهارة ولم يكن طلاقاً ؛ لأن قوله : أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة ، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضى به فيه .

الثامنة - الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه . وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمامته ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم . قال القاضي أبو بكر ابن العربي : وهي مسألة عسيرة جداً علينا ؛ لأن مالكاً يقول : إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم . فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كتابته . ولكن تدخل الأمة في عموم قوله : « مِنْ نِسَائِهِمْ » لأنه أراد من محلاتهم . والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالوضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة — و يلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة « براءة » عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ^(١) » الآية .
 العاشرة — الذمي لا يلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : يصح ظهار الذمي ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعني من المسلمين . وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب . فإن قيل : هذا استدلال بدليل الخطاب . قلنا : هو استدلال بالاشتقاق والمعنى ، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار ، وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ ^(٢) » وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة ، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال .

الحادية عشرة — قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه . وحكاية الثعلبي عن مالك ، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام .

الثانية عشرة — وقال مالك رضي الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، وإنما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللاتي يظهرن منكن من أزواجهن ، وإنما الظهار على الرجال . قال ابن العربي : هكذا روى عن ابن القاسم وسالم ومحيي بن سعيد وربيع وأبي الزناد . وهو صحيح معني ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحرير] في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد : هي مظاهرة . وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد : ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده . وقال الشافعي : لاظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعي : إذا قالت المرأة لزوجها ؛ أنت علي كظهر أمي ^(٣)

(٢) راجع ج ١٨ ص ١٥٧ .

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٠ .

(٤) لفظ « أمي » ساقط من ح ، ز ، س ، ه ، .

(٣) الزيادة من ابن العربي .

فلانة فهي يمين تكفرها . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون امرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها ؛ رواه عنه معمر . وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبي يوسف . وقال محمد بن الحسن : لا شيء عليها .
الثالثة عشرة — من به لَمَمٌ^(١) وانتظمت له في بعض الأوقات الكلام إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لما روى في الحديث : أن خولة بنت ثعلبة وكان زوجها أوس بن الصّامت وكان به لَمَمٌ فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من أمراته .

الرابعة عشرة — من غضب وظاهر من امراته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه . وفي بعض طرق هذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدثتني خولة امرأة أوس بن الصّامت ، قالت : كان بيني وبينه شيء ، فقال : أنت على كظهر أمي ثم خرج إلى نادى قومه . فقولها : كان بيني وبينه شيء ؛ دليل على منازعة أخرجته فظاهر منها^(٢) . والغضب لغولا يرفع حكماً ولا يغير شرعاً وكذلك السكران . وهي :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقل قوله ونظم كلامه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » على ما تقدم في « النساء » بيانه . والله أعلم .

السادسة عشرة — ولا يقرب المظاهر أمراته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر ، خلافاً للشافعي في أحد قوليهِ ؛ لأن قوله : أنت على كظهر أمي يقتضي تحريم كل استمتاع بالفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفر ، وهي :

السابعة عشرة — استغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان . روى سعيد عن قتادة ، ومطرّف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة ابن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال : قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم ابن ماجه

(١) في ح ، ز ، س ، ل : « أخرجته » بالواو بدل الراء . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٠٣

والنسائي عن ابن عباس : أن رجلاً ظاهراً من أمراته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ما حملك على ذلك" فقال : يا رسول الله ! رأيت بياضاً خالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفر . وروى ابن ماجه والدارقطني عن سليمان بن يسار عن سلمة ابن صخر أنه ظاهراً في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وقع بأمراته قبل أن يكفر ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيراً واحداً .

الثامنة عشرة — إذا ظاهراً من أربع نسوة في كلمة واحدة ؛ كقوله : أنتن على كظهر أمي كان مظاهراً من كل واحدة منهن ، ولم يجرله وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة . وقال الشافعي : تلزمه أربع كفارات . وليس في الآية دليل على شيء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعتول على المعنى . وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهراً منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهراً من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة — فإن قال لأربع نسوة : إن تزوجتكن فانتن على كظهر أمي فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر ، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن . وقد قيل : لا يبطأ البواقي منهن حتى يكفر . والأول هو المذهب .

الموفية عشرين — وإن قال لامراته : أنتن على كظهر أمي وأنت طالق البتة ؛ لزمه الطلاق والظهار معاً ، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطاها إذا نكحها حتى يكفر ، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت على كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار ؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

(١) يريد بالبتة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما في ابن العربي حيث قال : إذا طلقها ثلاثاً بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطا حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لا يصحظهار غير المدخول بها . وقال المزني : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية ، وهذا ليس بشيء ؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة ، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياساً ونظراً ، والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتُهُمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى : « مَا هَذَا بَشَرًا » . وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما « أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع على لغة تميم . قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون « مَا هَذَا بَشَرٌ » ، و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفي المثل : وَلَدِكَ مِنْ دُمِّي عَقِيكَ . وقد تقدم القول في اللائي في « الأحزاب »^(١) .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى فظيماً من القول لا يعرف في الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مختصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسًا ذَلِكَمْ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُتُومُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

(١) ليس في الأحزاب كلام على اللائي ويبدو أن سقطا وقع في نسخ الأصل التي بأيدينا .

فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ هذا ابتداء والخبر « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه ؛ أى فعلهم تحرير رقبة . وقيل : أى فكفارتهم عتق رقبة . والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أُمى . وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله : « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا » فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته . فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار ؛ لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود ، وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة : الأول — أنه العزم على الوطء ، وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه . وروى عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عوداً ، وإن لم يعزم لم يكن عوداً . الثانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها ؛ قاله مالك . الثالث — العزم عليهما . وهو قول مالك فى موطنه ؛ قال مالك فى قوله الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » قال : سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها ؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة ، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه . قال مالك : وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسه حتى يكفر كفارة التظاهر . القول الرابع — أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عوداً ؛ قاله الحسن ومالك أيضاً . الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم ، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتداء من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه . وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة . السادس — أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . ومعنى العود عند القائلين بهذا : أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها ، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد . السابع — دو تكرير الظهار بلفظه . وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس ، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود ، وإن لم يكرر فليس يعود . ويسند ذلك إلى بكير بن

الأشجع وأبى العالية وأبى حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له ؛ لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أى إلى قول ما قالوا . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَبْظَهْرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت على كظهر أمى . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار . قال ابن العربى : فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس فى ذكر الكفارة عليهم ذكر إعود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحذور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل ؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء فى صوم أو غيره .

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه ، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعى : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات : الأول — أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضى التراخى . الثانى — أن قوله تعالى : « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضى وجود فعل من جهة وصرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث — أن الطلاق الرجعى لا ينافى البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذا لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفر وعاد إلى أهله . وتحقيق هذا القول : أن العزم قول نفسى ، وهذا رجل قال قولاً آفتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولاً آفتضى التحريم وهو الظهار ، ثم ما دام لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد ، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله فى نفسه من الظهار الذى أخبر عنه بقوله أنت على كظهر أمى ، وإذا كان ذلك كفر وعاد إلى أهله ؛ لقوله : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [فى فنه] .^(١)

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

الثانية - قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى «وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا ؛ أى فعلهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ؛ فالجار في قوله : «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذى هو خبر الابتداء وهو عليهم ؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . وقيل : المعنى الذين كانوا يَظَاهِرُونَ من نسائهم فى الجاهلية ، ثم يعودون لما كانوا قالوه فى الجاهلية فى الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة . الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما ما قالوا ويريدون الوطء . وقال الأخفش : لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان ؛ قال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» وقال : «فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» وقال : «يَا رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» وقال : وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ» .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى فعلية إعتاق رقبة ؛ يقال : حررته أى جعلته حراً . ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب ، من كملها إسلامها عند مالك والشافعى ؛ كالرقبة فى كفارة القتل . وعند أبى حنيفة وأصحابه تجزى الكفارة ومن فيها شائبة رِقٍّ كالمكاتبة وغيرها .

الرابعة - فإن أعتق نصفى عبيدين فلا يجزئيه عندنا ولا عند أبى حنيفة . وقال الشافعى يجزئ ؛ لأن نصف العبدین فى معنى العبد الواحد ؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال بخلاف أن يدخلها التبعض والتجزى كالإطعام ؛ ودليلنا قوله تعالى : «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد ، وبعض الرقبة ليس برقبة ، وليس ذلك مما يدخله التلقيق ؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقتين مقامها ؛ أصله إذا أشترك رجلان فى أخصيتين ؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا ؛ ولأنه لو أوصى بأن تشتري رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبيدين ، كذلك فى مسائلنا وبهذا يبطل دليلهم . والإطعام وغيره لا يتجزئ فى الكفارة عندنا .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٨ (٢) راجع ج ١٥ ص ٨٣ (٣) راجع ج ٢٠ ص ١٤٩

(٤) راجع ج ٩ ص ٢٩ (٥) فى ح ، ز ، س ، ط ، ل : «شعبة رِقٍّ والمعنى واحد»

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ﴾ أى يجامعها فلا يجوز للظاهر الوطء قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع فى التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلاً ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس ، فإذا أضرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة ؛ لأنه بوطئه ارتكب إثمًا فلم يكن ذلك مسقطاً للكفارة ، ويأتى بها قضاء كما لو أضر الصلاة عن وقتها . وفى حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة . وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام . وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم ؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم فى قول أكثر العلماء . وقاله الحسن وسفيان ، وهو الصحيح من مذهب الشافعى . وقيل : وكل ذلك محرم وكل معانى المسيس ؛ وهو قول مالك وأحد قولى الشافعى . وقد تقدم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ ﴾ أى تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه ، فله أن يصوم عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة ، وهى :

الثامنة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر فى أثناءهما بغير عذر استأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فليل : يبنى ؛ قاله ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمر بن دينار والشعبي . وهو أحد قولى الشافعى وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

(١) لم يتقدم العود فى حديث أوس ، وإنما هو فى مظاهر آخر وهو الفائل : رأيت خلخالها فى ضوء القمر .

إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يتدنى . وهو أحد قولي الشافعي .

التاسعة — إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي ؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه ؛ قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل أنقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعاً من العلماء . وإذا ابتدأ سقراً في صيامه فأفطر^(١) ، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله : « مُتَتَابِعِينَ » . ويبنى في قول الحسن البصري ؛ لأنه عُذْر^(٢) [وقياساً على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحل صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان أنقطع] .

العاشرة — إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهائياً ، بطل التابع في قول الشافعي ، وليلاً فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلاً للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا » وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين ، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل أنقضائهما فليس هو الصيام المسأور به ، فلزمه استئنافه ؛ كما لو قال : صل قبل أن تكلم زيداً . فكلم زيداً في الصلاة ، أو قال : صل قبل أن تبصر زيداً فأبصره في الصلاة لزمه استئنافه ؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المسأور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — ومن تطاول مرضه طويلاً لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجازله العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة — ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفر صام . وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكفر . ولو جامعها في عدمه

(١) لفظة « فأفطر » ساقطة من ز ، ل . (٢) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، ه ، ل .

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ المساء عليه وهو قد دخل بالتييم في الصلاة أن يقطع ويتدنى الطهارة عند مالك ،

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يحزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين ، وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يحزیه . ولو ظاهر من أمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينا لم يحزله وطء واحدة منهما حتى يكفر كفارة أخرى . ولو عین الكفارة عن إحداهما جازله أن يطأها قبل أن يكفر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهن ثلاث رقاب ، وصام شهرين ، لم يحزه العتق ولا الصيام ؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما ، فإن كفر عنهن بالإطعام جاز أن يطعم عنهن مائتي مسكين ، وإن لم يقدر فترق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة ؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة ، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام ، فن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم . وإن أطعم مدين بمدة هشام ، وهو مدين إلا ثلثا ، أو أطعم مدين ونصف بمدة النبي صلى الله عليه وسلم أجزاء . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ ^(١) » فوجب قصده الشبع . قال ابن العربي : وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم : مدين بمدة هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال في رواية أشهب : مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) : [قيل له : ألم تكن قلت مدين هشام ؟ قال : بلى ، مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلي] . وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضا .

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٥ (٢) ما بين المربعين سابق من الأصل المطبوع .

قلت : وهى رواية ابن وهب ومطرف عن مالك : أنه يعطى مدين لكل مسكين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعى وغيره مدة واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المدة ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعالى : « قِطَاعُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » وإطلاق الإطعام يتناول الشبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدة واحد إلا بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أينختلف الشبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشبع عندنا مدة بمدة النبي صلى الله عليه وسلم والشبع عندكم أكثر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسى : إنما أخذ أهل المدينة بمدة هشام فى كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً . قال ابن العربى : وقع الكلام ها هنا فى مدة هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويعجو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التى نزل الوحي بها وأستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه : « قِطَاعُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشبع فى الأخبار كثيراً ، وأستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان فى أذن هشام ، فرأى أن مدة النبي صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه ، فسؤل له أن يتخذ مدداً يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا آبتل عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغير السنة وأذهب محل البركة . قال النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة فى مدتهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجرى بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فى مده ، فسعى الشيطان فى تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له فى ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلفوا ذكره ويعجوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره فى الأحكام ، ويعملوه تفسيراً لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم نخطب جسيم ، ولذلك كانت رواية أشهب فى ذكر مدين بمدة النبي صلى الله عليه وسلم فى كفارة الظهار أحب إلينا من

الرواية بأنها بمدة هشام . ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشّيع عندنا بمدة النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، والشّيع عندكم أكثر لأن النّبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة ، وبهذا أقول ، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان ، وأبرك في يد الآخذ ، وأطيب في شدقه ، وأقل آفة في بطنه ، وأكثر إقامة لصاحبه ^(١) . والله أعلم ^(٢) .

الثانية — ولا يحزى عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزاءه .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . وأحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشد والسفيه ؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامة ، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشياً والنظر يقتضيه ، ومن كان عليه حجر لصغير أو لولاية وبلغ سفياً قد نهى عن دفع المال إليه ، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضى على العام .

الرابعة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً ، وقد روى معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما .

الخامسة — قوله تعالى : « ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة « لِيُؤْمِنُوا » أي لتصدقوا أن الله أمر به . وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : « ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدوها ؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيماناً ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكراً من القول وزوراً .

(١) في ح ، ز ، م ، هـ : « لقلبه » . (٢) في ح ، ز ، م ، ل ، هـ : « والله الموفق لأرب غيره » .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ، فيكون المعنى ذلك لثلاث تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا ؛ إذ كان الله منع من مسيئتها ، وتكفروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفارة وألزم إخراجها منكم ؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ؛ لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدونها والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى بين معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى لمن لم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَذَبُوا كَمَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦٠﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادة المعادة والمخالفة فى الحدود ؛ وهو مثل قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » . وقيل : « يُحَادُّونَ اللَّهَ » أى أولياء الله كما فى الخبر : « نأهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » . وقال الزجاج : المحادة أن تكون فى حد يخالف حد صاحبك . وأصلها الممانعة ؛ ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب . ﴿ كُتِبُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : انخرؤا كما انخرى الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . وقيل : « كُتِبُوا »

أى سيكتبون ، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر ، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقریباً للخبر عنه . وقيل : هى بلغة مدح ^(١) . (وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) فيمن حاد الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

قوله تعالى : (يَوْمَ) نصب بـ « عَذَابٍ مُهِينٍ » أو بفعل مضمر تقديره وأذكر تعظيماً لليوم . (يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة (فَيُنَبِّئُهُمُ) أى يخبرهم (بِمَا عَمِلُوا) فى الدنيا (أَحْصَاهُ اللَّهُ) عليهم فى صحائف أعمالهم (وَنَسُوهُ) هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فلا يخفى عليه سر ولا علانية . (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى) قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعل . والنجوى : السرار ؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به ؛ يقال : قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » ^(٢) . وقوله تعالى : (ثَلَاثَةٍ) خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفراء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فأنخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها . ولو نصبت على إضمار فعل جاز ؛ وهى قراءة ابن أبى عتبة « ثَلَاثَةٌ » و « خَمْسَةٌ » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشري . ويجوز رفع « ثَلَاثَةٌ » على البدل من موضع « نَجْوَى » . ثم قيل : كل سرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧٢

(١) مدح - كسجد - : أبو قبيلة باليمن .

خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به . والسرار ما كان بين اثنين . ﴿ إِلَّا هُوَ رَآبِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه آفتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النجوة وهى ما ارتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما تخلصا المرتفع من الأرض عما يتصل به ، والمعنى : أن سمع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهرها منها زوجها . ﴿ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ ﴾ قرأ سلام ويعقوب وأبو العالية ونسرو عيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِنْ » لأن تقديره ما يكون نجوى ، و « ثَلَاثَةٌ » يجوز أن يكون مرفوعاً على محل « لَا » مع « أَذْنَى » كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ؛ كقولك لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة » بيان هذا مستوفى . وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء . والعامة بالثاء وفتح الزاء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفراء فى قوله : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَآبِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو أكثر ، يعلم ما يقولون سرا وجهراً ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك آكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال . ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يَنْبَهُهُمْ ﴾ ينبرهم ﴿ يَمَّا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسىء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِنْفِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَمَّ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قيل : إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه . وقيل : في المسلمين . قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقربنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكاؤهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود مودة ، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً ، فيخرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانية — روى أبو سعيد الخدري قال : كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما هذه النجوى ألم أنهوا عن النجوى » فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ؛ إنا كنا في ذكر المسيح — يعني الدجال — فرقا منه . فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه » قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : « الشرك الخفى » أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل « ذكره الماوردي . وقرا حمزة وخلف ورؤيس عن يعقوب « وَيَتَنَجَّوْنَ » في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه . وقرا الباقر « وَيَتَنَاجَوْنَ » في وزن يتفعلون ، وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » و « تَنَاجَوْا » . النحاس : وحكى سيبويه أن تفعلوا وأفتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا ، وتقاتلوا وأقتلوا فعلى هذا « يَتَنَاجَوْنَ » و « يَتَنَجَّوْنَ » واحد . ومعنى ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أى الكذب والظلم . ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى مخالفته . وقرا الضحاك ومجاهد وحميد « وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ » بالجمع .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود؛ كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك . يريدون بذلك السلام ظاهراً وهم يعنون الموت باطناً ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : ” عليكم “ في رواية ، وفي رواية أخرى ” وعليكم “ . قال ابن العربي : وهى مشكلة . وكانوا يقولون : لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به ، وجهلوا أن البارئ تعالى حلیم لا يعاجل من سبه ، فكيف من سب نبيه . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافهم ويرزقهم “ فأزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم ، وفضحاً لبواطنهم ، معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم . وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهودياً أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال : السام عليكم . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ” أتدرون ما قال هذا “ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ” قال كذا ردوه على “ فردوه ، قال : ” قلت السام عليكم “ قال : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : ” إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليكم ما قلت “ فأزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

قلت : أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح . وثبت عن عائشة أنها قالت : جاء أناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم وفعل . فقال عليه السلام : ” مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش “ فقلت : يا رسول الله أأست ترى ما يقولون ؟ ! فقال : ” أأست ترى أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم “ فنزلت هذه الآية ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ أى إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليك ، والسام الموت . أخرجه البخارى ومسلم بمعناه . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم “ كذا الرواية ” وعليكم “ بالواو وتكلم عليها العلماء ؛ لأن الواو العاطفة يقتضى التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت ، أو من

صامة ديننا وهو اللال . يقال : سُم يسَام صَامَةً وسَاماً . فقال بعضهم : الواو زائدة كما زیدت فی قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

أى لما أجزنا أنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هى للاستئناف، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هى على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك ؛ لأننا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سلم ناس من يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال : ” وعليكم ” فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : ” بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا ” خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنى ، وإثباتها أصح رواية وأشهر .

وقد اختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ، وإليه ذهب ابن عباس والشَّعْبِي وقَتَادَةُ ؛ للأمر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك . وقد أختار ابن طاووس أن يقول في الرد عليهم : عليك السلام أى أرتفع عنك . وأختار بعض أصحابنا : السلام بكسر السين يعنى الحجارة . وما قاله مالك أولى أتباعاً للسنَّة ؛ والله أعلم . وروى مسروق عن عائشة قالت : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ناس من اليهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، قال : ” وعليكم ” قالت عائشة : قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا عائشة لا تكوني فاحشة ” فقالت : ما سمعت ما قالوا ! فقال : ” أو ليس قد رددت عليهم الذى قالوا قلت وعليكم ” . وفى رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبَّتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش والتفحش ” وزاد فأمر الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب ؛ وفى المثل (لا تعدم الحسناء ذاماً) أى عيباً ، ويهمز ولا يهمز؛

يقال : ذَامَهُ يَذَامُهُ ، مثل ذاب يذاب ، والمفعول مذكوم مهموزاً ، ومنه « مَذُومًا مَذُورًا »^(١)
ويقال : ذَامَهُ يَذُومُهُ مَخَفًا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان عهد نبياً لعذبنا الله بما نقول فهذا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يرد علينا ويقول عليكم السام والسم الموت ، فلو كان نبياً لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجب منهم ؛ فانهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يغضبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافهم جهنم عقاباً غداً ﴿ فَيُبْسِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِلَهِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أى يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ » أى تساررتهم . ﴿ فَلَا تَتَنَجَّجُوا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فَلَا تَتَنَجُّجُوا » من الاتجاء ﴿ بِالْإِلَهِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للمنافقين ؛ أى يا أيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يا أيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا ، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكيدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ﴾ أى التناجى ﴿ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته وقيل : بعلمه . وعن ابن عباس : بأمره . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى يكون أمرهم إليه ، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ، فهو الذى سَلَطَ الشيطان بالوساوس آتلاءً للعبد وأمتحاناً ولو شاء لصرفه عنه .

الثانية — فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا كان ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الواحد “ . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه “ فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يحذر الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر ، وذلك أنه كان يتحدث مع رجل بجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجيه حتى دعا رابعاً ، فقال له ولأقول : تناجى الرجل الطالب للناجاة . خرج الموطأ . وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله : ” من أجل أن يحزنه “ أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من القليات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أمن ذلك ، وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً ، لوجود ذلك المعنى فى حقه ، بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنما خص الثلاثة بالذكر ، لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان (١) فى ج ، ز ، هـ : « أو إذا رأوا إجماعهم » .

في أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما في الحضرة بين العامة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيثة ^(١) . والله أعلم .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ آنشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴿١١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ)** لما بين أن اليهود يحبونه بما لم يحبّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا أصطفوا للحرب . قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ؛ رغبة في القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : **« مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ »** ^(٢) . وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصفّة ، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « الغوث » . (٢) الأصول على قراءة نافع « في المجلس » بالأفراد .

(٣) في ل : « الأول فالأول » . (٤) راجع ج ٤ ص ١٨٤

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، بغناء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس
 ابن شماس وقد سبقوا في المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم على أرجلهم
 ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن
 حوله من [غير^(١)] أهل بدر : ” قم يا فلان وأنت يا فلان “ بعدد القائمين من أهل بدر ، فشق
 ذلك على من أقيم ، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهية في وجوههم ، فغمز المنافقون
 وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء وقد أحسبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان ؛
 فأنزل الله عز وجل هذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وَفَسَّحَ فلان لأخيه في مجلسه
 يَفْسَحُ فَسْحاً أى وسع له ؛ ومنه قولهم : بلد فسيح ولك في كذا فسحة ، وَفَسَحَ يَفْسَحُ مثل منع
 يَمْنَعُ ، أى وسع في المجلس ؛ وَفَسَحَ يَفْسَحُ فسحةً مثل كرم يَكْرُمُ^(٢) [كرامة^(٣)] أى صار واسعاً ؛ ومنه
 مكان فسيح .

الثانية — قرأ السلمي وزر بن حُبَيْش وعاصم « في المجالس » . وقرأ قتادة وداود
 ابن أبي هند والحسن باختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا في المجالس »
 فمن جمع فلان قوله : « تَفَسَّحُوا في المجالس » ينبىء أن لكل واحد مجلساً . وكذلك إن
 أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل
 جالس مجلساً . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجوز
 أن يراد به الجمع على مذهب الجنس ؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء
 كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ؛ فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه
 [قال صلى الله عليه وسلم : ” من سبق إلى ما لم يُسبق إليه فهو أحق به “]^(٣) ولكن يوسع
 لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن

(١) الزيادة من ل ، وأسباب النزول وبعض التفسير وفي ز : « قم أنت يا فلان وأنت يا فلان » .

(٢) زيادة من ل . (٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي .

النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه “ . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخاري .

الثالثة — إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه ؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول آفسحوا “ .

فرع — القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظر ؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك ؛ لأن فيه تفويت حفظه .

الرابعة — إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره ، فإذا جاء الأمر يقوم من الموضع ؛ لما روى : أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه ، فإذا جاء قام له منه .

(١)
فرع — وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادةً فتبسط له في موضع من المسجد .

الخامسة — روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا قام أحدكم — وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه — ثم رجع إليه فهو أحق به “ قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأخرى . وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير ممتلك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير ممتلك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه ، فصار كأنه يملك منفعتَه ؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه . والله أعلم .

(١) في ز ، س ، هـ ، ل يرض في هذه النسخ ، بعد قوله : « من المسجد » به عليه التامخ بالهامش بقوله : يرض بالأصل .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم .
 وقيل : يوسع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وآبن عامر
 وعاصم بضم الشين فيهما . وكسر الباقون ، وهما لغتان مثل « يَعْكُفُونَ » و « يَعْرِشُونَ »
 والمعنى أنهمضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين . وقال مجاهد والضحاك :
 إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالاً تناقلوا عن الصلاة فترأت . وقال الحسن
 ومجاهد أيضاً : أى أنهمضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا فى بنت النبي صلى الله
 عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال
 الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا » عن النبي صلى الله عليه وسلم « فَانْشُزُوا » فإن له حوائج
 فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيئوا إذا دعيت إلى أمر معروف . وهذا هو الصحيح ؛
 لأنه يعم . والنشز الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال نشز ينشز
 وينشز إذا انتحى من موضعه ؛ أى ارتفع منه . وأمراة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل
 هذا من النشز ، والنشز هو ما ارتفع من الأرض وتنتهى ؛ ذكره النحاس .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾
 أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على
 من ليس بعالم . وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله^(١)
 الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا
 ما أمروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يراهم من يلبس الصوف فيستيقون إلى
 مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء
 يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال : « يا فلان خشيت أن يتعدى
 غناك إليه أو فقره إليك » وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق
 إلى صدور المجالس . وقيل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى
 عن مالك : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله
 بها العالم والطالب للحق .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٧٢ ص ٢٧٣ . (٢) والمعنى يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين .

قلت : والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه^(١)
ثانياً . وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على
الصحابة ، فكلّموه في ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ^(٢) »
فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال
عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفي البخارى عن عبد الله بن عباس قال : قدم عِيْنَةُ
ابن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر
الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كَهولاً كانوا أو شباناً . الحديث
وقد مضى في آخر « الأعراف »^(٣) . وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقي عمر بعُسْفَانَ
وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملته على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى .
فقال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مَوْلَى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ! قال : إنه
قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال :
« إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » وقد مضى أول الكتاب . ومضى القول^(٤)
في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب^(٥) [والحمد لله^(٦)] . وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْرُ الجواد المَضْمَرِ
سبعين سنة » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر
على سائر الكواكب » . وعنه عليه الصلاة والسلام : « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء
ثم الشهداء » فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وعن ابن عباس : خَيْرُ سُلَيْمَانَ [عليه السلام] بين العلم والمال والملك فاختر
العلم فأعطى المال والملك معه .

(١) في ح ، ز ، س ، ل ، م : « فيرفع المرء » . (٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣٥٧ . (٤) راجع ج ١ ص ٦ .

(٥) راجع ج ١٤ ص ٣٤٣ . (٦) من س و ط .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرئون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس . ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً مناجاته . فكان ذلك يشق على المسلمين ، لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فأنهى أهل الباطل عن النجوى ، لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وأمتنعوا من النجوى ؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة لخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانية — قال ابن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح ، فإن الله تعالى قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيراً وأطهر .

وهذا رد على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد أبنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر في قوله تعالى : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ » نص متواتر في الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثة — روى الترمذى عن علي بن علقمة الأثمارى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : لما نزلت **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ)** ^(١) [سألته] قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ترى ديناراً » قلت لا يطيقونه . قال : « فنصف دينار » قلت لا يطيقونه . قال : « فكم » قلت : شعيرة . قال : « إنك لرهيد » قال فنزلت : **(أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ)** الآية . ^(٢) قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شعيرة من ذهب . قال ابن العربى : وهذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين : الأولى — نسخ العبادة قبل فعلها . والثانية — النظر في المقدرات بالقياس ؛ خلافاً لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أول من تصدق فى ذلك علي بن أبي طالب رضى الله عنه وناجى النبي صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علي بن أبي طالب أنه قال : « فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » كان لى دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدينار حتى نفذ ، فانسخت الآية الأخرى **(أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ)** . وكذلك قال ابن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال ابن عمر : لقد كانت لعلى رضى الله عنه ثلاثة لو كانت لى واحدة ممن كانت أحب إلى من حمر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطائه الراية يوم خيبر ، وآية المجوى . **(ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ)** أى من إمساكها **(وَأَظْهَرُ)** لقلوبكم من المعاصى **(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا)** يعنى الفقراء **(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** .

(١) زيادة من ج ، ز ، س ، ل ، هـ . (٢) كلمة : « فبى » ساقطة من ل .

قوله تعالى : **ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ** ^ج **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ^ج **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٣﴾

فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : **(ءَأَشْفَقْتُمْ)** استفهام معناه التقرير . قال ابن عباس : « **أَأَشْفَقْتُمْ** » أى أبلحتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم ، والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم ونبخلتم بالصدقة وشق عليكم **(أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ)** . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال ابن عباس : ما بقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانية - قوله تعالى : **(فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)** أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به **(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)** فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن على رضى الله عنه ضعيف ؛ لأن الله تعالى قال : **« فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا »** وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشئ . والله أعلم . **(وَاطِيعُوا اللَّهَ)** فى فرائضه **(وَرَسُولَهُ)** فى سننه **(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)** .

قوله تعالى : **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخَافُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٤﴾ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٥﴾ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تَوَلَّوْا اليهود ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السدي ومقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين ، كان أحدهما يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجراته إذ قال : ” يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان “ فدخل عبد الله بن نبتل — وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية — فقال عليه الصلاة والسلام : ” علام تشتمني أنت وأصحابك “ خلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” فعلت “ فأطلق بخاء بأصحابه خافوا بالله ما سبوه ، فنزلت هذه الآية . وقال معناه ابن عباس . روى عكرمة عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة فدكاد الظل يتقلص عنه إذ قال : ” يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان “ فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق ، فدعا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” علام تشتمني أنت وأصحابك “ قال : دغى أجئك بهم . فترجأ بهم خلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شيء ، فأنزل الله عز وجل : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون في القرآن بـ « غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » . ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستنجون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية « إِيْمَانَهُمْ » بكسر الهمزة هنا وفي « المنافقون » . أي إقرارهم آتخذوه جنة ، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار . والصد المنع « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أي عن الإسلام . وقيل : في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق . وقيل : أي بلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

قوله تعالى : لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ إِلَّا إِنَّا حِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى من عذابه شيئاً . وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة ، لقد شقينا إذا ! فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فنزلت : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أى لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين فداً ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ابن عباس : هو قولهم « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » . ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بل إنكارهم وحلفهم . قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة . وقيل : « وَيَحْسَبُونَ » في الدنيا « أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » لأنهم في الآخرة يعلمون الحق بأضطرار . والأول أظهر . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ينادى مناد يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شديهم يسيل لعابهم فيقواون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قرأوا وصحفاً ولا وثناً ، ولا آتخذنا من دونك إلهاً » . قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ؛ ثم تلا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هم والله القدرية . ثلاثاً .

قوله تعالى : ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أى غلب وأستعلى ؛ أى بوسوسته في الدنيا . وقيل : قوى عليهم . وقال المفضل : أحاط بهم . ويحتمل رابعاً أى جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشيء أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم .

(١) في ح ، ز ، س ، ه ، ل : « فنزلت الآية قوله تعالى » . (٢) راجع ج ٦ ص ٤٠١

(فَأَنذَرْتَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ) أى أوامره فى العمل بطاعته . وقيل : زواجه فى النهى عن معصيته . والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، ويكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) طائفته وردطه (أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) فى بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، وباعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) تقدم أول السورة . (أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) أى من جملة الأذلاء لا أذل منهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأُغْلِبَنَّ) أى قضى الله ذلك . وقيل : كتب فى اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . (أَنَا) توكيد (وَرُسُلِي) من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أبي سؤل : أظنون الروم وفارس مثل القرى التى ظلمت عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عدداً ، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك ؛ فنزلت : « لَأُغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

قوله تعالى : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ^(١) تَقَدَّمَ ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السدى : نزلت في [عبد الله بن] عبد الله بن أبي ، جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشرب النبي صلى الله عليه وسلم ماء ، فقال له : بالله يارسول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبي ، لعل الله يطهر بها قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ، فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هي فضلة من شراب النبي صلى الله عليه وسلم جئتكم بها تشر بها لعل الله يطهر قلبك بها . فقال له أبوه : فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : يارسول الله ! أما أذنت لي في قتل أبي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” بل ترفق به وتحسن إليه “ . وقال ابن جريح : حدثت أن أبا حنيفة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر ابنه صكة فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : ” أو فعلته ، لا تعد إليه “ فقال : والذي بعثك بالحق نبياً لو كان السيف مني قريباً لقتلته . وقال ابن مسعود : نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل : يوم بدر . وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله حين قتل أباه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية . قال الواقدي : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجلاً من بني الحارث بن فهر فقالوا : توفي أبوه من قبل الإسلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر “ . ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

(١) راجع ج ٨ ص ١٩٤

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان

أبوه عبد الله رأس المنافقين وفيه نزلت الآية .

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . (أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) يعنى عمر بن الخطاب قتل خاله العاص
 ابن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعلياً وحزرة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن
 الآية نزلت في حاطب بن أبى بلتعة ، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم
 عام الفتح ؛ على ما يأتى بيانه أول سورة « المتحنة » إن شاء الله تعالى . بين أن الإيمان
 يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب .

الثانية — استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم .
 قال أشهب عن مالك : لا تجالس القدرية وعاديتهم في الله ؛ لقوله تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثوري أنه قال : كانوا
 يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبى داود أنه لقي المنصور
 في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول :
 « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي نِعْمَةً فَإِنِّي وَجَدْتُ فِيهَا أُوحِيَتْ » لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ — إلى قوله — أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ « (١) أى خلق في قلوبهم التصديق ؛
 يعنى من لم يوال من حاد الله . وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل ؛
 كقوله تعالى : « فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (٢) أى أجعلنا . وقوله : « فَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ » (٣)
 وقيل : « كُتِبَ » أى جمع ، ومنه الكتيبة ؛ أى لم يكونوا ممن يقول تؤمن ببعض ونكفر ببعض .
 وقراءة العامة بفتح الكاف من « كُتِبَ » ونصب النون من « الْإِيمَانَ » بمعنى كُتِبَ الله وهو الأجود ؛
 لقوله تعالى : (وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) وقرأ أبو العالية وزر بن حُبَيْش والمفضل عن عاصم
 « كُتِبَ » على ما لم يسم فاعله « الْإِيمَانُ » برفع النون . وقرأ زر بن حُبَيْش « وَعَشِيرَاتِهِمْ »
 باللف وكسر التاء على الجمع ، ورواها الأعمش عن أبى بكر عن عاصم . وقيل : كُتِبَ
 فِي قُلُوبِهِمْ « أى على قلوبهم ، كما فى قوله « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » وخص القلوب بالذكر لأنها
 موضع الإيمان . « وَأَيَّدَهُمْ » قواهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : وبصر منه . وقال

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال ابن جريج : بنور وإيمان وبرهان وهدى . وقيل :
 برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم
 ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجاني عن
 بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلهي ! من حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه :
 « يا داود الغاضة أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكنفهم ؛ أولئك حزبي وحول عرشي » .

ختمت والحمد لله سورة " المجادلة "

محققه

أحمد عبد العليم البردوني

١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٨٥

١٥ أغسطس سنة ١٩٦٥

✱ ✱

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي .

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر ، وأوله :

" سورة (الحشر) "



بِعَوْنِ اللَّهِ ، وَجَمِيلِ تَوْفِيقِهِ ، قَدْ تَمَّ طَبْعُ الْجُزْءِ السَّابِعِ عَشَرَ
مِنْ « تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ » بِمَطْبَعَةِ دَارِ الْكُتُبِ ، فِي شَهْرِ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ١٣٨٥ هـ ،
سِبْتَمْبَرِ (سَنَةِ ١٩٦٥ م) مَا

مُحَمَّدُ هَمْدِي عَلِي جُنَيْدِي
رئيس المطبعة

